هل ضاقت الأرض بسكانها ؟

رأيان علميان :
للعالم السوفييتي ك . فيدروف
وللعالم الأمريكي : هـ . براون
ملحقان بمطالعة للدكتور عبد الكريم اليافي
استاذ علم السكان في جامعة دمشق

قضايا السكان في الوقت الحاضر تشغل أفكار العلماء والسياسيين في مختلف ارجاء الارض . وقد نشرت مجلة (ساتورداي ريفيو) مقالا اشترك فيه عالم من الاتحاد السوفياتي وعالم آخر من الولايات المتحدة الامريكية تبادلا فيه وجهات النظر المتفاوتة . وقد رأينا ان نعرض هذين الرأيين كما جاءا في المقال لبيان جوانب المشكلة العالمية ، مع تعليق للاستاذ عبد الكريم اليافي استاذ علم السكان في جامعة دمشق ، على رأيي العالمين الكبيرين ، يبرز فيه وجهة النظر العربية في هذه المشكلة . وفيما يلي ترجمة موجزة للمقال ، مردفة بالتعليق .

تقديم مجلة « ساترداي ريفيو »

كان الناس قبل ثلاثمائة سنة بعدد سكان الهند الآن أو يزيدون عليهم قليلا . وقد أصبحت زيادة السكان بمعدلها الحاضر تنذر بلوغ سكان الارض بعد اربعين عاما ستة مليارات يكافحون في سبيل القوت ، اذا لم تقع كارثة الحرب الذرية . اما العلماء الغربيون من اوروبيين وامريكيين فانهم يتخوفون من هذا الازدياد . واما العلماء السوفيات فانهم لايخشون تلك الزيادة بل يرون ان الارض قادرة على استيعاب مالايحصى من الناس . ولقدطلبت المجلة من الاستاذفيدروف أمين الاكاديميةالسوفياتية للعلوم أن يكتب رأيه في ذلك، وأعلتهانهاستكلف السيد هاريسون براون استاذ الكيمياء الحيوية في معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا ان يعلق عليه .

رأي ك . فيدروف

كان الانسان الاول عبد الطبيعة . كان الصيادون الاوائل يبحثون عن الفاكهة والثمار البرية وعن الطرائد دون ان يتدخلوا في تغيير مجرى الحوادث الطبيعية أو ينقضوا توازنها .

ولما برزت الزراعة وغدت الركن الاساسي لنشاط الانسان فعرف كيف يزرع الارض ويرويها ، تحولت علاقته بالطبيعة فدخلت مرحلة جديدة أصبح فيها يحاول التأثير في مجرى حوادثها ، وما زالت تلك المرحلة مستمرةحتىاليوم.

ذلك ان من خصائص عصرنا الحديث ، التأثير الواسع المشتبك التبادل بين الانسان والطبيعة . لقد سخرت التكنولوجيا في العصر الحديث قشرة الارض للانسان ووضعتها في خدمته ورهن تصرفه . حتى انه اصبح من العسير ان نتصور كيف عاش الانسان في عصر من العصور السالفة دون ان يعتمد على الحديد مثلا ، وأن نتصور كيف كان في عصر آخر قريب يستخرج معدن الراديوم ويرمي باليورانيوم كأنه فضلات لافائدة فيها .

ومع هذا لاتزال طائفة كبيرة من خيرات الطبيعة المحيطة بنـــا بكرا لم يستثمرها الانسان ولم يجن عطاءها . وفي ذلك مافيه من مغريات التحدي لمهارة الانسان ولعلمه وحيلته .

ازاء هذا الموقف الفكري ، كان فريق من المفكرين ، وفي طليعتهم مالتوس ، يرون ان تطور الانسان يهدده النقص المستمر في ثروات الطبيعـة من النفط والحديد والفحم والماء وغيرها من الموارد . حتى إن بعضهم يعزو تخلف طائفة من المجتمعات الى غيض تلك الموارد .

انما أشرت الى نظرية ذلك القسيس الغابر لان اتباعه يلحون في الحاضر على ان ازدياد السكان الشديد انما هو بمثابة « قنبلة » من اكبر الاخطار التي تتهدد الانسانية ان لم تكن اكبرها على الاطلاق .

واذا كانت موارد الطبيعة محدودة حقا وكانت حاجات الانسـان غير محدودة فما وجه الاعتراض اذن على تلك النظرية ؟

وجه الاعتراض عندنا ان موضوع الاهتمام ينبغي ان يتركز على حاجات المجتمع الانساني الاساسية وعلى وسائل سدها ، لاعلى الامور الطبيعية لذاتهـــا

كالزيت والفحم والحديد وغيرها وكذلك ينبغي الا نغفل عن حيلة الانسان وعن سعة تدبيره .

لنضرب الطاقة مثلا : ان انتاج الطاقة واستهلاكها بالجملة ، اوبالنسبةللفرد الواحد ، أمران مستمران ابدا في الازدياد . ثم ان ازدياد انتاج الطاقة يفوق ازدياد الاستهلاك . ولذلك لابد — في رأيي — من أن يأتي يوم تتراكم فيهالطاقة الفائضه وتربي على حاجات الانسان .

هذا وان استثمار موارد الطاقة المتوافرة اصبح اكثر دقة ونجوعا . فلقد اشتد الآن اعتماد الوسائل الحديثة في تحويل الطاقة الحرارية الى الطاقة الكهربائية عن طريق الوقود الذري وعن طريق القوى المائية المغناطيسية (M . H . D) وهي وسائل أسهل وأيسر وأنجع من العنفات .

كانت عضلات الانسان قديماً مصدر الطاقـــة الوحيد ، اما اليوم فقد ازدادت موارد الطاقة في العالم ازديادا واسعا بالنسبة للفرد ، بسبب الوقود الذري وأصبح قريبا منـــا ضبط التفاعلات النووية الحرارية ، ومن المعلوم أن مصادر فلزاتها موفورة في الارض .

وكذلك نأمل في الاستفادة من الطاقـة الشمسية ومن قوى حركات البحر كالمد والجزر والتيارات البحرية .

واذا استمر نمو موارد الطاقة التي هي طوع الانسان ، على هذه السرعة الكبيرة ، كما نشهدها اليوم ، فلسوف يتهيأ مقدار عظيم من الطاقة الحرارية يكون رهن أمر الانسان يتصرف به كما يشاء ، في مائة السنة المقبلة . وهذا يثير مشكلة صون توازن الارض الحراري بين الكواكب السيارة ، فلا بد عندئذ من اطلاق

مقادير كبيرة من تلك الطاقة المتجمعة عندنا الى الفضاء . بيد أن تلك المشكلة لن تواجه الانسان بمصاعب لايستطيع لها حلا .

اما قضية القوت أو الغذاء للسكان المتزايدين فما حلها ؟ كان الصياد القديم يحتاج الى رقعة واسعة من الارض لسد حاجات معاشه المحدودة . ولما انتقل الى طور الزراعة ، نقصت تلك الرقعة ، ثم تحسنت بالتدريج وسائل الزراعة وزادت غلات الحقول فكان من الطبيعي ان يؤدي هذا الأمر الى نمو السكان في العالم .

على اننا لانزال في البداية من مرحلة استثمار خيرات الارض . فالبحار المحيطات تمكن زراعتها على نطاق واسع وبصورة ناجحة . وبالاضافة الى وفرة الاسماك تقدم اعشاب البحار وحيواناتها الصغيرة وأمثالها غذاء سائغاً يكفي آلاف الملايين من الناس .

وكذلك يفتح الغذاء الصناعي المستخرج بالوسائل الكيموية آفاقاً أوسع وهو لايحتاج إلا الى مقادير محدودة من المواد الأولية كالزيت والفحم مع عدد من الأيدي العاملة أقل مما تستدعيه الوسائل الزراعية القديمة . على أن الخطوة الاولى في هذا السبيل ستكون تغذية الحيوان قبل أن يهيأ تهيئة صالحة سائغة للناس .

وأعتقد أن تقدم العلم سوف يخول الانسان أن يحول أية مادة الى أخرى ويقتضي ذلك أمرين : الطاقة ، والمادة الأولى المراد تحويلها .

أما مايدعيه المفكرون المالتوسيون المعاصرون من ان سكان العالم سوف يزيدون في الوقت القريب حتى تعجز الأرض عن حملهم فالذي أراه ، ان ذلك الوقت القريب الذي قد تتحقق فيه نبوءتهم الخيالية لن تأتي قبل آلاف السنين . وقبل ذلك بكثير أي في غضون عشرات السنين القبلة سيصبح الانسان قادراً على القيام برحلات منظمة في الفضاء الى كواكب سيارة أخرى غير الأرض . وبهذا

يتحقق حلم بعض المفكرين ، وهو ان الانسان سوف يلتمس الحرارة والضوء في المجموعة الشمسية كلها ، وينشر نوعه فيها عن طريق هذا الالتماس .

أفمعنى هذا ان موارد الطبيعة لاتنفد ؟ أو معناه أنه يجوز لنا ان نسرف في استهلاك تلك الموارد ؟ كلا . ان الموارد الطبيعية محدودة بلاريب ولكن قدرة الانسان على الاستفادة منها غير محدودة .

وعلينا اذن أن نستعمل الثروة في مواضع استعمالها دون اتلاف ولا اسراف ، ثم يذكر فيدروف التقدم الكبير الذي حصل في الاتحاد السوفياتي ، حين انتقل المجتمع من استعمال الموارد الطبيعية استعمالاً لانظام فيه الى التخطيط المعقول ، ويشيد بالمشروعات الضخمة التي غيرت وجه الطبيعة في أحواض نهري الفولغا والدون ، وبالخطة التي تقصد الى التحكم في مستوى سطح بحر الخزر ، وذلك بتحويل مجاري بعض الانهار الشمالية الكبيرة امثال « بيكورا » و« سفيرناياد فينا» لترفد مياه ذلك البحر فيعتاض بها عن كثرة التبخر الحاصلة في خزانات مشروعات الفولغا . وثمة خطة أخرى تقصد الى تغيير مجاري نهري « الأوب » و« الينيسي » الى الجنوب الغربي لارواء صحاري آسيا الوسطى الواسعة .

ان كثيراً من البلاد تجهد في صون ثرواتها المختلفة من غابات ومن حيوان البر والبحر ولكن يجدر بنا ان نتجاوز مجرد هذا الصون وان نخطط تخطيطاً شاملا لتحسين تلك الثروات ولتنميتها في مختلف البقاع البرية والبحرية . لنورد مثلا على ذلك وجود بعض السمك الممتازة النوع في البحار الشمالية ، وهي لن تستطيع الانتقال بأنفسها الى لجج البحار الجنوبية الباردة لحيلولة البحار الحـــارة الوسطى دون وصولها .

واذن تلزم لها معونة الانسان لكي تبلغ الى تلك اللجج ، ولكي تستطيع النمو والتكاثر فيها . وهكذا نجد ان التخطيط العلمي الشامل للاستفادة الكاملة من موارد الطبيعية ضرورة يمليها تقدم الانسان ، وهي ليست إلا سبيلا من سبل التعاون الدولي السلمي .

لقد حان الوقت للتعاون من أجل القضاء على المرض والجوع في شتات انحاء الارض، ولا شك ان الاستعمار كان ينتقص كثيراً من خيرات بعض البلاد ، وهو مسؤول عن تلك المجاعات والامراض . فاذا زال الاستعمار ، وتم تحسين وسائل الزراعة ، وصح توزيع الغذاء ، تيسر القضاء على تلك المجاعات والامراض التي تفتك بالكثيرين .

ويجدر بالعلماء أيضاً ، أن يضموا جهودهم لمكافحة كثير من الآفات المستعصية كالسرطان ، وتخليص الانسانية من كوارثها .

على ان احلام العلماء لا تقف بهم عند هذا الحد ، بل تدفعهم الى غايات أبعد مدى فهم يفكرون في تغيير شروط الحياة على كوكب الارض وفي تبديل ما يلائم من عناصر مناخها واقاليمها . ومن رأى في هذه الاحلام شططاً فانما يغفل عن قوة الانسان العظيمة المبدلة . ذلك ان جميع الكائنات الحية من وحيدة الخلية حتى الانسان نفسه ، تملك في مراحل تطورها المتعاقبة ، مقدرة على ضبط هذا التطور ، ومثل هذا الضبط الذي يربط بين سلاسل متفاوتة من الظواهر المشتركة جار حتى في الحوادث الطبيعية .

ان وسائل الضبط هذه ليست موجودة على الدوام . بل هي تختفي وتظهر في الحين بعد الحين ، ولكن الاستفادة منها تلوح بآمال كبرى ، حتى ان بعض

جوانب المنـــاخ والاقليم اصبح طوع تحكم الانسان ، فاذا أردنا مثلا ان نبدد سحاباً في الجو لم نحتج الآن الى تسخينه واستهلاك ملايين من الكيلو واطات الساعية لكل كيلو متر مكعب من ذلك السحاب ، وانما حسبنا ان نقذف ببضع مئات من الغرامات فقط من ثاني أوكسيد الفحم المجمد في سحابة شديدة البرودة لكي تتحول الى حالة متبلورة ، وهي طريقة صنعية تستغل الطاقة التي في السحاب نفسه .

أوليس في مكنة العلم في المستقبل أيضاً ان يذيب الغلاف الثلجي في البحار القطبية فترتفع عندئذ درجة الحرارة في تلك البقـــاع وتتفتح سبلها للملاحة ولسكنى الناس ؟ . .

لاشك أن هذا مجرد اعتبار ، اما اذا آن الوقت لتطبيقه فلابد حينئذ من دراسته دراسة دقيقة ، ولا بد من الاحتراز من عقباته ، فقد ترتفع مياه المحيطات بسبب ذلك ارتفاعا قد ينذر بالخطر ، ومع هذا فان تذليل مظاهر الطبيعة الواسعة ، بمجهود ضئيل نسبيا من قبل العلم ، اصبح قريب المأخذ من الانسان .

ويلح فيدروف بعد ذلك على التعاون الدولي في هذا المجال ، وفي غيره . ويقدم مثلا آخر على امكان هذا التعاون في مجال الفضاء . واذا كان كولومبس قد استعمل سفينة صغيرة حين قام برحلته الى العالم الجديد ، فان تلك السفينة ليست شيئاً يذكر في جانب عابرات المحيط القوية الحديثة .

على ان تحسين تلك البواخر التي تمخر في عروض البحار وأطوالها ، قد اقتضى نحواً من اربعمائة سنة . اما اليوم فان الاقمار الصناعية الاولى ، لم يمض عليها اكثر من ثلاث سنوات حتى امكن اطلاق « فوستوك » سفينة يوري غاغارين العظيمة . فالتقدم التكنيكي اصبح سريعاً جداً في العصر الحاضر بحيث لن يمضي عشرون أو ثلاثون عاماً حتى يصل الانسان الى الكواكب في سفن فضائية عظيمة تبدو سفينة غاغارين بالنسبة اليها كقارب كولومبس .

اننا ، من عصرنا الجديد ، في فجر يشبه ، من بعض الوجوه ،فجرعصر النهضة الاوروبية ، الذي رافقه كشف قارات جديدة . ولكن ذلك الكشف اقترن بمساوىء شنيعة كالاستعمار والاستغلال . والآن في فجرنا هذا يتحدث البعض عن استخدام الفضاء لاغراض حربية ولكن في هذا خروجا عن غايات العلماء الانسانية في كشوفهم العلمية وفي جهودهم لتعرّف الفضاء . أولا يعتبر الانسان فيستفيد من تجارب الاربعمائة سنة السالفة لكي يصدف عن اقامةالقواعد الحربية في القمر أو يتحامى إشعال نيرانحروبالاستغلال والاستعمار في كوكبي المريخ والزهرة مثلا ؟

اننا نرغب ، بدلا من تلك الحروب ، في ان تفتح تلك الكشوف ، آفاقا جديدة لسعادة الانسان ، ولتوسعة معرفته عن بنية المادة الدقيقة والطاقةوتحويل كلتيها الى الاخرى ، ولاريب في ان تلك المعرفة ستكون حافزاً للانسان على تقدم جديد مستمر .

ونزيد هاهنا ان نؤكد ان فرص الابداع للنهوض بحياة الانسان على الارض ، ولقدرته على التأثير في الطبيعة لمنفعته ، تشف عن امكانيات كبيرة آخذة في الازدياد المطرد . وانما يبقى على الدول جميعاً ان تتعاون في هذا السبيل كما حدث فعلا في السنة الجيوفيزيائية ، وأن تتوزع الاعمال في خدمة الانسانية الجديدة المقبلة وألا تأذن للحرب الباردة ان تحول دون هذه الغايات النبيلة .

تعليق ه . براون

يسعدني أن أعلق على مقال الاستاذ فيدروف ، وقد كنت التقيت بـه مرات ، وتبادلنا وجهات النظر بشأن مشكلات التعاون الدولي في مجـال العلم .

فاتفقت آراؤنا احيانا ، واختلفت احيانا أخرى ، وانما يرجع هذا الاختلاف الى تباين ثقافة بلدينا .

يبدو من مقال الاستاذ فيدروف انه ينظر الى مشكلات السكان وتنمية موارد الطبيعة نظراً يشبه فيه الذين ندعوهم في امريكا ، أصحاب الصور ، ذلك الصور المترع بالثمرات والخيرات والذي يرمز الى بركات الطبيعة التي لا تنفد Cornucopians وكل الخلاف بينه وبينهم أنه يشترط التخطيط العلمي الشامل من قبل الدولة لتحقيق تلك الخيرات والبركات .

أوافق الاستاذ فيدروف في أنا لا نزال في بداية ادراكنا لامكانات التكنولوجيا الحديثة وأثق معه أن موارد الطاقة تكاد تكون كثيرة لا حد لها ، وان قدرة الانسان واسعة . فهو يستطيع ضخ المياه الى آلاف الاميال واستصلاح طائفة من اراضي البحار للزراعة . ثم ان تناقص الفلزات في المناجم تعوضه قدرة الانسان على إستحصالها من مختلف الصخور بالتكنولوجيا الحديثة . وقد نتحكم في المستقبل في تكييف الاقاليم ، وربما استطعنا إذابة الغلاف الثلجي ، وليس مايمنع من ان نسافر الى الكواكب الاخرى أو أن نخترع آلات جديدة تكفل لنا مختلف الحاجات بحيث يقوم العامل بأقل جهد ممكن في المستقبل ، أو تنعدم الضرورة عند غالبية الناس للقيام بأي عمل ، فانا اذن متفائل ازاء تقدم التكنولوجيا تفاؤل الاستاذ فيدروف . فأيّان يقع الخلاف بيننا اذن !

الخلاف بيننا اني أرى ازدياد السكان في العصر الحاضر مشكلة حتمية تلزم مجابهتها ، وليست كما يقول الاستاذ ، خيالية لن تقع قبل آلاف السنين . هنا في رأيي أهم نقاط الخلاف .

ثم أن مضمون كلام الاستاذ فيدروف يدل على ان انتـــاج السلع المادية الصناعية ، تكفل حاجات البشر ، وان ذلك الانتاج المادي في حد ذاتـه ، غاية الوجود الانساني ومعناه . وأنا لاأوافق على هذا ابداً .

أما من جهة السكان ، فعندي أنه من الخير للانسانيـة أن يقف ازدياد السكان في الولايات المتحدة وفي كل مكان آخر من الارض . ولست أشك في أن وسائل التكنولوجيا تيسر للانسان سد حاجات عدد أكبر من سكان العالم الحاليين بل قد تمكن تلك الوسائل الارض من استيعاب مائة بليون من السكان ، بدلاً من ثلاثة بليون ، عدد سكان الارض في العصر الحاضر ، وربما تصور فيدروف هذا العدد فوصل به الى الف بليون ، ولكن لا أنظر الى الحياة على أنهـا سباق مع الطبيعة لتقرير مدى عدد السكان المزدحمين على سطح الارض ، وإنمـــا الى كيفية حياتهم ، على أنها أهم من مجرد الكمية .

لا أدري كيف يتصور فيدروف عالم المستقبل الذي يستمر فيـه ازدياد السكان بسرعته الحالية ، ولا مقدار الازدحام ، الذي يرضى الناس أن يعيشوا فيه ، ولا كيف يتخيل عالم المستقبل هذا وقد غطته ، مع البشر المكتظـين ، الطرق المعبدة ، والانابيب الممدّدة ، والمصانع اللاهثة ، ومجمّعات المساكن الشعبيـة التي تقام الآن بأعداد كبيرة في معظم البلاد الاشتراكية أو أمثالها في الولايات المتحدة ؟

اذا كان عالم المستقبل على هذه الصورة المكتظة ، فلست أرضى بالعيش فيه ، بل لو غدا عالم المستقبل بكامله مكتظاً اكتظاظ اليابان الحديثة ، فليس ذلك عندي جميلاً ولا مغرياً ، لأن الناس ليسوا كالنمل ، ذلك أن النفس الانسانيـة تحتاج الى فضاء ، والى فرصة الاتصال بالطبيعة ، كما تحتـاج الى التحرر من التوتر

والقيود التي ترافق الازدحام . وأعتقد أن ثمة كثيرين في الاتحاد السوفياتي يرون رأيي هذا .

لقد أتيح لي أن أشاهد قطعاناً بشرية تزدحـــم على شواطيء « بالطة » و « الدنيبر » كما يزدحم الاميركان في جزيرة « كوني » . ولقد قضيت مدة حلوة مع الاستاذ فيدروف في بيته الصيفي الجميل في خارج موسكو ، تحيط به الاشجار، ويهيمن عليه السلام والهدوء ، وهو يحـــكي في انعزاله بيتي الريفي في الولايات المتحدة . ويدل كل من هذين البيتين على رغبة أصيلة في نفوسنا وهي الابتعاد عن جماهير الناس ، وعن ضغط حياة المدن الكبرى .

وأياكان الامر ، فاني أعتقد ، أن فيدروف يوافق أنّا سوف نصل الى حد يجب ان يقف معه ازدياد السكان . ربما نتجادل في مدى ذلك الحد ، ولكن لا بد لزيادة السكان من أن تقف عند حد من الحدود بمشيئة الانسان نفسه ، وإلاّ فان الطبيعة نفسها سوف ترغمه على ذلك التوقف بزيادة الوفيات على الولادات .

ان موضع التهافت فيموقف فيدروف استناده الى بقاء الامور على أحوالها في شأن السكان . ولكنا نعلم أن سكان البلاد المتخلفة تزداد ازدياداً سريعـاً فاذا أريد لهم أن يعيشوا في المستوى اللائق في وقت قصير لزم أن يزيدوا تقدمهــم الاقتصادي ولا يجوزأن يكون ذلك التقدم الاقتصادي بنفس معدل ازديادالسكان. فلو نمت العوامل الاقتصادية وازدهرت بمعدل خمسة وعشرين في المـائة كل عشر سنوات وازداد السكان بنفس المعدل ، فلا شك أن مستوى معيشتهم تبقى هي ذاتها دون تحسن . وكل ما يحدث من تبدل انما هو اكتظاظ أكبر وشقاء أشد . هذا ويبدو نقص معدل الولادات مكافئاً لزيادة الرساميل المستثمرة من جهة النظر الى معدل النمو الاقتصادي للفرد .

تعليق الدكتور عبد الكريم اليافي

يجدر بنا خدمة لقراء المعرفة وقد اطلعوا على رأي الاستاذين الكبيرين أن نعرض أولاً جوانب من تاريخ هذه القضية التي تفرق بين علماء الغرب وبين العلماء الاشتراكيين في النظر الى علاقة السكان بالموارد الاقتصادية وان كان كثيرون منهم مطلعين عليها ، فان تاريخ القضية يزيد في جلائها ، ثم نعقب على الرأيين بما نراه مناسباً من الوجهة الفكرية والقومية والانسانية .

١ — أصل المشكلة أثارها القس الانكليزي مالتوس كما ذكر فيدروف حين أصدر كتابه « بحث في مبدأ السكان » سنة ١٧٩٨ وأعاد طبعه موسعاً سنة ١٨٠٣ . ورأيه كان ثمرة وضعه الاجتماعي اذ ذاك .

فلقد كانت انكلترا تشهد انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً . كان الريف فيها متأخراً ، والصناعة بدأت تقوم وتتسع وتجتذب اليها أفواجاً من الريفيين ، كما كانت الفتن والاضطرابات تقع في الارياف وفي المدن . وكان الناس إذ ذاك كثيري الاولاد . كتب مواطن لمالتوس ومعاصر له ، وهو « ارثورينغ » عن مقاطعة لنكلنشير : « يزداد السكان هنا ازدياداً سريعاً الى حد أن الأولاد والخنازير يعج بها كل مكان » . وقد وضع اذ ذاك قانون يقضي باعانة الفقراء والمعوزين الذين مضى على سكناهم في منطقة الابرشية سنة على الأقل . ويفضي هذا القانون في رأي المحافظين اذ ذاك الى معونة الكسل وقلة التبصر في كثرة النسل . كتب مالتوس: « لقد سنت انكلترا قوانين لاقامة نظام في معونة الفقراء . غير أنه من الممكن حين ننقص آلام الأفراد بعض الشيء أننزيد في نشر الشقاء فنجعله أكثرشمولاً » .

وخلاصة رأي مالتوس أن الكائنات الحية تجنح الى زيادة لاتتفق مع مقدار

الغذاء المتوافر لها . واذا لم يمنع ازدياد السكان مانع فانها تتضاعف في خلال خمس وعشرين سنة وتتكاثر في أشكال متوالية هندسية على حين لا تزداد مقادير الغذاء والقوت في أجود الأحوال إلا وفق متوالية عددية . واذا طبقنا هذه العلاقة على الناس لزم أن يحصل تباين كبير بعد أمد من الزمان بين عددهم وبين مقدار القوت المتوافر لهم .

ثمة في رأي مالتوس نوعان من الحوائل التي تعترض مبدأ زيادة السكان . أحدهما يتفادى ويعيش عيشة عفاف أو يؤخر زواجه فلا يتزوج حتى يضمن لنفسه حسن القيام بنفقة الأسرة ويتكفل تبعاتها . أما التدابير التي يتخذها بعض الأسر تحامياً للنسل فيعتبرها مخالفة للاخلاق وينكرها .

وثاني نوعي الحوائل الذي يتلافى زيادة السكان هو كثرة الوفيات الواقعة بين الناس بالفقر والمجاعات والأوباء والبؤس والحروب .

كانت آراء مالتوس تمثل طبقة المحافظين في انكلترا . وقد ابتهجوا لصدور كتابه اذ يرفع فيه عن الطبقة الحاكمة والغنية تبعة البؤس والفاقة الجاثمين بين كثير من سكان البلاد ويلقي بها على كواهل البائسين والفقراء أنفسهم فهم لا يتبصرون قبل الاقدام على الزواج .

ثم جاء بعد مالتوس مفكرون غربيون تجاوزوا آراءه وان استندوا الى أصولها ، فدعوا الى الوقاية من الحمل باستعمال مختلف الوسائل دون التفكير في تأخير الزواج أو في تجنبه . وحركتهم هذه مع مايعتمدونه من حجج دعيت بالمالتوسية الجديدة .

أما المذاهب الدينية في أمريكا واوروبا فلقد اتخذت مواقف مختلفة تطورت

بعض الشيء . وكان المذهب البروتستانتي أكثر تسامحاً تجـــاه ضبط النسل من المذاهب الكاثوليكي فأباح اليوم اتخاذ مختلف الطرق العلمية المانعة من الحمل . ولكن المذهب الكاثوليكي كان موقفه انكار تلك الطرق . ثم تساهل في الوقت الحـاضر أزاء اتباع طريقة أوجينو المستنـدة الى دورة الطمث وعقم الزوجـة في أغلب مراحلها (١) .

وأما المذهب الاشتراكي العلمي فسرعان ما اعتبر مالتوس وأتباعه رجعية واتخذ موقفاً معادياً لها . فأزمة اكتظاظهـم ان وقعت ليست إلا عاقبـة لفساد النظام الرأسمالي .

ثم اعتبر لينين تلك الآراء المالتوسية تعبر عن صيحات الخوف والهلع منبعثة عن طبقات منهارة صائرة الى الزوال والبلى . وهو يقول : « نحن متفائلون حقاً بحركة العمال واهدافها . اننا نرفع قواعد البناء الجديد الذي سيتممه احفادنا هذا هو السبب الذي يجعلنا الاعداء الالداء للمالتوسية الجديدة » .

هذا هو تاريخ اختلاف الرأي في هذه المشكلة بصورة موجزة بين الغرب والشرق وليست مقالة فيدروف وتعليق براون عليها إلا امتداداً حالياً لتلك المواقف .

على انه من وجهة السياسة السكانية العملية ، نجـــد مواقف المجتمعات الرأسمالية تختلف في النظر الى ضبط النسل . فالبلاد الشمالية تأتي في طليعتها السويد وفنلندا ، فبها مؤسسات اهلية تتلقى اعانات مالية من الدولة تروج للتربية الجنسية، وتعطي جميع المعلومات حول تحامي النسل لمن أراد وتبيع الوسائل الحديثة المستعملة في ذلك . وفي الولايات المتحدة مؤسسات شبيهة بتلك . وفي بريطانيا ذلك تابع

(١) موقف الدين الاسلامي جلوناه باختلاف أشكاله في اثـناء بحثنا « الغزالي وتحديد النسل » الذي ألقيناه في مهرجان الغزالي بدمشق ربيع سنة ١٩٦١ .

لوزارة الصحة وجائز في الاحوال المشروعة الضرورية ، اما في فرنسا فالخطر شديد على من دعا لاستعمال تلك الوسائل .

هذا ونجد من جهة مقابلة ان موقف الاتحاد السوفياتي قد تبدل بعض الشيء . فقد أباح مجلس السوفيات الاعلى الاجهاض سنة ١٩٥٥ اذ اعتبر المرأة السوفياتية أصبحت على درجة من الثقافة والادراك تستطيع فيها ان تقدر واجبها وسلوكها مع بقاء اعتباره النظرية المالتوسية حركة رجعية . فالمرأة حرة لها أن تفعل ماتريد ازاء الحمل أو عدمه . ولكن سياسة الدولة في جانب ازدياد السكان .

٢ — بهذا الشرح التاريخي الذي قد تطاول بعض الشيء نكون قد القينا ضوءاً كاشفاً عن أصل تلك المشكلة . ولقد أصاب براون حين ذكر ان الاختلاف بينه وبين فيدروف راجع الى الاختلاف بين ثقافة بلديهما . هذا وان نمط الاقتصاد الرائج في كل من هذين البلدين يفضي حقاً الى تفاوت الرأي .

ومع ذلك فان أي قارىء المقالين يفرق بسهولة بين اللحن الجدي الانساني المتفائل في حديث فيدروف وبين نغمة التهكم المتردد في حديث براون . ومن الغريب ان الرأيين مع كونهما في الاصل يستندان الى التفكير المادي يختلفان في النتائج كل الاختلاف . فاولهما ينزع تلك النزعة الانسانية العالية ، والآخر يرتطم بتشاؤم مطبق لايكاد يعرف له مخرجاً إلا تحديد النسل أو الحرب . ذلك ان التفكير المادي الأول منظم يفهم تناقضات المادة ويحيط بها علماً ليحلها وليتجاوزها ، وان التفكير المادي الثاني مبهم يمزج بين الكم والكيف ولا يبرز العلاقة بينهما .

٣ — ان براون ينبه على وجوب اعتبار كيفية الحياة الانسانية لا اعتبار كمية الأحياء العائشين في المجتمع فقط . وهذا صحيح . لكن لايجوز ان نغفل علاقة الكيفية بالكمية منذ ان نوه بها هيغل قبل ماركس . فالتغييرات الكمية

المتراكمة تنقلب الى تغييرات كيفية مفـــاجئة . ولاشك ان ازدياد السكان في الولايات المتحدة نفسها كان عاملا قوياً في تقدم الحياة الاجتماعية وفي تنمية الموارد الاقتصادية . وربما كانت هذه النقطة من البحث تثير مشكلة الحد الموافق لعـدد السكان ، وهي مشكلة وهمية ذات جوانب متعددة اقتصادية وسياسية كثر نقاشها منذ زمن طويل في كتب الجغرافية البشرية وفي كتب علم السكان .

٤ - ان ذلك التفائل المتصاعد في مواضع مختلفة من مقالة فيدروف ليس مجرد خيال اذا حيل دون الانسان ودون نشوب الحروب الذرية . ولم يكن حديث امين اكاديمية العلوم السوفياتية الا موجزاً . ولاشك انه ، فوق ماذكر من موارد الطاقة المقبلة المرتقبة ، من أشد الناس اطلاعاً على محاولات العلماء في البلدان المتقدمة أنفسها ان يستفيدوا من حرارة طبقة الصخور المنصهرة في جوف الارض على اعماق نحو من ثلاثين كيلو متراً تحت اليابسة وعلى اعمـاق أقل من ذلك تحت سطح البحر ، وهي الطبقة التي تدعى ماغما Magma وتصبح ترجمتها بالمهل . وهي مورد ضخم جديد للطاقة ربما استغلته الانسانية لصالحها في المستقبل القريب .

ثم ان حديث فيدروف حول رحلات الفضاء عام لم يقصد فيه الى التفصيل لأنه كلام للعالم . ولو أراد شيئاً من التفصيل لذكر أن جو المريخ اذا لا ءم للسكنى بعد زيادة مقدار الاوكسجين فيه ومكافحة البرودة على سطحه فان بعض الاقمار ، ومنها قمرنا ، تصح الاستفادة منها في خزن الطاقة الشمسية ونقلهـــا الى الارض نقلا جيداً . وفي هذا مافيه أيضاً من زيادة الطاقة التي تتوافر عندنا في كوكبنا السماوي .

٥ - ان العلم الصحيح بوصفه قيمة انسانية كبرى لايمكن فصله عن

التفاؤل الصميم ، وهو قيمة أنسانية كبرى خلقية . وبرغم ما اظهره برأون من حب الطبيعة وحب الاخلاد الى الهدوء والسكينة فاني اعتقد ان الشعب الامريكي بجملته يحب الحياة الاجتماعية ويحب الاستضافة كحبه احياناً للعزلة بل فوق حبه لها. وماذا نقول ايضاً في السوفيات الذين يعيش قسم منهم أسراً متعددة في بيت واحد صغير ، فان تربيتهم الاشتراكية تقرب بينهم وتقلل المسافات .

٦ — ان العالمين الكبيرين مع كلامها الجيد يغفلان النظر حقاً الى الظواهر الديمغرافية في ذاتها والى تطور تلك الظواهر الذاتي .

فمن المعلوم لدى علماء السكان ان ازدياد السكان عند الشعوب يتبع مجرى خفياً . فهو في البداية يكون شديداً لكثرة المواليد التي ترافقها كثرة الوفيات ، اذا تقدم المجتمع وازدهرت الموارد الاقتصادية واستفاضت العلوم فيه ، ثم يتبع انخفاض الوفيات هذا انخفاض الولادات . وقلة الولادات هذه أمر معروف في البلاد الرأسمالية المتقدمة بالنسبة الى البلاد الناشئة أو المتخلفة . بل ان تلك القلة اصابت معدل الولادات في الاتحاد السوفياتي اذا نظر في تاريخ ذلك المعدل في مختلف المراحل . وعلى هذا يبدو ان الشعوب الناشئة التي يكون فيها ازدياد السكان سريعاً لا بد ان يعتدل فيها ذلك الازدياد . وهكذا لا يخولنا علم السكان نفسه النظر إلى ازدياد الناس على انه مطلق ومستمر بنفس السرعة في المستقبل .

ومهما كان الامر فان تنظيم الاقتصاد حسب السكان أفضل وأيسر في العصر الحاضر من تنظيم السكان حسب الاقتصاد .

٧ — من وجهة النظر العربية الصرف عدد سكان العالم اليوم ثلاثة مليارات كما سبقت الاشارة اليه . ومساحة الوطن العربي كله عشر مساحة

المعمورة ، ولكن عدد سكان هذا الوطن أقل من مائة مليون مع انه بالنسبة الى عدد سكان الارض ينبغي ان يكون على الاقل ثلاثمائة مليون . هذا وأن البلاد العربية قائمة في أجود مناطق الارض اعتدالا واكثرها غنى بالنفط وبغيره من خيرات الارض المدفونة . وقد أشار فيدروف الى لعنة الاستعمار بما فيه الكفاية . ونعتقد أن كل زيادة في سكان البلاد العربية من شأنها ان تحفز على التقدم بمختلف صوره ، ولاسيما بعد أن يستصلح الناس الاراضي المقفرة ويتعـاونوا على استثمار موارد الطاقة المخزونة في بلادهم استثمارا صحيحـــاً ، ولاشك ان ذلك متصل بالاوضاع السياسية .

٨ – يفكر براون في تحسين مستوى المعيشة عند البلدان المتخلفةوذلك بتقليل الولادات فيها . ولسنا نخجل من مشاهد الفقر والتخلف والبؤس احيانافي البلاد العربية لاننا نعتقد انها وقتية ، ولايقلل ذلك من ثقتنا بانفسنا نحن الذين شاركنا في الماضي مشاركة كبيرة في اقامة صرح الحضارة الانسانية .

وانا على يقين من ان السلم والصداقة مع جميع الشعوب ورفع نـــير الاستغلال السياسي والاقتصادي عنا سوف يهيء لنا الجو المناسب للتغلب على تلك الامراض الاجتماعية كلها ، والتقدم مع تلك الشعوب في سبيل انشـاء انسانية سوية كريمة .

لذلك كله كنا حريصين أشد الحرص على ترسيخ قواعد السلم في العالم وعلى العمل البناء في جو سلمي صحيح . وكل تسلح نقوم به انما هو من قبيـل الدفاع عن النفس تلقاء الاستعمار واشباح الدول التي يصطنعها .

كيف يسوغ لنا في نهاية هذا التعقيب بل في كل مناسبة أيضاً ألا نستنكر أية محاولة لاشعال نار الحرب ، إن في الشرق وان في الغرب ؟ .

أم كيف يسوغ لنا أيضاً ألا نستنكر مع كل ضمير حي في العالم تزويد اسرائيل بالصواريخ التي هي مرصدة للفتك في الشعب العربي ولتقتيل الاطفال الصغار الابرياء وهم في طريـــق نموهم ونشوئهم وفي أمل استصلاحهم لبلادهم المحتاجة اليهم ؟ .



الفلاسفة .. أعداء الفلسفة !

للدكتور عادل العوا

يتفق النقاد من أعداء الفلسفة على الزعم بأن الفلسفة بحث نافل خيالي خطر، وانها تظل دائماً حيث تبدأ ، فلا تصل البتة الى أي نتيجة ثابتة جازمة ، وانها ـ لذلك ـ تقصر عن بلوغ منزلة الاستقرار ، وتعجز عن التحلي بسمات المعرفة الوضعية .

قالوا : إن الفلسفة لا تسير بخطى تقدمية منتظمة كما تسير العلوم وتخطو ، وهي لا تحقق أبداً تقارب العقول والتقاءها حول حصيلة نهائية مستقرة . فما زالت جهود الفلاسفة تبذل ، وما زالت مناقشاتهم تجتر ، ومازالت عبقرياتهم تتمخض منذ نيف وثلاثة آلاف سنة ، ولكن مرد ذلك كله لم يسفر عن أية معرفة قاطعة في أية نقطة من النقاط . لم تقل الفلسفة قولاً إلا وهو يتبوع بحث لاحق ، ومناقشة تالية . وقد ظهرت في دنيا الفلسفة صروح منطقية شماخ تدعي هنا وهناك تمثيل الأشياء كل الأشياء ، وتزعم انها تقدم عن الكون الى الفكر صورة يرتضيها ويقنع بها . ولكن هذه الصروح المنيفة لم تتعاقب تعاقب حلقات متسقة ، بل كانت

مذاهب شتى تذخر ، في أحسن افتراض ، بقوة ايحاء لولا أنها كانت بذاتها نتاج وهن واه . انها تثير فضول الفكر ولكنها لا تطعمه . تراوده سراباً ولا ترويه ماء ؛ ولذا نجدها رؤى متهافتة تزول كالأحلام يدفع بعضها بعضاً ، وهي كلها تنشد مثلاً أعلى لا ينال . وليت الامر يقف عند مباينة المذاهب الفلسفية بعضها بعضاً . ولكنها تشترك جميعاً بأنها باهظة الثمن ، وبأنهـــا تبعث القنوط واليأس في نفس انسان اليوم الذي يمر بها مرور الكرام ، ويخص متحفها التاريخي بزيارة عابرة لاهثة ، فينظر الى أطلالها ويعجب للجهد الذي أنفق في سبيلها ، ولكنه لا يطيل المكث في أية غرفة من غرف هذا المتحف ، ليتخلص من جولته وقد عادت به الريح الى محل البدء ، ونقطة الانطلاق .

يقول الشاعر المعروف (بول فاليري) : « ان مهنة الفيلسوف تتميز ، أفضل ماتتميز ، بعدم الفهم » . و « ان الفلسفة لاوجود لها ، لأن الذي يوجد انما هو تنويع معاني القلم » . ويعلن قائلاً : « ليس الرهيب ألا نفهم الفلاسفة ، بل الرهيب كل الرهيب هو أن نفهمهم » . وقديماً سفه (جمال الدين ابو بكر بن العباس الخوارزمي) الفلاسفة لأنهم « قوم من اليونانيين تحذلقوا في المعقولات حتى وقعوا في وادي الحيرة والخباط ،وتحيروا في الالهيات ، وبنوا مقالاتهم على التشهي المحض، والدعاوى الصرف ، ويزعمون انهم اكيس خلق الله ، وسياق مذهبهم على أنهم أجهل خلق الله ، واحمق الناس ، وأساس الالحاد والزندقة مبني على مذهبهم ، والكفر كله شعبة من شعبهم » . ويحدد (ابن الصلاح) رأيه في الفلسفة بقوله « الفلسفة أس السفه والانحلال ،ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة... والمنطق مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ... ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ... »

وليس من شأننا في هذا المقال أن نمضي في عرض الاتهامات والانتقادات التي يوردها ضد الفلاسفة أعداؤها من غير الفلاسفة ، وانما نجاوز هنا خصومة الاخصام لأن الفلسفة لا تنكر إلا بالفلسفة ، ونقتصر على الاشارة الى بعض انتقادات « عميقة » يوجهها فلاسفة الى الفلسفة ، وكأن في موقفهم سلاحاً ماضياً وسيفاً باتراً يحسم ما اختلف الناس حوله في كل حين .

لقد أخذ الفلاسفة الريبيون في (يونان) على الفلسفة كثرة مذاهبها وتعارض هذه المذاهب . وعابوا ، بوجه خاص ، وثوقية (افلاطون) وموسوعية (ارسطو) على السواء . وشنع (الغزالي) على فلاسفة بيئته اتباعهم رأي القدامى من غير تمحيص ولا تدقيق ، فبدّع الفلاسفة المسلمين في مسائل ، وكفّرهم في مسائل أخرى ، ولم يسمح للعامة بولوج قصر الفلسفة ، وقصر السماح على الخاصة بمعرفة ابعاض من العلوم الفلسفية النافعة دون سواها . وهاجم (ديكارت) الفكر الوسيط وانتقد روح السلطة وندّد بعار الخنوع والاستسلام . أما (كانت) فانه ينكر (الميتافيزياء) كلها وينعتها بأنها اخفـــاق ذريع لدعوى عريضة متبجحة . ويسعى (اوغست كونت) الى استبدال الحال الوضعية بالحال اللاهوتية والحال الميتافيزيائية منادياً بفلسفة علمية هي علم العلوم . وقد رسم (هوسرل) في مطلع كتابه « التأملات الديكارتية » لوحة قاتمة عن الفلسفة الحديثة ، وابان خصومتها الداخلية واظهر عمقها وتشتتها . يقول : « ان حال الانقسام التي نجد عليها الفلسفة في الوقت الحاضر ، والنشاط الذي تبذله انما يدعواننا الى التفكير . فمن وجهة النظر المتعلقة بوحدة العلم ، لاتزال الفلسفة الغربية ، منذ منتصف القرن الاخير ، في حالة الانحطاط الظاهر ، بالنسبة الى العهود السابقة . ان الوحدة قد اختفت في كل مكان ، سواء في تحديد الغاية ، ام في طرح المسائل ، ووضع المنهج . لقد تحول

الايمان الديني اكثر فاكثر الى مواضعة خارجية في بدء العصر الحديث . ثم مالبث أيمان جديد ان امسك بالانسانية العاقلة ورفعها . وهذا هو الايمان بالفلسفة وبالعلم المستقلين ، ومنذ ذلك الحين ، وجب على الثقافة الانسانية بأسرها ان تقاد وان توضح بنظرات علمية ، وجب ان تصلح وتحول من جراء ذلك الى ثقافة جديدة مستقلة » .

. . .

والحق ان النقد الذي يوجه الى الفلسفة اعداؤها من غير الفلاسفة إنما يستند في الواقع الى نظرة سطحية ، وتجربة منحلة ، وفكر ناقص . ذلك أن في الفلسفة نقاط ثبوت تفوق مايتصورون . وهذه النقاط راسخة رسوخاً تغشى شدته الابصار ، وتصرف قوته عن الانتباه له فتبدو حقائق الفلسفة في بداهات مألوفة مقررة حتى يكاد المرء لا يفطن لها ، فيحياها ، وهو يجهلها جهل تركيب ، وهي ذاتها تؤلف القاع الأعمق في جبلة الحس المشترك الذي يستمد منه « اوليات » معرفته ، ومبادىء علمـــه ، وقد ثبتت هذه النقاط والحقائق في « اللاشعور الجمعي » ان صح التعبير ، وتوارثها الخلف عن السلف ، فانتقلت من جيل الى جيل ، حتى اصبحت بمثابة « مسلمات » اولية مبتذلة أو بدهية . ولكنها كانت في أصلها نتائج غزو فلسفي اصيل مالبث بالتكرار ان أمسى تقليداً عقلياً متوارثاً يمارسه الفكر من غير ان يتحقق من أمره . لنضرب على ذلك مثلا هذا الفكر العربي التقليـــدي الذائع الذي يؤلف في امتنا مانسميه بالرأي العام . ألسنا نجد في تضاعيفه الموروثة بقايا « السيوف » الفلسفية ، ونتف « المذاهب » و « النظريات » التي عرفها تاريخنا في عصره الاموي فالعباسي فسائر العصور ؟ ان اتهام الفلاسفة بالالحاد ، وتكفيرهم في نقاط ، وتبديعهم في أخرى ، هو بذاته « فلسفة » اجاد الاعراب عنها حجـــة

الاسلام (الغزالي) ، ثم ردها (ابن رشد) في « تهافت التهافت » ، ثم جاء المدعو بالخواجه زاده ، ووضع لارضاء الخليفة العثماني ، وتلبية لأمره ، كتاب « تهافت تهافت التهافت » ليرد أيضاً على الفلاسفة ، ويتهم الفلسفة ، وهو يعتنق في خصومته فلسفة من نوع جديد ؛ ثم عصفت الريح بالأفكار ، وجفت نضارة النقاش ، وذبل نسغ التأمل ، ولم يبق سوى اوراق « ميتة » من خريف انحطاطنا الثقافي ، نلقاها هنا وهناك ، وهي تكتفي بان تعلن الحرب على الفلسفة ، من غير فهمها ، أو بدون تعمق الاتهام ، وتكتفي آنئذ بحجة قديمة ، موروثة وتقليدية ، شعارها : من تمنطق شهراً فقد تزندق دهراً ! . .

اننا اذا عمدنا الى تشبيه الفلسفة بالمجرة الفينا ان انفصال العلوم عن الفلسفة من جهة ، وتمايز الفكر الديـــني والفكر الصوفي عن النشاط الفلسفي من جهة اخرى ، كل ذلك لايضير الفلسفة في شيء ؛ بل انه ييسر لهذه النواة الفلسفية مزيد التمركز ، وزيادة حرارة ونور . ويظل من الثابت ان الشمس ، او النواة المركزية أو الفلسفة ، هي التي تبعث في ثقافة الانسان الدفء والحياة . وهي التي تنتظم مجاري هذه الثقافة وترعى نماء فروعها باتساق وانسجام .

اضف الى ذلك ان مما يخرج عن الفطنة ان نحسب ان عهد « الاستسلام » وزمن « الاستطلاع » ، و « التطلع » ، و « الفضول » قد مضى وانقضى . بل الحق ان باب المعرفة مازال مفتوحاً ، وسيبقى مفتوحاً الى الابد . وليس بمجاز ان نفسر وقائع التاريخ الثقافي تفسيراً مشوهاً مغرضاً لتيسير نقدها وتسهيل دحضها . نعم ان فيلسوفاً لايحل بعض المشكلات حلا نهائياً ، ومثلا مشكلة الحرية في دنيا المثل الاعلى وفي واقع الناس ، اومشكلة المال ، او مشكلة الحكم ، اومشكلة الموت والحكم عليه وعلى مايليه بانه معقول اوغير معقول . ولكن هل يستطيع

أي علم في الفيزياء او الميكروفيزياء ان يحل مشكلة المـــادة ، ومعضلة النواة ، وصيرورة الطاقة هي بالذات ؟ ألسنا نؤمن اليوم بأن الحلول الرياضية ذاتها حلول مسائل لم تحظ بحل نهـــائي مطلق ، بل ان حلها هو حل تقريبي الى حد كبير او صغير ؟

ألا ان مطلب « الحل النهائي » في الفلسفة ، شأنه شأن « المطلب النهائي » في العلم ، اوفي الادب ، اوفي الفن والسياسة ... كل اولئك ينم عن موقف ساذج عتيق ، بل ان مفهوم الثقافة نفسه ينفي معنى الوقوف عند حل « نهـائي » في أي مجال تطاله فاعلية الانسان .

اما الفلاسفة ... اعداء الفلسفة الذين عابوا على الفلسفة ماعابوا فانانتقاداتهم لم تمنعهم — في الحق — من المضي في طريق الفلسفة ، ولم تحملهم على التوقف عن السير في معراجها ، والانصراف عن تلبية ندائها ، والانجذاب الى سحر فتنتها وغوايتها . ومن اليسير ان نلاحظ في التعقيب على ارائهم انهم لم يستهدفوا في الواقع القضاء على الفلسفة ، وتجفيف معينها ، وانمـــا أملوا ، خير ما املوا ، ان تكلل جهودهم بنجاح لم يعرفه اسلافهم من قبـل ، فكان غرضهم الاساسي ، وحافزهم العميق ، الاقتراب من مفهوم « الفلسفة النهائية » ، « الفلسفـة الذروة » ، وهو ملتقى طماح الفلاسفة الغابرين . ألم يحسب (ديكارت) ان فلسفته ستقضي قضـاء مبرماً على فلسفة المدرسين ؟ ألم يسبقه (الغزالي) بدعوى القضاء على فلسفات الفلاسفة ليحل محلها فلسفة اخرى هي فلسفته المتصوفة بالذات ؟ لقد ذهب(كانت) الى ان مذهب « نقد العقل المحض » خير من مذهب (والف) ، ووثق(هوسرل) نفسه بجودة طريقته وصحة نهجه أعظم وثوق .

فالفلاسفة اعداء الفلسفة اذن لايبتغون هدم الفلسفة ، ولا رفد اعدائهم

حضارتنا
هل هي انتحار؟

للكاتب الفرنسي بيير غاسكار
PIERRE GASCAR

تعريب: أديب اللجمي

أيكون عصر الصواريخ العابرة الى الكواكب، والسرعة التي تفوق سرعة الصوت، والانفجارات النووية المتنوعة، أيكون عصرنا هذا عصر تكاثر متزايد الاتساع لأمراض الجسم وامراض النفس أيضاً؟ كثيرون من رجال العلم يرون أسباباً جدية تجعلهم يخشون ذلك. ان بيير غاسكار، الأديب الفرنسي، الذي عني منذ سنوات بمشكلة «جوع البشر»، يحاول في مقاله اليوم ان يلقي ضوءاً على هذا التهديد المويع.

ضجيج ، وتسارع في الحياة ، واجهاد ، وذوبان للفرد في الجمهور : أترانا نتكر على حضارتنا ، وهي في مرحلتها الراهنة ، أن تكون سامة ؟ إني أعلم أن هناك من يجادلون بالأمر ، ويلاحظون ، أمام ازدياد الاضطرابات العصبية (إذ يوجد في المدن شخص من أصل ثلاثة ، مصاب بهذه الاضطرابات) أن الناس ، وقد اصبحوا أكثر اهتماماً بتوازنهم مما كانوا في الماضي ، يهرعون اليوم الى الطبيب ، ولأقل إشارة ، يحكون له همومهم . فهم اليوم مسجلون ، بينما كانوا ، من قبل ، نكرات .

ان تعريف العصاب (١) ذاته مازال عرضة لخصومات لانهاية لها ، كما ظل غامضاً . إنه مرض الـ « أنا » . ولكن ، ماهو الأنا السوي ، ماهو الأنا السليم ؟

في هذا المجال ، أصبح المرض في كثير من الاحيان ، خلا بعض الاعراض المسماة بالأعراض السيكوسوماتية (النفسية ـ الجسمية) Manifestations Psychosomatiques ، أشبه بمفهوم جديد للحياة ، بنظرة جديدة عن الدنيا ؛ وأصبح يصعب الكشف عن الاضطراب أو عن تفسير آخر للحقيقة في أفكار الرجل المضطرب أو أفكار المرأة الواهنة . ان العصاب يمكن أن يعرف تعريفاً اجمالياً ، بأنه اختيار الفرد اختياراً محتوماً لمنطق بائس . يجب أن نلح على الشذوذ في هذا المنطق ، على التحيز في تفسير الحوادث . ولكن ، كيف لانرى أن هذه الحوادث هي ، في أكثر الاحيان ، أبعد ماتكون عن « البراءة » وأنها تمس في إدراكه مخاوف الفرد بصورة مشروعة ، بل في اذكاء اليأس عنده . ان القضية تقوم على بيان النقطة التي لايعود فيها الكائن الانساني بالنتيجة مصيباً ، ويهرع بالانزلاق الذي يقوده الى حالة عقلية ، تأخذ فيها مشاعره المبررة في الظاهر ، شكلاً مرضياً .

الواقع الخارجي يلعب اذن دوراً هاماً . على أنه ليس باليسير أن نحدد هذا الدور تحديداً دقيقاً . فلنكن نحسب حساباً للتسلسل الطبيعي لأسباب القلق الحاضر ، يجدر بنا أن ندرس أولاً الأثر الذي يتركه في فكرنا مايهدد النوع ذاته ويعرض مصير الانسانية للخطر .

ان ما تمتلكه الدول العظمى في هـــذه الايام من وسائل الدمار

(كالقنابل الحرارية النووية التي تربو قوة الواحدة منها على عشرات ملايين الاطنان من المتفجرات ، وكأشعة الموت ـ ترى ، هل تم اكتشاف هذه الأشعة ؟ ـ وكالاسلحة المسماة بالجرثومية ، وسواها)

---

(١) العصاب Névrose . مرض نفسي يتجلى بتوقف نمو الوظائف العليا عند الفرد ، وبعجز عن التكيف مع الواقع . من أنواعه : الهستيريا وهي مرض يصيب بنية الشخصية ذاتها ، واضطراب عابر في الذكاء والحساسية والحركة ، والوهن النفسي : ويتصف بضعف عقلي وبنقص أو فقدان للشعور بالواقع (المترجم) .

تجعل من الحرب ، كما نعلم ، ضرباً من الانتحار الجماعي. وقد غدا حقاً علينا أن نتوقع بعد اليوم نهاية الكوكب الذي نعيش فوقه ، أو نتوقع على الأقل نكسة في الزمان الى الخلف ، تزيل لدى الاحياء كل رغبة في البقاء .

ان الانسان يمسك ، لأول مرة في تاريخه الطويل ، بمفتاح العدم الذي لن يطبق عليه وحده فقط ، بل يطبق على النوع الذي ينتمي اليه ، وعلى سائر الانواع الحية الاخرى على الارجح .

كان الموت الافرادي، بل كان الموت الارادي ذاته، بالنسبة للشخص الذي يموت ، يحدث حتى الآن داخل خلق أبدي . كان الشخص يموت ، بينما يظل الآخرون أحياء ، يكررون عملية الحياة. كان الانسان يموت أمام مرآة لاتزول منها صورته زوالاً كاملاً . كان الانسان يخلف وراءه سلالة طويلة ، سلالة من الشهود والمكملين لآثاره ؛ وكان الموت ، بأشكاله المختلفة ، بل وفي حالات الانتحار الاناني ، يأخذ قيمته بوصفه حادثاً اجتماعياً .

ان الامر لم يعد كذلك في حال نشوب حرب حديثة شاملة . كل شيء يمكن ان يموت معنا اليوم. « صبيحة الغد » يمكن أن تموت معنا أيضاً ، ان هذه الفكرة خانقة للانسان بكل معنى الكلمة .

كنا قبل اليوم نموت ونحن نعرف أننا نترك الدنيا ، أو كنا ، حين ننتحر ، نموت لأننا لا نريد أن نبقى في هذه الدنيا . أما بعد اليوم ، وفي نزاع مسلح كالذي أشرت اليه ، فسوف نموت ونحن نعلم أننا نسوق الى الموت المكان الذي أخليناه أيضاً . ذلك هو العدم المطبق : لم يعد موجوداً حتى المكان الذي أخليناه ، لم يبق بعدنا شيء يتحدث عنا ، ان هذا هو الفراغ .

ويبدو مع ذلك أن هذا التهديد المخيف ، الذي مافتئت الخصومات السياسية القائمة في العالم تغذيه ، لايزيد الاضطراب الذي يشكو منه المجتمع زيادة ملحوظة . فمثلا لم يتمكن تحليل الأحلام الذي تجريه على عشرات الألوف من الأفراد في مستشفيات الأمراض العقلية أن يفصح حتى الآن مرة واحدة عن « خوف ذري » . ورغم حقائق هيروشيما ، ورغم الدعاية التي أحيطت بها التجارب الذرية ، ظل الموت الذري فكرة مجردة . طبعاً ان القنبلة الذرية بقيت من حيث نتائجها أمراً « لايمكن ادراكه » ان صح التعبير ، بسبب سعة الدمار وكثرة المقابر التي تخلفها . وكونها يمكن أن تبيد مدينة بمساحة باريس وضواحيها ، أمر يفوق قوانين الحركة التي ألفناها ، حتى لو تمكنا أن نتخيل امتداد هذه القوانين بصورة فائقة ، بحيث أن أمراً كهذا يأباه شعورنا ، أي

أنا نعرفه، ولكننا لا نريد أن نعترف به في الواقع . **وقد لوحظ بهذه المناسبة أن الفكر البشري يتمرد على فكرة التقدم بنسبة هندسية . ان الواقع يفر منا حين يتخطى حدود الجمع والضرب البسيط .**

ولكن الأمر يختلف عن ذلك حين يتعلق بالتهديدات الناجمة عن زيادة الاشعاع الذري . ان تأثير هذه التهديدات على الفكر البشري أمر واقع ، رغم كونه لم يبلغ حداً يثير ردود فعل جماعية واسعة النطاق . كل ذلك طبيعي جداً . فتلوث الجو بالاشعاع الذري يفقدنا جميعاً كل سند، بينما يأمل كل واحد منا أن يتخلص ولو بأعجوبة خارقة من الأذى المباشر للقنابل الحرارية النووية.

يضاف الى ذلك ، استناداً الى خاصة في تكويننا العقلي ، ان حادثة أو ظاهرة ذات طابع خارق (والاشعاع الذري ، بوصفه غير مرئي ، غير مادي ، يتمتع بجميع خصائص اللعنة الالهية ، بينما تظل القنبلة الذرية على العكس ، سطحية تافهة) تستحوذ على الفكر أكثر مما يفعله أي واقع. ثم ان غموض هذا التهديد — إذ ما من انسان يعلم يقيناً بالموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه الاشعاع الذري — وسعته التي تذكرنا بسعة الارادة السماوية، هما بالطبع ميسران للهذيان ،أو لاضطرابات الفكر بدرجات متفاوتة على أقل تقدير .

على أنه ليس لدينا دليل في الوقت الحاضر يشفع لمثل هذا الخوف . فزيادة نسبة الاشعاع الذري المنبعث من سلسلة التفجيرات التجريبية الأخيرة — التي كانت تكفي وحدها لانهاء نزاع مسلح في حال وقوعه ، لو أنها استخدمت في المجال العسكري — مازالت ضئيلة على وجه العموم . وحتى في شروط كهذه ، يلاحظ بعض الناس أن ثمة خطراً من تجمع الغبار الذري ، ومن تشكل « سحاب » مميت — وقد تعمدنا استعمال هذه الكلمة المدوية « سحاب » كأنها نبوءة عن قرب فناء العالم ، ولأن الجمهور يستعملها أيضاً — . وأخيراً إن أي اخصائي بالأجنة عاجز عن التأكيد بأن نسبة الاشعاع الذرى الذي تتعرض له الانسانية ، سواء تشكل سحاب ذرى أم لم يتشكل ، لا يمكن ان تحدث لدى الفرد تبدلات في الصبغيات Chromosomes تؤدي بالتالي الى تشوهات وشذوذ فطرى لدى من سيولدون غداً ، لأن التأثير الذري يستمر ثلاثين سنة .

هذه الافتراضات التي تسهب الصحافة في شرحها ، لا تخلو من اثارة قلق الجماهير . ان هذه الجماهير تعلم ، وتزداد كل يوم علماً ، بأن ثمة اشعاعاً ذريا متأتياً من المنشئات الصناعية والطبية المتكاثرة ، يضاف الى الاشعاع الذري الطبيعي والى الاشعاع الناتج عن القنابل النووية التجريبية. وهذا هو مبعث التحذير من أخطار التعرض على الفحص بالأشعة لأنها تطلق كمية كبيرة من أشعة رونتجن .

وكان رد الفعل سريعاً ، مطلقا ، وبالتالي عصابياً . فالأمهات في الولايات المتحدة الامريكية يرفضن اليوم عرض أطفالهن على الفحص الشعاعي . وباستطاعتنا أن نقدر نتائج مثل هذا التصرف. فلئن نجا هؤلاء الأطفال من ويلات الاشعاع الذري ، فلكي يتعرضوا الى أخطار التهابات رئوية لم يتم كشفها في الوقت المناسب .

لم يعد لدينا أعداء خارج أنفسنا :

ذلك مثال لواحد من المآزق التي أدت اليها أحياناً حضارتنا . إذ ما من شيء أبعث على الحيرة ، بل أكثر إثارة لمختلف ضروب العصاب ، كانقلاب بعض الفوائد التي أبدعتها عبقرية الانسان وضعفه ، الى نقيضها . اننا هنا أمام اللامعقول ، السبب الرئيسي لتشوش الفرد في الوقت الحاضر . فهو يشعر بأن الواقع الذي صنعه بنفسه ، ووجهه لفائدته ، يخونه . ان ابداعه يودي به ، كما جاء في الأساطير (أسطورة الساحر المتمرن L' apprenti Sorcier) . انه ينظر الى ما حوله بحذر ؛ وأي شيء لايؤدي بالنتيجة الى فنائه ؟

والجدير بالاشارة هنا ، ان خوف الفرد أصبح ينبعث من الاشياء ، من اشيائه ذاتها ، لامن أقرانه . فلم يعد الخوف من حرب ذرية ، قليلة الاهمية كما رأينا ، ولا الخوف الناشيء من تزايد الاشعاع الذري ، يجعلنا نوجه التهمة الى أشخاص . ونحن اذا تجاوزنا العواطف المنبثقة من المبادىء ، نجد اجمالا ان ممثلي الكتلتين المتنازعتين يتقاسمون سوية مسؤولية الدمار المقبل ، وانهم عاجزون عن الحد من سعة شموله .

على انهم وان يكونوا رؤساء دول متمتعين بأعلى السلطات ، يظلون مقيدين (حين ينشب نزاع مسلح) بالتهديد الموجه اليهم او بانفلات قوة مبيدة لايقدرون على ضبطها ، فينجرون الى الانتحار الجماعي عن طريق « الشيء » الذي هو هنا القنبلة النووية ، انهم ايضاً سحرة متمرنون سرعان مايلفون عتبة يأخذ القدر بعدها يتقدم ويكبر وحده ، عتبة يستقل بعدها الشيء المزود بقوة تفوق كل تقدير (كان جديراً بنا أن نتحدث هنا عن « هذيان الشيء ») ويأبى هذا الشيء ان يكون احد مسؤولا عن آثامه .

وفي الميدان السياسي تتجلى الصورة الكبرى لفقدان الشخصية ، اذ نجد الرجل السياسي يتلاشى (هذا مايسمى عندنا خدر الجماهير) بقدر ماتنفصل الافكار عن الاشخاص ويصبح

قوامها الواقع الاجتماعي والاقتصادي . هناك اذن فقدان العنصر السياسي في مجتمعنا ، وألح على فكرة انه فقدان يتسم بالتخلي عن الرموز الشخصية ، الرموز الانسانية ، لقد حلت فكرة القدر الآلي محل السياسة التقليدية . كان باستطاعتنا فيا مضى ان نؤثر في الناس ، غير ان «الاشياء» اخذت اليوم تخرج على ارادتنا وتستعبدنا .

فلا عجب أن نشهد اختفاء الموضوعات السياسية التقليدية من هذيانات الامراض العقلية . لم تعد ثمة أساطير . لقد تمكن أحد أطباء الامراض العقلية من تتبع تاريخ فرنسا ، في مدى خمسين سنة ، من خلال الهذيانات الكبرى التي أصيب بها مرضاها ، فاليسوعي والماسوني احتلا في البدء مكانين أساسيين في هذا الهذيان . ثم تلاهما الالماني ، ثم جاء في اثره البلشفي احيانا . لم يكن الهذيان في الغالب سافراً ، بل كان يتستر بقناع التجسس ، اذ ان الجنون يتغذى بالشك حين يواجه واقعاً يريد ان يكذّبه باستمرار . وقد ابتعد اليوم القلق أو الهذيان عن الرموز السياسية ، ولئن ظهر موضوع ابن الشمال الافريقي في الهوس الذي أصاب بعض المرضى الفرنسيين ، وأخذ صورة شيطانية ، فهو لم يكن سوى ذريعة لتجلي خوف عرقي غامض ، أو لم يكن سوى وسيلة تذكر بالصدمات الانفعالية الناشئة عن الحياة اليومية اثناء حرب الجزائر .

هكذا نرى من خلال هذه الصورة الخاطفة للامراض النفسية ، أن عصرنا لم يعد يحتوي على تلك المخاوف الكبيرة « المقروءة » بشكل واضح ، تلك المخاوف التي كانت تحدد على مر التاريخ نماذج من أمراض العصاب الجماعية . كما أننا لم نعد نعرف تجسدات الشر ، تلك التي كان أجدادنا يغذون منها أحقادهم ووساوسهم . لقد حل « الشيء » فكان الانسان . فأي ربح حققنا ، مادمنا لم نفعل شيئاً سوى ان عرينا قلقنا ، وظل هذا القلق على حاله دون ان يتجسد في وجه ، كما ظل الشر معنا ، وما ربحناه هو أننا لم نعد نعرف أسماء شياطيننا ؟

لم يعد لنا أعداء خارج أنفسنا . انا في قلقنا لانجد سوى السماء ، سماء خاوية لأن الآلهة ذاتها قد تلاشت منها ، وها نحن أولاء هنا ، لاوجه نتجه اليه ، ونصرخ فيه ، هانحن أولاء في عالم جديد ، ليس فيه سوى « أشياء » تعش . ووضع الانسان هذا ، وهو سبب الأزمة النفسية الراهنة ، نجده ابداً في الحياة اليومية .

منذ حين قال جان روستان Jean Rostand : « الا تعتقد ان امراض العصاب الحقيقة، والاضطرابات « الصغرى » كما تقول ، لاتنطبق عليها قاعدة الاطراد ؟ هل صحيح حقاً ان هذه الاضطرابات زاد عددها بنسبة تدعو الى القلق ؟ يخيل لي ان كثيرين من الناس قدانتبه انتباههم اليها بنتيجة دعاية طبية حفلت بها الصحف خاصة . وما ان يكون احد من هؤلاء الناس غير راض كل الرضى عن وضعه ، حتى تسمعه يقول : « انني اشكو عصابا ، ينبغي ان اذهب الى الطبيب » ثمة اذن تحريض على زيادة العصاب الصغر لدى الناس . »

ليس من حقنا أن نشك في صحة هذا القول شكا مطلقاً . فتقدم علوم الفكر من جهة ، والدعاية ، بل الدعاية المتنقلة التي أحاطت بهذه العلوم من جهة أخرى ، أدت بنا الى الشعور ببعض المبادىء السيكولوجية ، والى عدم اعتبار سلوكنا ظاهرةطبيعية لشخصيتنا . وهكذا ضعف مفهوم « الطبع » ، وأصبحنا نرى في فيما تعودنا على تسميته في الماضي « خاصة وراثية » أو « رغبة من رغبات الخالق ينبغي أن نتقبلها » ، أصبحنا نرى في ذلك تشوهاً يمكن أن نشفى منه . وما إفراطنا في استعمال تعبير « العقدة النفسية Complexe » في أحاديثنا الا دليل على صحة ماذكرناه .

ويتراءى لنا ، مع ذلك ، أنه ليس لهذا المفهوم الجديد عن الصحة العقلية النتائج الخطيرة التي نعزوها له .

وقد قال لي جان روستان فيما بعد : « كان علي أن أبدي هذا الاعتراض . ولكني أعرف أن ثمة زيادة في الاضطرابات التي نتحدث عنها. وليس في ذلك غرابة شديدة اذا نظرنا الى المجتمع الراهن . »

فالواقع ان الاضطرابات الجليلة وحدها هي التي تحمل الافراد على الذهاب الى الطبيب أو الى مستوصفات الصحة العقلية . ولسنا بمغالين اذا قلنا ان هذه المستوصفات تتيح لنا مراقبة الصحة العقلية العامة بصورة مستمرة ، كما تتيح لنا رؤية الاضطرابات الحالية بصورة جلية . **ومن حقنا أن نستنتج بأن هذه المستوصفات ، حين يتزايد عددها ، وتزداد سعتها تصبح تأكيداً لدلائل وجود المرض النفسي في مجتمعنا في فترة من الفترات .**

ان الاضطرابات التي استتبعتها حرب الجزائر ، والصراع بين رجال الشرطة وأبناء الشمال الأفريقي في باريس ، قد تجلت آثارها بصورة مباشرة في تلك المستوصفات . فقد زاد عدد رجال الأمن الذين جاءوا الى هذه المستوصفات زيادة لامثيل لها من قبل ، بينما كان الجزائريون في تلك الآونة، بل قبل ذلك الحين أيضاً ، يتزاحمون على هذه المستوصفات ذاتها ، فهل تظفر بلوحة أكثر صدقاً وأسى في تعبيرها عن المأساة من هذه اللوحة ؟

أكان ينبغي شفاء دوستويفسكي وفان غوغ ؟

ان هذا الطب النفسي الموجه ، المنبيء عن المجتمع المقبل الذي سنجد فيه حتما ، في مدنه خاصة ، مستوصفات للصحة العقلية منتشرة في كل زاوية من زوايا الشوارع ، ان هذا الطب النفسي لم ينتشر بعد انتشاراً كافياً يغنينا عن اللجوء في كثير من الاحيان الى الحلول المشكوك بجدواها. إنني أفكر بصورة خاصة بمختلف المستحضرات الكيائية التي يطلق عليها اسم « المواد المهدئة » (وهي تسمية تدعو الى الطمأنينة ، رغم كونها تخفي أحياناً مواد ذات مفعول لم نتبينه بعد) ، كما أفكر ببعض أشكال التحليل النفسي .

حدثني مؤخراً أحد الكتاب عن زميل له أمريكي . ان هذا الزميل الذي يتمتع بموهبة قاتمة وعنيفة ، جعلت الأدب الأمريكي المعاصر يعقد عليه أكبر الآمال ، كان يشكو من القلق ، كما يشكو من آلام معنوية ربما كانت هي الدية المشروعة لطاقته الفنية الرائعة . وا كتشف ذات يوم « العلاج المهدىء » الذي يطرد شياطينه فأخذ يكثر من تعاطيه . واصبح اليوم هذا الكاتب انساناً ضاحكا ، يكتب في المجلات الكبرى المصورة قصصاً بهيجة تعود عليه بالربح الوفير . لقد اختفت موهبته القاتمة . وكان باستطاعته أن يعود اليها ، مافي ذلك ريب . إلا أنه غير راغب قط بالعودة مع جوقة من الآلام المعنوية . تلك هي المشكلة .

وبتعبير آخر ، أينبغي لنا أن نشفي بودلير Baudelaire ودوستويفسكي Dostoievesky وفان غوغ Van Gogh ؟ من منا لايميل الى الاجابة للوهلة الاولى « بنعم » آخذاً بعين الاعتبار آلامهم ؟ ولو طرح هذا السؤال على مجتمع قبل قرن ، لأجاب « بنعم » أيضاً ، ولكن المجتمع كان عاجزاً عن شفائهم في ذاك الحين . لم يستطع شفاءهم ، بل عاقبهم . غير أن هـذا العقاب ، على مافيه من قسوة وشراسة ، قد أدى الى زيادة شقـاء هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم ، والذين عاشوا من شقائهم ، ونقلوا لنا عنه عبرة رائعة . إني أعرف مدى الخطر والاستنكار لهذه الفكرة التي أرسم الآن ملامحها . ومع ذلك ، ألا نصل أحياناً ، أمام ما أحرزته علوم النفس وبعض أنواع الصحة العقلية من تقدم مذهل ، الى أن نفضل أسوأ أنواع الظلم على نعماء الشفاء ؟

قد تجيبون بأن الألم المعنوي ليس بالضرورة أسمى أنواع التعبير عن الصفاء الذهني ، وبأننا قياساً على مانسميه اليوم (العلم - الوهم) نستطيع أن نتخيل عالماً تعموه كائنات متحررة من القلق ، متكيفة تكيفاً كاملاً ، عالماً متحللا من النشاز أو القسوة التي تسببها بعض العبقريات الفردية ، عالماً

ينعم بقسط واحد أو بمزيد من قوة الانسجام والسعادة ، فهل من حاجة اذن لبودلير ودوستويفسكي وفـان غوغ ؟ أليستهذهنظرة رومانتيكية الانسان لم تعد مناسبه في هذه الايام ؟ ألا تستطيع طاقات أخرى ، أكثر هدوءاً ، أن تتفتح ، وتعطي ثماراً لم نتوقعها ، ثماراً قد تكون أقل جمالاً من تلك ، بالقياس الى أسس البديع القديمة ، ولكنها ثمار دسمة على أية حال ، تبشر باتساق وانتظام ؟

مأساة الابتسام

إنني لا أثير هنا عبثاً هذه المناقشة العقيمة . فنحن الآنفي مرحلة اختيار الى حد ما . ان ثمة علماء في النفس والاجتماع ، أقل سذاجة مما يبدو لنا ، تمكنوا في بعض البلدان من أن يفكروا برد الفرد الى نوع من النموذج العقلي المتسق ، بفضل العقاقير التي أشرت اليها ، أو بفضل التحليل النفسي الموجه . إنهم لم يحددوا هذا النموذج تحديداً واضحاً . ولكنهم تصوروا بأنه سيتصف على أية حال بسعادة الرضى . انهم يفكرون بالنتيجة بعملية جراحية للدماغ .

ومن المعلوم أن هـذه العملية تقوم على قطع بعض الالياف الدماغيـة التي تصل الفصوص الجبهية بالتلاموس . ونتائج هذه العملية الجراحية باهرة عند كبار المصابين بالهموم ، فحين نزيح الستار الذي يخفي المريض المعالج (لا أزال أذكر هذا المشهد الذي رأيته بنفسي ذات يوم) فاننا نكتشف وجهاً مرتاحاً مبتسماً . فالمأساة هي أن هذا الوجه سيظلأبداً مبتسماً . أقول: المأساة، لأن هذه الطلاقة الابدية لا يرافقها نقصان حقيقي في الذكاء بل يرافقهـا عجز تام عن الابداع ، عجز عن التخيل ، عجز عما نسميه بحياة الفكر الصاخبة . وهكذا نكون قد حولنا الفرد الى كائن حيادي ، وهكذا تصبح السعادة شللاً أو تصبح ان شئتم غيبوبة .

وسأعرض بهذه المناسبة لحالة راهبة شابة كانت تشكو من قلق صوفي . كانت تعتقد بأن الله قد نبذها ، فكانت تقضي وقتها في البكاء . اجريت لها عملية جراحية ، وهي الآن في الدير الذي عادت إليه ، تبدو عليها ملامح بنت مبتدئةطروبة شديدة الرشاقة . وقد فوجئت ذات يوم وهي في الصلاة ، وفي فترة تقديم القربان ، تمطر الراهبات بكرات من الورق . أرجو ألا نرى في ذلك علامة جنون . فالقوى العقلية لدىهذه الفتاة ظلت سليمة . غير أن الرضى الفكري يمكن ان يحملها على بعض الأعمال النابية (تلك الأعمال التي لا ترتدع عنها لمجرد التأنيب ، لأن ارادتها قد تخربت) كما يبعدها عن مفهوم القداسة على أية حال . وها نحن الآن مرة أخرى أمام المشكلة التي طرحناها منذ حين : أينبغي ان نفضل نزعةالتصوف وما يرافقها من عذاب على طمأنينة معراة

من أي سبب على هدوء لا مسوغ له ؟ أينبغي أن تفضل الحرية المؤلمة في كثير من الأحيان على سعادة الاذعان ؟

ما من إنسان يفكر بالبداهة في أن ينشر الطريقة الجراحية التي اشرت إليها على جماعة بكاملها . ولكنا لا تنكر بأن النتائج التي تؤدي اليها هذه الطريقة تجعل كثيرين ممن يزعجهم نزق مجتمعاتنا يحلمون بهذهالطريقة . إنهم متأهبون للتبشير بأسلوب من أساليب الصحة العقلية ، يذكرنا بالرغبات الماضية في تطهير جماهير الناس (ونحن نعلم ماذا كانت تخفي كلمة « التطهير » وراءها) وبالتشجيع على تعاطي العلاجات الكاذبة (العقاقير أو التحليل النفسي الرخيص) بغية الوصول إلى اخلاق التقشف . ان الدعاية البارعة التي تتجه الى تصوير الطرافة وعدم الخضوع لدى الفرد على شكل حالات شذوذ أو حالات مرضيـــة يمكن ان تؤدي بالفرد الى ان يفرض على نفسه نوعاً من الرقابة الذاتية ، وإلى ان يرفض كل ما تحفل به شخصيته من أشياء خاصة او فريدة ، معتبراً إياها أموراً غير سوية. فاذا حدث ذلك فان الكائن البشري لا يكون قد تخلص من الخطيئة إلا ليقع تحت سوط التشخيص والعلاج الكاذب .

ولا يعني ذلك بأن علينا ان نقبل انفسنا كما نحن وان نحافظ بعناية على آلامنا خشية ألا ننتقص من كياننا . ان ما نريده فقط هو ان نوضح حدود رفضنا . اننا بالتجائنا الى كيمياء السعادة ، وبالتجائنا الى التحليل النفسي الذي يبالغ بالتعرض الى قدسية الأنا ، وبالتجائنا الى أخلاق الصحة المفرطة نكون قد تخلينا عن الرفض .وهذا التخلي يبعدنا عن الواقع ، بينما أرى شخصياً أن سلامتنا تقوم على مجابهتنا ،بصورة دائمة ومتزايدة الشدة والقوة ،للعالم الذي يحيط بنا .



الصداقة والصديق..

لأبي حيان التوحيدي

بقلم : ظافر القاسمي

القسم الأخير من دراسة
الصداقة والصديق . .
— التي نشرت في اعداد المعروفة السابقة —

الاجتماع والصداقة

نظر التوحيدي الى الصداقة نظرة اجتماعية ، ما نعتقد أنه سبق اليها ، بين المؤلفين العرب . ولقد كانت هذه النظرة أسس الفلسفة الاجتماعية ، التي بنى عليهـــا من جاء بعده من فلاسفة الاسلام ، الذين تناولوا الفلسفة الاجتماعـية في أبحاثهم ، وأخص منهم بالذكر : ابن خلدون .

فلقد نشأنا وألقي الينا أن هذا الفيلسوف العظيم — ابن خلدون — هو أول من قال بلغة العرب : « الانسان مدني بالطبع » ، وان هذه الجملة قد سارت مثلا ، وأن أبا عذرتها ، وناسج بردها ، هو صاحب المقدمة . هكذا علمنا أساتذتنا الأولون ، وهكذا قرر الباحثون .

والذي يثبته التحقيق، أن التوحيدي، وقد توفي عام ٤٠٠ هجرية، قد قالها قبل ابن خلدون، المتوفي عام ٨٠٨ هجرية. أي قبله بأربعة قرون ونيف.

واليك النصوص لتقارن بينها. قال التوحيدي (١):

«لايخلو أحد من جار، أومعامل، أوحميم، أوصاحب، أو رفيق، أوسكن، أوحبيب، أوصديق، أوأليف، أوقريب، أوبعيد، أو ولي أوخليط، كما لايخلو ايضا من عدو، أو كاشح، أومداج، أومكاشف، أوحاسد، أو شامت، أومنافق، أومؤذ، أومنابذ، أومعاند، أومزل، أومضل، أوممل. وقد قال الأوائل: **الانسان مدني بالطبع**. وبيان هذا أنه لابد من الاعانة والاستغاثة، لأنه لايكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه. وهذا ظاهر. **واذا كان مدنيا بالطبع** — كما قيل — فالواجب مايعرض في أضعاف ذلك، من الأخذ والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، مايكون سببا لنظام الحال، أويكون سببا لانتشار الأمر. ولا محالة أن هذه وأشباهها مفضية بالناس الى جملة مانعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم..»

وقال في موضع آخر (٢):

«الانسان لايمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن

---

(١) ص ٧٩ (٢) ص ٥٠

يأوي الى المقابر ، ولا بد له من أسباب بهـــا يحيى ، وبأعمالها يعيش . فبالضرورة يلزمه أن يعاشر الناس ، ثم بالضرورة يصير له بهذه المعاشرة بعضهم صديقا ، وبعضهم عدوا ، وبعضهم منافقا ، وبعضهم نافعا ،وبعضهم ضارا . ثم بالضرورة يجب عليه ان يقـابل كل واحد منهم بما يكون له من دين أوعقل ، أوفتوة ، أونجدة . ويستفيد من ذلك كلـه مايكون خاصا به ، وعائدا بحسن العقبى عليه ، اما في العاجل،واما فيالآجل . »

هذا كلام التوحيدي قبل عام ٤٠٠ للهجرة . فانظر الى كلام ابن خلدون الذي جاء بعده بأربعة قرون (١) :

« ان الاجتماع الانساني ضروري ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : **الانسان مدني بالطبع** . أي : لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم . وهو معنى العمران . وبيانه : أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء ، وهداه الى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله . الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمـادة حياته منه . ولو فرضنا منه أقل مايمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل الا بعلاج كثير

(١) المقدمة ــ ص ٣٤ ــ الطبعة الأميرية .

من الطحن والعجن والطبخ . وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة ، من حداد ونجار وفاخوري . هب أنه يأكله حبا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا الى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة ، وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ..»

ثم قال (١) :

« فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني ، وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراده الله من اعتمار هذا العالم بهم ، واستخلافه اياهم . وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ..»

فالتوحيدي قد أفاض ، على عادته ، وكما يفرض عليه موضوع كتابه ، في وصف العلاقات العاطفية بين الناس ، وبين أنواعها ودرجاتها ، بعد أن قسمها الى قسمين كبيرين ، طغى على الاول منها معنى الحب والود ، وطغى على الثاني منها معنى البغض والكره . وعقب على هذا كله بقوله : وقد قال الاوائل : الانسان مدني بالطبع . وأوجز في شرحه ايجازا بليغا فقال : وبيان هذا أنه لا بد من الاعانة والاستعانة ، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه . وختم هذه الفلسفة الاجتماعية بقوله : وهذا ظاهر . ثم أخذ في

(١) ص — ٣٥

الاشارة الى الأخذ والعطاء ، والمجاورة والمحاورة ، والمخالطة والمعاشرة ، فاعتبرها أسبابا لنظام الحال ، وانتشار الأمر ، وانها مفضية الى جملة ماقال الشعراء والكتاب الذين روى شعرهم ونثرهم في الصداقة والصديق .

اما ابن خلدون فقد أخذ المبدأ العام الذي قرره التوحيدي ، وهو قوله : **الانسان مدني بالطبع** وأفاض في ايضاحه افاضة مادية ، لاتخرج عن العلاقات الطبيعية التي فرضها نظام الكون بين الناس ، وضرب صفحا عن العلاقات العاطفية، فلم يشر اليها من قريب ولا من بعيد . على أن ابن خلدون لم يخرج في فكرته التي شرحها في المقدمة عن المبادىء التي قررها التوحيدي وأوجزها في كلمتي « الأخذ والعطاء » . وهذا يجيز لنا أن نحكم بأن كتاب الصداقة والصديق ، أو الكتب التي أخذت عنه ، قد وقعت في يد ابن خلدون ، وانه انتفع منها ، واقتبس عنها هذا الموضوع الجليل .

ولنعد الى تحليل رأي التوحيدي في الصداقة من الناحية الاجتماعية :

واضح أن التوحيدي قد افترض لقيام الصداقة مجتمعاً ، وعلى هذا فان فكرة الصداقة غير ممكنة الوجود ، لو فقد المجتمع . وبمعنى آخر : أن الصداقة وليدة المجتمع . والناس في ظل النظام الاجتماعي تتفاعل عواطفهم ، وتتضارب مصالحهم ، أو تتقارب ، أو تتعاون ، فتنشأ الصداقة عن ذلك بالضرورة ، على أنها نتيجة لنوع من أنواع العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين الناس كالجوار والتعامل والصحبة والرفاقة والحب والألفة و ...

ولست أعود الى ماهو مقرر في كتب علم الاجتماع ، من نشوء المجتمع ، وابتدائه من الفرد الى الأسرة الى القبيلة الى الحي الى المدينة ... وانما أكتفي هنا بأن أشيد بعبقرية التوحيدي ، الذي ولد وعاش ومات قبل أن يرى علم الاجتماع

النور ، وقبل أن توضع فيه الكتب ، وقبل أن يكون مادة للتدريس في الجامعات، وزاه مع هذا يقدم لنا في كتاب ألفه قبل الف عام ، مبادىء سليمة ، صحيحة ، واضحة ، في الأسباب الاجتماعية التي تدعو لولادة الصداقة ونشوئها ، ان لم نقل ان هذه المبادىء هي نفسها التي اعتمدها علماء الاجتماع المعاصرون ، فاننا لانتردد في أن نقول أنهم لم ينقصوها ولم يدحضوها ، بل أيدوها وزادوا عليها إيضاحاً وتعليلاً . ولعمري أن رجلاً يستطيع أن يقرأ فلسفة الاغريق وغيرهم ، وأن يفرع عنها مثل هذا البحث ، لجدير في أن يكون في صف الخالدين من المفكرين .

الصوفية والصداقة

الصوفية قوم أحدثوا في الاسلام سلوكا ولغة واصطلاحا . ولهم عالم خاص يعيشون فيه . وانما تقوم حياتهم على ما يسمونه (الحال) و (الذوق) . وقد عبر الغزالي في المنقذ من الضلال عن هذا بقوله : « انهم أصحاب أحوال ، لاأصحاب أقوال » . ولم يكن يعني الغزالي بهذا أنهم لايتكلمون ، بل على العكس ، ان لهم أقوالاً خاصة ، قد يفهمها الناس عنهم وقد لايفهمون . وقد تجري مجرى أساليب الخطاب المألوفة عند العرب ، فتكون واضحة لدى الخاصة والعامة ، وقد تخرج عن هذه الأساليب ، فلا يفهمها أحد إلا خاصة الصوفية ، وأكبر ظني أنهم قد لايفهمون عن بعضهم أيضاً .

وقد عرض التوحيدي في كتابه الى رأي الصوفية في الصداقة والصديق في مواضع عدة نقتبس منها مقتطفات بعضها واضح ، وبعضها غامض ، واليك نماذج منها :

«سمعت برهان الدين الصوفي الدينوري يقول :

سمعت الجنيد يقول : لو صحبني فاجر ، حسن الخلق ،

كان أحب إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق . قال : لأن الفاجر الحسن الخلق يصلحني بحسن خلقه ، ولا يضرني فجوره ، والعابد السيء الخلق يفسدني بسوء خلقه ، ولا ينفعني بعبادته ، لأن عبادة العابد له ، وسوء خلقه علي ، وفجور الفاجر عليه ، وحسن خلقه لي [1] » .

هذا مثل من أقوالهم الواضحة ، القائمة على المنطق السليم ، وعلى التعليل المقبول ، وليس في الأسلوب مايدعو الى التفكير ، ولا الى الغوص على المعنى الاصطلاحي ، ولا فيه شيء من ألفاظهم الخاصة . وواضح أن الجنيد قد تحدث عن (الصاحب) ، وإن لم نبعد عن الصديق .

وهاك نموذجاً آخر :

« قيل لصوفي : من الصديق ؟ قال : من لم يجدك سواه ، ولم يفقدك هواه [2] » . ألا ترى أن هذا الكلام بكلام الفلاسفة أشبه ، واليه أقرب ؟

وقيل للشبلي : من الرفيق ؟ قال : من أنت غاية شغله ، وأوكد فرضه ونفله قيل له : فمن الشفيق ؟ قال : من ان دهمتك محنة قذيت عينه لك ، وان شملتك منحة قرت عينه بك . قيل له : فمن الوافي ؟ قال : من يحكي بلفظه كمالك ، ويرعى بلحظه جمالك . قيل له : فمن الصاحب ؟ قال : من أن غاب تشوقت اليه الأحباب ، وان حضر تلقحت به الألباب . قيل : فمن النديم ؟

---

(١) ص ٢٦ (٢) ص ٣٨ .

قال : من إن نأى ذكرك عنـــد الكاس ، وان دنا
ملك الاستئناس !(١) ».

ولو سألت صوفيا عن معنى هذه الاقوال ، لذهب في تفسيرها غـــير ماتتصور . فالجمال والكمال والكاس والاستئناس والهوى والحبيب واللب ، ألفاظ اصطلاحية لها عندهم مدلول خاص ، لا يتفق مع المدلول اللغوي المألوف .

وهكذا نرى أن التوحيدي قد خاض مع الصوفية في شؤونهم الخاصة ، التي لا يعقلها سواهم ، أو هكذا يعتقدون . ولكننا نلحظ أن الذوق الأدبي قـد غلب على التوحيدي ، فلم ينقل من أقوالهم ماينبو عنه ذوق القارىء العادي، ولم يقتبس عنهم إلا ما يتفق مع الطابع العام الذي وسم به كتابه .

التوحيدي والأخلاق وتعذر القوت

ولقد عرفت أن التوحيدي قد عاش بائساً . وقد عقب كلام الجنيد الذي سقناه قبل ، بكلام عن الأخلاق ، وأشار فيه الى ماتجد من حرمان ، كما أكد فيه أن من بحث في الأخلاق قد انحرف عن النهج المألوف ، وعوّص المرام ، ووعد بأن يحرر في الأخلاق رسالة واسطة بين الطويلة والقصيرة . قال : (٢)

«وفي الاخلاق كلام واسع نفيس ، على غير ماوجدت
كثيراً من الحكماء ، يطيلون الخوض فيه ، ويعوصون
المرام منه ، بتأليف محرف عن المنهـــج المألوف .
ولو ساعد نشاط ، والتأم عتاد ، وقيض معين ، وزال
الهم بتعذر القوت ، لعلنا كنا نحرر في الأخلاق رسالة
واسطة بين الطويلة والقصيرة ، يستفاد منها ماوضح لنا

(١) ص ٣٨ (٢) ص ٢٩

بالمشاهدة ، والعيان ، وبالنظر ، وبالاستنباط ، ولكن دون ذلك أوق[1] ثقيـــل ، وعوق طويل ، والله المستعان . »

كم كان التوحيدي يتألم وهو يرسم هذه الكلمات؟! ان كتب الاخلاق التي اطلع عليها لم يجدها وافية بالغرض ، ويرى نفسه قادراً على أن يضع كتاباً مفيداً ، ولكنه مهموم ، وهمه ناشيء عن العلة الكبرى التي تغلق العقول ، وتوصد النفوس وتعقل الأقلام ، وتمحو العبقريات ، انها «تعذر القوت» ! ان رجلاً كالتوحيدي يتعذر عليه القوت ، ويعلن ذلك في كتاب موضوعه (الصداقة والصديق) ، خليق في أن يدير ظهره للناس جميعاً ، ولو فعل لكان معذوراً ، وأظنه قد فعل . ان حرمان العلماء والمفكرين ، مما هو ميسور لبعض الحيوان ، وهو القوت ، هو أعظم ما منيت به الانسانية منذ فجرها الى يوم القيامة .

ولقد مات التوحيدي ، ولم نعرف له رسالة في الاخلاق .

العلم والفن :

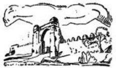
ولقد جاءت في كلام التوحيدي عبارات ، لم تعرف معانيها إلا في هـــذا القرن الأخير، وما أدري اذا كان التوحيدي قد قالها ،وهو يعني مفهومها في هـذا العصر ، أم أنها كانت زينة لفظية ، أعجبه جرسها ، وراقه تركيبها . فالثابت أن التفريق بين العلم والفن ، على النحو الذي أدركناه من بحوث الفلسفة الحديثة ، أمر لم يعرفه الاقدمون . إلا أن التوحيدي قد أشار في مقدمته بجملة معترضة ، واهية الارتباط بما قبلها وبما بعدها ، الى هذا البحث الهام ، الذي يتلقفه طلاب

(١) الأوق : الثقل (اللسان) .

الفلسفة الحديثة ، على أنه من المبادىء الأصلية. قال التوحيدي(١) : **فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن** . وأيا ما كان الأمر ، فان انتباه التوحيدي الى المشاكلة والاختلاف ، واسناد المشاكلة الى العلم ، واسناد الاختلاف الى الفن مدعاة لأن يدخل في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، عند الذين يلقنونها للطلاب .

★

لست أزعم أنني قد وفيت الكتاب حقه ، واني لأخط هذه الأسطر ، وأنا أشعر بأن في الكتاب مئات من المواضيع ، كلها خليق بأن يدرس ويبحث ويحلل ، وبأن يكون بعض الوسيلة للكشف عن عبقريات مازالت مخبوءة ، وفلسفات تكاد تكون منسية ، وكنوز نستطيع ان نزهو بهـــا على الناس ، في المشرق والمغرب ، وفي جميع العصور والدهور .



(١) ص ٣

الثقافة بين التحول والضياع

بقلم: جان دي ساليس

معرب الدكتور ابراهيم الكيلاني

اتجه الباحثون والمفكرون في النصف الثاني من القرن الحالي نحو تعريف الثقافة، والرجل المثقف، واحتمال انحراف الثقافة عن غاياتها المثلى، وأثر الوسائل التقنية الحديثة Techniques لنشر الافكار، والصور، والأصوات، في زيادة هذا الانحراف.

ويجدر بي في مطلع مقالي الاشارة الى ان تعديلات هامة في التقنية الثقافية قد تدخلت مرات عديدة في تطور حياتنا. وقد نبهني احد اصدقائي الى نادرة رواها المؤرخون وهي ان العجب والاستنكار استوليا على القديس اوغوسطين عندما رأى زميله القديس امبرواز

يقرأ بينيه ، ذلك أن **المطالعة الصامتة** كانت نقطة تحول تنبئ عن **أزمـة** في الحضارة القديمة زمن القديس اوغوسطين ، اذا كان الناس يومئذ يتلون أو يقرأون النصوص بصوت عال ، وإذا كانوا يسمون الآثار «النثرية منها والشعرية ، اول مرة بإنصاتهم الى التالي او القارئ» كما نستمع اليوم اول مرة الى الممثلين يتلون اثراً مسرحياً . فانه لم يتح للطباعة ، الا في عطفة جديدة لتاريخ حضارتنا ، أي بعد ان خرجت هذه من القرون الوسطى ، أن تنشر اثراً ادبياً اوعلمياً في نسخ عديدة ، وتضمن العالم كله دفتي كتاب .

ان مطالعة نص بصوت عال ، وقراءة صامتة لمخطوط ، وقراءة كتاب مطبوع ، **مراحل ثلاث** في تاريـخ الحضارة الغربيـة ، كما أنها وسائل تقنية ثلاث مختلفة في **تمثل ثقافة ما** وهذا مايقودنا الى التساؤل عما اذا كان لكلمتي حضارة وثقافة ذات المعنى في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث ، المنفصلة عن بعضها ابعاداً طويلة .

فاذا كان **العلم والفكر** المعاصران في النصف الثاني القرن الماضي قد حققا **تقدماً ملحوظاً** ، فيجدر في نظري البحث عن هذا التقدم في اطار الانتقال من نظرة الانسان الى عالم مستقر وثابت ، الى نظرته لعالم حركي ونسبي ، اكثر من البحث عن هذا التقدم في **تكامل تقني لمجمل ادواتنا** . وليس **أساس الاشياء** بالنسبة للفكر العلمي الحديث **نواة غير قابلة** للتبديل ، بل هو الطاقة التي تظهر من الصلات الكائنة بين القوى المختلفة . إن **ظواهر العالمين المادي والمعنوي لم تكن لتوجد هكذا في حد ذاتها ، بل وجدت بالنسبة لظواهر مماثلة اومتضادة** ، واني امتنع عن التدقيق ، لأن هذا يؤدي الى استطرادات نظرية وفلسفية تقودنا بعيداً ونخشى بعدها ان تحولنا عن موضوعنا ، ولكني اشير ببساطة الى أن **مهمة الجيل المعاصر الانفكاك عن بعض العادات العقلية وبعض الافكار المتعارف عليها** التي تعوق الى الآن نظرته الى عالم كشف العلم منذ خمسين سنة عن حقيقته التي تختلف جداً عن تلك التي علمها العلم الوضعي في القرن التاسع عشر ، ولنذكر في سبيل موضوعنا **أن** بعض المدركات التي كانت تبدو مطابقـة لحقيقة مادية ودائمة قد **أعيد النظر فيها** من جراء ظهور معرفة عميقة اعادت النظر في موضوعية هذه الحقيقة بالذات وديمومتها ، ان هذه الحقيقة تتغير تبعاً لوجهة النظر التي اعتنقناها ، لانه يستحيل معرفتها الا من خلال منظور الوضع الذي اتخذناه ، والمهم اذن **هو ان نعي وضعنا بالذات عن طريق**

التحليل، وأن نقيم بعدها الصلات الموجودة بين هذا الوضع والفرض المدروس. ان هذا الاسلوب يبعدنا بالضرورة عن القيم الثابتة في الظاهر، والتي هي في الحقيقة **قيم متعارف عليها**، كما يبعدنا ايضاً عن الصور الموضوعة مقدماً، والافكار المحددة، علماً بأن هذه الافكار والصور والقيم تتعلق بظواهر الطبيعة والمجتمع اوعلم الجمال. وهكذا تقوم المعرفة على اكتشاف الصلات الكائنة بين مختلف الظواهر التي ليست واحدة منها ثابتة ودائمة لأن فيها جميعاً **خاصية** قوة ذات علاقة بمعنى يجب كشفه ايضاً.

ان ظواهر الحضارة والثقافة خاضعة لهذا القانون النسبي الذي يحكم العالم، حتى اذا دخلت هذه الظواهر في حياة المجتمع حلت بها التعديلات التي تحمل بالمجتمع ذاته، ونحن واجدون دوماً في تاريخ الجماعات البشرية قوى مختلفة تتصارع، قوى واعية، وقوى لاواعية **تفسح** بصورة متواصلة مادة التاريخ المتغيرة، **وما التاريخ إلا نتيجة**، يعاد النظر فيها دوماً، لحركات وصراع هذه القوى المختلفة التي تتساند بصورة متبادلة تارة، وتتصارع فيما بينها تارة أخرى، لأن هذه القوى التي هي متباعدة الاتجاه ومتضادة، متشاركة الوجود في المكان والزمان، على أنه **وان كان التغير الدائم هو قانون الحياة**، فان القوى التي تحكمه تنزع احياناً الى الدخول في مبدأ واضح التعريف والتحديد تمثله سلطة معترف بها كونياً سواء من قبل **العقيدة** الدينية **أو البنية** السياسية والاجتماعية، او **اشكال حضارة، أو قانون جمالي**. وقد جرت العادة، تجاه هذه الظواهر التكاملية التي تبقى الى حد ما، محددة بمساحة جغرافية متعلقة احيانا بحكم سلطة سياسية والتي هي دوماً في صراع مع قوى الانحلال Désintégration، اقول جرت العادة باطلاق **تسمية** كنيسة عندما يكون المقصود الدين، **ونظام حكم** عندما يكون المقصود التركيب الاجتماعي والسياسي، وثقافة عندما يكون المقصود **وعي حضارة**، **وأسلوب** عندما يكون المقصود الفن. ان الحضارة الغربية التي نحن مدينون لها، والتي لاتزال مرة اخرى اثناء تاريخها الطويل في دور تحول عام، قد انتجت نوعاً من ثقافة كان يمثلها، قبل ظهور القوى الجديدة، **الرجل المثقف** L'homme Cultivé. فليسمح لي القارىء بان استحضر بسرعة الذكرى الباقية عن هذا النموذج من الانسان.

لقد عرفنا جميعاً **الرجل المثقف** ، وينبغي أن نتكلم عنه كما نتكلم عن قريب لنـا ممن كنا شاهدناه في شبابنا ، والذي أصبح وسط الاسرة غرضاً للتندّر والتسلي في بعض الاحيان .

كان للرجل المثقف **فكر غني ، قرأ كثيراً** ، وعرف **بسعة** العلم ، يعبر عن افكاره **بلغـة** لا تنسينا بساطتهاتقديسه صفاءها وتفاوتها . وكان الثقف في نظره غاية في حـد ذاتها ، ولم يكن يقبل من المعارف أو العلوم إلا **المجرّد** منها عن الغايات ، **وكان مظهره**ينبي عن عدم عنايته بالرياضة البدنية أو قواعد حفظ الصحة ، بالرغم من أنه لم يكن بنجوة من حب التظرف ، اذ كان يحلو له أن يشكل صورته بنفسه .كان هذا يتناسب والحياة الحضرية التي يحياها ويتناسب أيضاً وشيئاً من ازدرائه للحوادث الممكنة الوقوع في الحياة ؛ وهكذا كنا نراه يتنزه في حديقة اللوكسمبرج وعلى كتفيه معطف عريض ، وعلى رأسه قبعـة ذات حرف واسع ، ممسكاً بكتاب يقرأه ، وهو يمشي بخطى وئيدة ، لقد كان رجلاً جذاباً بكل تأكيد ، شريطة **ألا** تقطع عليه تتابع **أفكاره** ، وألا تحمله على تغيير عاداته ، ذلك أن له عادات ، مقدسة في نظره ، وفكراً يجول أحياناً في **أفلاك بعيـدة** جداً عن ضجيج هذا العالم ، انه يجلس وراء طاولة المقهى يتناول مشروبه ، ويقرأ صحيفته دون أن ينزع قبعته عن رأسه ، وقد يظهر في المجتمع لمدة وجيزة حيث يقدره الناس لثقافته وحسن حديثه ، انه يجيد مخاطبة النساء ببراعة وكياسـة ، وكان الناس يغفرون له **شذوذه** لأن من امتيازات الرجل المثقف مخالفة المألوف ، وكان الرجل المثقف يعتبر أنمن عدم اللباقة **الكلام عن مشاغله المهنية** التي هي مورد عيشه ، وقد لايكون له أحياناً مورد رزق ، يعيش من ايراد متواضع ، أو نتاج مشروع ، أو أرض ترك امر ادارتها الى من يفوقه كفاءة ، وعندما كان يستحيل عليه الخلاص من ضرورة مزاولة مهنة ، أو شغل وظيفة ما ، اظهر بكل طيبة خاطر ، وبدون فخر ، الزهد الذي يخامره تجاه هذه الحقارات ، ذلك لأنه يذكر بأن الرجل المثقف لا يستثير غضبه شيء .

كان **حديث** الرجل المثقف **ممتعاً** ، وكان **يجيـــد الكلام في كل شيء دون ان يتعمق شيئاً** ، ولذا كان ذهنه النقاد على غاية من **النماء** ، وبمـا أنه كان لايقوم بنفسه إلا بالاعمال المجردة ، وذلك بتمثله كمية من الاشياء متحاشياً **الحرج فيما اذا تعمقهـــا** ، وكان سهلا عليه من جراء ذلك**نقد** الآخرين ، وكان يصل أحيانا الى نوع من الكمال في هذا

النقد الكلامي تبعا لاتساع معارفه وتنوعها، فاذا انصت الناس له شعروا احيانا بالاعجاب نحو الرجل المثقف لأنه عندمايكون قادراً على الاسترسال مع السجية والسخاء الفكري شعرنا بالانجذاب قليلا الى مذهبه ، على أنه يشعر احيانا بشيء من **الحيـــاء في الافصاح عن صمـــيم فكره** فيعمدالى **تضليـل** محدثـــه باحاديث مدهشة محيرة ، فما اقل الاصدقاء الذين كان يطلعهم على **حماسته الخفية للاشياء** ، وقد يكون مصدر هذه الحماسة **مدرسة** للتصوير لم يقدرها الناس حق قدرها ، او تجاهلها نقاد الفن ، **اوأديب** بخسته كتـب الأدب حقـه ، او **شخصية تاريخية** لم يفطن المؤرخون لأهميتها وعبقريتها ، وعندئذ تفاجئنا الدهشة لاكتشافنا ان الرجل المثقف قد **وقف عبادته على صنم من الاصنام !**

إلا ان لهذا الرجل من **المزايا** ماليست للشبان ، وهكذا كان **يقرأ دون مواربة** الآثار الكلاسيكية ، من لاتينية ويونانية ، ويحفظ غيباً مقاطع طويلة من كورنيل وراسين ، وهو شديد الالفة لمونتين ولاروشفوكولد ، عليم بمختلف طبعات آثار الفيلسوف الفلاني الذي عرفه في شبابه ، يتكلم بغزارة عن وقائع قضية دريفوس . إن هذا الحديث البليغ لايخلو طبعاً من فائدة ، فقد يبلغ الذروة أحيانا بعبارات مكثفة تبعث على الدهشة ، او يلمع **بملاحظات تند عن أشياء تفوق التجارب الكتبية** ، وقد يقع ان تحتفظ بجملة ، وبالتالي بعبرة مفيدة ، على انك تصاب بالارتباك عندما يصر **فيلسوف المقهى او الصالونات** على ان يحملك على **قبول رأي مخالف للرأي السائد** لايمكن الدفاع عنه كحقيقة ، او عـــندما يصدر احكاماً جازمة على النـــاس وحوادث الساعة فنشعر عندئذ فجأة انه **مجانب للقضيـــة ، وسائر على هامش الحياة الواقعية .**

إن النوع الانساني يبدو دوماً في شكل اختلافات فردية متعددة ، فقد كان الرجل المثقف نصيراً للآداب والفنون ، وكان **جماعاً** للتحف ، **شغوفاً** بالكتب ، **ولوعاً** بالموسيقى ، **محباً** للأطعمة الفاخرة ، **شديد الحرص** على سلامة اللغة ، **عاشقاً** للأدب والمسرح والتصوير ، وهو في كل ذلك **يسلك مسلك الهواة** ، ولا تحتقرن كثيراً كلمة الهواية Amateurisme ذلك لأنه قد يحب شيئاً ويتعلق به ، ولا كلمة غاو Dilettante لأن اشتقاق هذه الكلمة من الايطالية ذو معنى **يشرف** من هو قادر على تذوق امور العقل والفن ، ويفضل الرجل المثقف أحياناً أن

يخفي ، بدافع من خجل او أنانية ـ **غرض هواه** الذي جعل منه مادة لذأته ، إنه يذكر دون ريب اللآلىء التي ينبغي ألا يقذف بها الى الخنازير ، وإن من تثقف على هذه الشاكلة يشعر انه اعلى مستوى من العوام وأنى للعوام أن يقدروا حق قدره نتاجاً ، **تشكل اللطافة ، ودقة الفكر** ، اذا لم تكن **الرقة المترفة** ، جزءاً كبيراً منه ؟ على أنه قد يعد ألا يكون الرجل المثقف عديم التأثر **بالافكار السخية الحرة** ، فهو حريص بصورة خاصة على الحرية الفردية التي تتيح له أن يقول ويعمل كل ما يخطر بباله شريطة **أن يحترم قواعد اللياقة** ، وأن يحافظ على المظاهر ، لأنه بالرغم من زهده الظاهر بها ،واعتزاله بمحض ارادته العالم الذي يحيط به فان الافكار المسبقة ـ التي لم تخطئه بالرغم من محاولته التغلب عليها ودفعها ـ لتعكر صفو حياته وانسجامها ، وهذا بالنسبة للفكرة التي كونها عن ثقافته التي تبعده عن الثقافة ، وتسبب له مشاكل ، غير ان الرجل المثقف يكره المشاكل ، ويحرص على **ألا ينزل الساحة** ، وهو وإن حمل على الأقل بخلاف ارادته ، على الدخول في نقاش علمي ، فقد يتجنب اشتباكاً قد تزهق فيه روحه .

وهكذا **فان الآراء المسبقة عند الرجل المثقف تختلف تبعاً للوسط الاجتماعي الذي ينتمي اليه** ، فهو في فرنسا ، بملء ارادته ، عدو للاكليركية مما يزيد في حرية فكره التي اعتاد ان يعالج بها المسائل المتنوعة ، ويزيد في الامكانيات التي تعرض لمزاج كلف بالحرية ، واذا كان من انصار اليمين ، فان نقص نوع من التحرر الفكري ، تعوضه أناقة الحركات واللهجة التي تضفي ملامح النفوذ على أحاديثه .

إن الرجل المثقف يجيد **فن السفر** حول غرفته ، فسواء أكانت هذه متواضعة أم متألقة فهي مركز وجوده لايبعد عنها مطلقاً حتى ولوكان في مكان آخر ، وهو يعود اليها بسرور مشوب احيانا بالكآبة ، إذ يجدر القول انه بالرغم من **فكره المزين** ، وثقافته الحقيقية فانه ، كما كان يبدو في الماضي ، ينقصه قليل من الجرأة ، كما ان حب الاستطلاع الفكري عنده يكتفي بكل طيبة خاطر بمجلدات يكدسها في بيته ، ونجد منها دوماً كومة على طاولة الى جانب سريره . وقال لي يوما : مافائدة السفر اذا كان معجم لاروس او الصحف تنبئنا بما هو كائن وجار ؟ ولم السفر اذا كان اصدقاؤنا العائدون من الخارج يقصون علينا اخبار رحلاتهم تاركين لنا المجال لطرح أسئلة دقيقة عن البلاد التي شاهدوها ، أما بلاده ذاتها فهو لايحبها فحسب ، بل هو واثق بأنه يعرفها جيداً ، وليس هناك داع للاهتمام اكثر مما يجب بالنقد الذي يوجهه الى بلاده أناس قلقون ، لاخلاقهم،واحياناً ، اجانب لايفهمون هذه البلاد . وليس الرجل المثقف بالضرورة

ذا ذهن وقاد ، ونفاذ الى صميم الأشياء ، وهو لايخلو دومـاً **من قوة اللسن** ، وقد يقع له أحيانا ان يصوغ اراءً جريئة ، إلا اذا كانت هذه الآراء نـكات بسيطة ، وكان من المتفق عليه ان العالم الذي نعيش فيه عالم ثابت عملياً ، وغير قابل للتغير ، وان **بدع** التقنية الحـديثة Technique Moderne لم تفعل سوى إضافة أشياء الى ماهو كائن دون ان تعدل من معناه. وفي يوم من الايام سألنا الرجل المثقف عما يعتقده في الماهيات Attributs الدائمة التي يمكن من خلالها معرفة فيما اذا كان بلد من البلدان **مثقفاً حقيقة** فأجاب قائلاً : « إني ارى **ثلاثة موازين** لذلك ، الأول : **اجادة الكلام** ، لأن الحضارة تعرف بفن المحادثة ، والثاني : **اجادة الاكل** لأن بلداً يجيد اهله الطهي ينم بالضرورة عن مستوى حضاري جدير بالتقدير . والثالث **اجادة النوم** لأن بلاداً تجيد القروية فيها ترتيب السرير بنفسها ، ويستطيع سكانها أن يشبعوا حاجتهم الى الراحة على فراش ممهد لهي بدون ريب بلاد متمدنة » .

واصبحنا على أثر هذا الحديث نحب الرجل المثقف اكثر من ذي قبل ، ولم نكن نجرؤ على الجزم بأنه لم يكن على صواب ، ولكن شعورنا كان قوياً بأنه **من أهل زمان قد ولّى.**

ولا ريب في أن هناك طريقتين لتقييم هذا النموذج من الناس الذي نشعر بأنه آخذ في **الانقراض** . الاول : قولنا ان حضارتنا آخذة **في التدني** ، وأن ليس هناك مكان للرجل المثقف حقيقة ، المستمد ثقافته من التقاليد الانسانية Humanisme اليونانية اللاتينية في عالم طبعته التقنيات الجديدة في الدور الصناعي **بطابع الهمجية**. والثانية **التأكيد** بأن اذا كان هذا النموذج الانساني قد أخنى عليه الدهر ، وأصبح في حكم التاريخ فان مرد ذلك الى أنه كان **يمثل نوعاً من الحضارة الزائلة** ، وهنا أصل السؤال الاصلي وغرض مقالي وهو: **هل تزول الثقافة أم تتحول ؟**

ان هناك فلسفة تاريخ فيها شيء من الكآبة اعتادت استعمال **اصطلاحات** مثـل : **انحطاط ، فساد ، زوال** ...الخ واذا صدقنا ماقاله اوسوالد شبنكلر Oswald Spengler الذي أحدث كتابه « انحطاط الغرب » ضجة كبرى في المانيا بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ **فان حضارة ما قد تغرق وبالتالي تختفي بين أمواج الماضي** ؛ أما بول فاليري Paul Valéry فكان يقول يومئذ : **اننا تعلمنا أن الحضارات بائدة** ، وفي تاريخ الفن كان يعقوب بور خاردت Jacob Burckhardt **يعجب كثيراً** بصفاء تصوير روفائيل

والفن البدعي الذي يمثله ، وكانت آثار ميكلانج وجماليتها تسبب له ازعاجاً ، وكان الاسلوب **الغريب** Baroque يعبر في نظره عن انحطاط الفن وفساده ، ومن السهل إيجاد **تسلسل مماثل للقيم الجمالية** بين أسلوب موزارت Mozart الموسيقي والاسلوب الجديد الذي أدخله بيتهوفن Beethoven ، والذي انحط بدوره أو أفسدته الموسيقى الرومانتيكية حتى عهد واغنر Wagner ومريديه .

وضمن هذا النسق من الافكار حدث **انحطاط أو فساد** عندما ضحى الزمان بالضرورة ، بعد اختراع الطباعة ، المخطوطات الرائعة التي زينها وكتبها وصورها رهبان علماء وفنانون ، والتي فسحت مكاناً لوسائل طباعة آلية للنصوص الدينية والدنيوية .

وهناك طبعاً انحطاط وفساد في **النتاج المطبوع** ، كالكتب والصحف بالنسبة للنتاج الطباعي في القرنين السادس عشر والثامن عشر ، واني لا اجادل في ان **زوال الثقافة الكلاسيكية** البطيء والمحتوم والاستعاضة ، عنها بتعليم **اللغات الحية** والمواد العلمية والتقنية والاجتماعية يدخل في تيار فساد مثل ثقافي اعلى ، هو شيء بلا ريب ولكنه عتيق بال .

على اننا ندرك ان هناك اشياء أخرى ، سواء أكان الاسلوب الهندسي غوطياً Gothique أو نهضوياً Renaissance أو غريباً Baroque أو كلاسيكياً جديداً Neo - Classique في عصور عديدة في الغرب ، فقد كانت الهندسة ، ومن خلفها الحضارة **تعبر عن ذاتها** ببناء الكنائس والقصور والمنازل الارستقراطية والمدن المستمد تنظيمها من المثال البورجوازي، الذي يبدو في ترتيب مخططاته ، وتنظيم ابنيته وشوارعه . إن فن البناء يمارس منذ قرن على الأقل في ميادين مختلفة ، ذلك ان **العصر الحديث يمثل بالمحطات ، والمرافيء ، والمعامل ، والأحياء التجارية والعمالية ، والمطارات** ... الخ ومن السخف في أيامنا ان نحاول بناء قصر من قطع ملفقة ، او بناء منزل ارستقراطي . وفي الواقع فانه لم يعد احد يفعل ذلك .

هذا ولم ينقطع الناس طبعاً عن بناء الكنائس ، ولكن بناءها ظل يعكس طوال عشرات السنين حيرة المهندس وارتباكه . ويبدو ان هندسة الابنية الدينية لم تهتد الى طراز موافق إلا منذ عشرين عاماً اي بعد ان **استوحت الطريقة الهندسية الحديثة** واستعمال الاسمنت في البناء .

وهل انا بحاجة الى الكلام عن **انحطاط** تنظيم عمران المدن Urbanisme منذ

السنين الاربعين من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول تقريباً من القرن العشرين ، فقد كانت الاصطفائية الجمالية Eclectisme Esthétique ، **وهي تعبير عن تكامل حضارة ومجتمع في جميع المجالات** ، مسيطرة حتى حوالي سنة **١٩١٤** ، في الهندسة وتنظيم المدن ، والفنون الجميلة ، والموسيقى والأدب ... الخ ولم يشعر الناس أنهم ضلوا الطريق إلا بعد ان فهموا ، او أحسوا أن ذلك قد حدث حين ارادوا **انقاذ كل شيء** بالمثابرة على استعمال هذه الطرائق التعبيرية.

ان فن التقليد **أزاح عن مكانه** لفن بديعي يجيد الاختيار ، ويتقيد بقاعدة ومذهب ، ويخضع لنظام ، وقد رأينا ان التشذيب . والاقتطاع ، وهجر طرائق التعبير العتيقة ، والتضحية بفن جمالي قديم ، واستيحاء مواد جديدة ، وتقنيات حديثة ، والعودة الى السطح والخطي ، وعدم التماس التأثير لمجرد التأثير ، والبناء تبعاً لقواعد موافقة ، والانتاج حسب شعور هو شعور زماننا ، ان كل هذا هو **الطريق الوحيدة للخلاص** .

لا بد من الآن **التوفيق بين هذا التفكير** المفرط في الدقة **والنظرة الاجمالية لفلسفة تاريخ قائمة** على أساس **النسبية والطاقة** ، تلك النظرة التي استندنا اليها في كتابة هذا البحث .

ويخيل الي انه ينبغي **الانطلاق** من الفكرة القائلة **ان مدركات الحضارة والثقافة لاتتعلق بحقيقة ثابتة اوتصور ساكن ، اوقانون بديعي ، اونظام فكري** زعم انها صحيحة وحقيقية ، ونحن بحاجة ايضا في هذا المجال الى **التخلص** من الاقوال الوهمية المتعارف عليها ، ومن **الرواسم** (الكليشهات) واني لاأتردد عن التأكيد بأن الحضارة اليونانية اللاتينية التي كان من المحتمل ان يظل العصر الوسيط وعصر النهضة امتداداً لها ، والتي كان من الجائز ان تظل حضارتنا حتى تتعرض للخطر بفعل قوى مناوئة ، ان هذه الحضارة **اذا مافسرت** على هذا الشكل ليست سوى رسم (كليشة) غير معقول ، نعم ان هناك **حضارة غربية** ، ومن الجدير ألا تستعمل كلمة غرب بمعناها الجغرافي لأن اشعاعها خلق فيما وراء البحار ، وفي قارات اخرى **مراكز حضارية** تتصل جميعاً بمصدر **مشترك** مشكلة مع مراكزنا الحضارية الخاصة شبكة تغطي الكرة الارضية ، ولكن المهم هنا هو اذا كانت بعض اساليب التعبير في الحضارة ، وأعني بذلك بعض **اشكال الثقافة قد بليت وبطلت**

فليست مهمة الرجل المفكر ذي الارادة الحازمة أن يندب هذا الانحطاط ويرثي لحال هذا الخسران بل عليه ان يبحث عن الطرق والوسائل التي تتيح له أن يسهل ماهو في الحقيقة **تحول** في الحضارة والثقافة ، ذلك التحول الذي يبشر بامكانيات مقبلة .

واني أقر بأن هذه النظرة الى ثقافة يتغير اتجاهها ومحتواها ووظيفتها الاجتماعية هي على نقيض **كل عقيدية** Dogmatisme تعتبر هذا **المدرك الحضاري او الثقافي** عادلا وحقيقياً ، وهي على نقيض فلسفة سياسية واجتماعية تعتبر هذا الشكل الحكومي ، اوذاك التركيب الاجتماعي عادلين وحقيقيين ، وتقيّم في هذا السياق من الافكار ، الظواهر التاريخية والاجتماعية **تبعاً لسلم قيم زعم انها غير متغيرة .**

ان طريقة تعبير جمالية ، وثقافة ، وشكل حكومة ، ومجتمعاً ، ليس هذا كله في نظري حقيقي وعادل من خلال **منظور التاريخ** الا اذا كان **نقطة توازن** بين مختلف القوى النفسية الواعية واللاوعية ، تلك القوى الآتية من اعماق الماضي ، والنابعة من الحاجات الجديدة ، وتظهر هذه الحاجات الجديدة في عصر معين ، ومكان وزمان معينين داخل مجموعة بشرية هي في طور **التحول** ، فتضع — اي الحاجات الجديدة — ، تحت تصرفها هذه الأداة التقنية ، اوتستخدم مواد البناء ، اوتلك الآلة ، اوتختار الطريقة التعبيرية المناسبة لشعورها .

وإنه لمن العسير — في رأيي — ان تعرض بصورة منتظمة نظرة مناقضة للعقل المنظم **الذي شوه** — على تعدد المدارس التي ينتسب اليها — **النظرة الصحيحة الى الاشياء .**

ولكن من منا يدعي ان نظرة الى الاشياء هي صحيحة ؟ اني اعتقد شخصياً ان كل شيء في مجال بحثنا **تقريبي ، وان علوم الانسان** التي تدخل في نطاقها نظراتنا الى الحضارة ، والثقافة ، والادب والفن هي **علوم تقريبيـــة** ، وليس في مكنتها ألا تكون غير ذلك ، وهذا مايحدونا الى الاقتراب على قدر الامكان من الحقيقة ، وربما دون ان نستطيع الوصول اليها ابداً ، إن المدركات التي تفيدنا ايضاً احسن من سواها في هذا النسق من الافكار هي المدركات التي تبدو اكثر صلاحاً **لتسهيل** هذا السير ، واقصد بذلك تلك التي هي **كائنـــة** او التي تبدو لنا انهـا موافقة في هذا الموضوع ، ولذا فاني لا اعتقد انه بامكاننا أن نشيد ، كعقيدة ، صورة ما ، نتخيلها عن الحضارة ، اومثلا ما عن الثقافة ، اوقانوناً جمالياً عزيز علينا ، اوطريقة تعبيرية او اسلوبية نفضلها على سواها . اني موافق على ان هنـاك **اعمالا فنيـة**

هي تعبير عن هذه الحضارة اوتلك ، والتي كانت لها ،والتي طغا كمالهـــا وصفاؤها على صفحة البقاء ، والتي تسحرنا بنضارتها التي لايكدر لونها مرور الايام .

وهنـا يحتل ـ بكل تأكيد ـ **المعبد اليوناني ، والكاتدرائية القوطيـة ، وروفائيل، وموزارتأمكنة ممتازة تسهم في زيادةثروات الثقافة الانسانية ،** وحسبنا التذكر بأن تقليد الآثار الادبية وانتحالها لم يحولا دون نظم مبدعي الثقـافة الشعر على طريقة هوراس ، وأن يضعوا لوحة على غرار هولباين ، أو يؤلفوا قطعة موسيقية شبيهة بقطع شوبرت ، وكذلك **تأخذ الحقيقة على عاتقها** أنتقنعرجلاسياسياًانيحكم كما كانلويس الرابع عشر يحكم شعبه،او أنيخوض جنرال حرباًعلىشاكلةفريدريك الكبير ، وليس العسير في الموضوع ألا يعمل كما عملوا في هذه الفترة التاريخية او تلك **وانما العسير ان نعمل حسب مقتضيات زماننا وشعوره ، أي ان نعمل عملا مناسباً وموافقاً .**

وهل هذا يعني أنه لم يعد هناك خطر يهدد الحضارة والثقافة ، وهل اخطأ هؤلاء الـذين ذكروا الانحطاط والفساد وضياع الثقافة ؟ اني أوضح ماعنيت . **إن كل أثر انساني يواجه** قبل كل شيء ، **خطراً** . وليس هناك **أمان** في مجال الثقافة أو سواه من المجالات ، ثم أن **التشويهات والتعديلات** العميقة أحياناً التي تمنى بها الفنون — والمقصود بالفن معناه الاكثر اتساعاً— ذات **مظهر انحطاطي أو فسادي** بالنسبة لحالتها السابقة . واني أفهم دون صعوبة ان الفن الغريب Baroque يبدو انحطاطياً بالنسبة لمؤرخ الفن الذي يمثل تصوير روفائيل في نظره قانوناً جمالياً ذا **قيمة مطلقة** . فان الذوق يتدخل في هذا النوع من الاحكام اما أنا فاني لاأتردد لحظة في تفضيل لغة موزارت الموسيقية على لغة الرومانتيكيين الموسيقيـة ؛ على أن دراسة عميقة لهذه الظواهر تحرم علينا اعتبار كل واحدة منها على حدة ، فهي تفرض علينا دراستها ـ اذا صح التعبير ـ في اطار مضمونها ، فلماذا **اتخذ الفنـــانون المبدعون** بعد فترة قليلة من عهد كلاسيكية النهضة لغة اخرى ؟ ولماذا اختاروا وسيلة أخرى للتعبير وخلقوا اسلوباً جديداً ؟ وهكذا نتوصل الى فهم أسباب هجر **ما كان تاماً** في نوعه.في غداة ١٩١٨ أخذ بعض المفكرين المذعورين أمثال اشبنكلر في المانيا ، وفاليري في فرنسا يماكون باسهاب وتشاؤم **ظاهرة امكان زوال الحضارات وتعرضها للموت ،** وقد قاسوا هـذه الحوادث — تجاه الدمار الذي خلفته حرب كبرى ـ بمقياس **تقليدي (أكاديمي)** لان العالم

الذي ولدوا فيه ، وتلقوا ثقافتهم منه مع عودهم على الاستقرار والأمان وسكون الاشياء جميعاً ، الى حد اصبح فيه **قانون التغير في** نظرهم — الذي هو مع ذلك **قانون الحياة والتاريخ** — اكتشافاً سبب لهم دواراً ! ثم جاء بعدهم أناس لم يعودوا مرتبطين بعالم ماقبل ١٩١٤ لأنهم لم يعرفوه ، فلم يحملوا على تسريح انظار كئيبة على العالم الحالي ، حتى ولا بعد ان عجلت حرب جديدة وهائلة في تطور كان يوحي بأقوال تشاؤمية للذين وعوا فجأة منذ ثلاثين عاماً المخاطر التي تهدد الحضارة والثقافة ، واعني بذلك **مدرك حضارة وثقافة** كان لايحسب حساباً كافياً للاعتبار القائل : **ان هذه الظواهر تمت بالتعديلات التي يمنى بها العالم الذي تظهر فيه حضارة او ثقافة .**

ولكن أمن المعقول ان نميل الى النقيض المعاكس ، وأن نعارض التشاؤم الذي **حاكمت** من خلاله بعض **العقول الكبيرة** الخطر المهدد للحضارة والثقافة ، بتفاؤل هادىء شأننا في ذلك **شأن الذي يؤكد بأن تاريخ الانسانية يسير في خط تقدمي لا ينقطع ؟**

واسمح لي أيها القارىء اولاً بملاحظة أن تعبيري تشاؤم وتفاؤل غير صالحين في نظري عندما يكون **المراد المعرفة والفهم** إذ من المؤكد ان **الفهم** يفوق في اهميته تقييماً يتم احياناً بعجلة ، وعندما نلاحظ مثلاً ان استخدام الطاقة الذرية لغايات عسكرية يشكل خطراً هائلاً ، في حين أن استخدامها لغايات سلمية ينشر خيراً عميماً فاننا لا نصدر على امكانيات تطبيق الطاقة الذرية حكماً متفائلاً ، **بل نقرر بكل بساطة انه يمكن استخدام الطاقة الذرية بشكلين مختلفين** ، وان وسيلة جديدة ، وقوية بصورة خاصة قد وضعت في خدمة التقنية الصناعية ، وان على الناس وإراداتهم تتوقف معرفة كيفية استخدام هذه الوسيلة التقنية الحديثة ، لقد كان عصر آلة البخار ما كان ، أي ما اراده الناس أن يكون ، وكذلك الأمر في عصر الطاقة الكهربائية والمحرك الانفجاري ، وهذا ماسيكون من أمر عصر الطاقة الذرية .

اني أعتذر عن هذه الدورة التي قمت بها قبل الوصول الى موضوعي الا وهو معرفة ما اذا كانت الوسائل التقنية في **اعادة طبع ونشر وتوزيع الصور والكلام والاصوات تشكل خطرا على الثقافة** . وكان يستحيل علي أن أسلك غير هذا المسلك ، لأن علي الاجابة على هذه المسألة : ضياع الثقافة أم تحولها ؟ وقد قلت : علينا ألا نعالج طرائق التعبير ووعي الحضارة أي الثقافة كل واحدة منها **على حدة** ، فان التقنيات الصناعية ظهرت في ميدان الثقافة،

وهذا هو الواقع ، ولكنها لم تظهر في هذاالميدانإلا في برهة **حولت فيهاالتقنيات الحديثة شرائط حياة الانسانية الحديثة** فقد خلقت هذه التقنيات الحديثة **مجتمعاً صناعياً** يسكن افراده في تجمعات حضرية كبيرة ، فهي اذن **قلبت أوضاع المجتمع ، وخلقت جماهير** العهد المعاصر الغفيرة ، **وأوجدت مهناً وحرفاً** جديدة وبالتالي **تعليماً وتكويناً** مهنيين غير معروفين في الماضي ،كما **هيأت** العدد الكبير من الناس لتلقي تعليم كان **موقوفاً** في السابق على أقلية ممتازة ، فأسهمت إذن بقوة في خلق حاجة للاعلام والتعليم لم يصل شعور الطبقات العليا في المجتمع بها ، قبل عهد الآلة ، الى هذه الدرجة فقد يكون الانسان نبيلاً وقليل النصيب من العلم ، أو غنياً وكثير النصيب من الجهل . **وليس في الامكان اليوم ان يكون الانسان فقيراً ومحروماً من العلم.** اني لأدخل في هذا البيان الحجة الاجتماعية من أجل ذاتها ، بل أدخلها حتى دون الرجوع الى انواع الحكم التي يمكن ان توجد اليوم في العالم ، وبصرف النظر عن المذاهب الاجتماعية التي تتجابه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لابد عند ذكر الثقافة في هذا النصف الثاني من القرن العشرين **من معرفة الذي يجب توجه اليه هذه الثقافة** . وإني لاأتردد عن القول : إنه بالرغم من اختلافات النظامين الاجتماعي والسياسي **فلا بد للثقافة بحكم الضرورة الحتمية من التوجه نحو مجتمع صناعي يقطن افراده في تجمعات حضرية كبيرة** ، وهو في حاجة الى الاعلام والتعليم لأن بلداً مصنعاً لايستطيع أن يعيش بصورة سوية بدون **إعلام وتعليم الجماهير** ،ولن يستطيع أحد في هذا المجتمع أن يكسب عيشه لأن **كسب العيش** أصبح غير **قابل للانفصال** عن حد معين من التعليم واعلام غير منقطع عن التجديد . إن هذا القول ينطبق على أميركا كما ينطبق على الاتحاد السوفيتي أو فرنسا ، وتظل هذه البلدان تحت طائلة الانحطاط اذا لم تفعل ذلك؟ أي تحت تهديد **العجز** عن متابعة الحركة التي تفرضها ، دون رحمة ، الصناعة وقانون الانتاج ، على الانسانية الحديثة .

وبعبارة اخرى فان دراسةموضوعي لن تتم بصورةمرضية اذا لم نعترف اجمالاً بأن هناك علم اجتماع حضاري ، وآخر علمي وفني وآخر — وهوماليهمنا — ثقافي . كما ان هـذه الدراسة لا تتم اذا لم تدرس الوسائل التقنية الموضوعة تحت تصرف الثقافة في زمن معين ومجتمع محدد .

ومن هذه الوسائل في الأدب الطريقة التقنية في **الالقاء ، والقراءة بصوت عالٍ** في الأزمنة القديمة ، وتقنية **القراءة الصامتة** وتقنية **الكتاب المطبوع** منذ عصر النهضة ، وتقنية **الصحيفة ذات السحب الواسع** منذ القرن التاسع عشر ، وتقنية **الاذاعة** (ومعها سماع النصوص المسجلة الذي بدأ يغزو البيوت) منذ القرن العشرين . ومن المحتم ، اي من الطبيعي **أن تؤثر** فوارق الوسط الاجتماعي ، وفوارق الوسائل التقنية بشدة على **شكل حضارة ما ،** وبالتالي على ثقافتنا ، ومن المحتم ان يوجه تحول مجتمع ما الثقافة وجهة جديدة ، وأن يعد لها ، وان يذهب حتى الى تغيير المعنى الذي يليق اطلاقه على كلمة الثقافة .

إن هذه **الحتمية** تساوى والتأثير العميق الذي تحدثه الوسائل التقنية والمواد البنائية والآلية على الثقافة . حتى اذا اردنا **عزل** الثقافة وردها الى **مذهب جمالي ، او تلاعب** بالافكار وقعنا في الأكاديمية والجدل الاسكندري العقيم ، ومن الخطأ الظن اننا نستطيع ببساطة تضييد الوسائل التقنية الحديثة فوق اسس مفروض فيها عدم التبدل والتغير ؟ حتى اذا عملنا بهذا الشكل وقعنا ايضاً في الانتخابية التي ليست سوى علائم تفكك المجتمع والثقافة والفنون .

إن **جهد التكامل** ، واعني بذلك البحث عن **نقطة توازن** بين القوى الفاعلة في مجتمع ما ، في بلد معين ودور معين من تاريخه . إن هذا الجهد **يفترض** بالضرورة **اختياراً مناسباً ،** وعندما تكف ثقافة عن أن تكون **مطابقة** تهدد بالانسحاب من الحياة والبطلان والزوال ، وهناك دوماً خسائر في ادوار الازمات ولكن الموضوع هو معرفة فيما اذا كانت **حضارة** وهي وسط تحولها الكامل **تطلق** الكفاية من الطاقات الجديدة والقوى المبدعة لكي تستطيع تعويض هذه الخسارة . **ان الحضارة تضيع عندما لا يكون هناك مايعوض فقدان ما كان ،** وعند ئذ يكون فاليري على حق عندما قال : إن الحضارة مائتة كالبشر ، واما اذا كانت **الازمات** على العكس مولدة **للقوى الفاعلة** فان **الخسارة تعوض بالتحول القائم المؤدي الى امكانيات جديدة عند مبدعي الثقافة** ، ولهذا السبب ايضاً احجم والحالة هذه عن الحكم على تحولات العالم الحالي في اتجاه تشاؤمي او تفاؤلي . اني لا ابعد الفرضية بان الخطر بالرغم من ثقل القوى المدمرة ، ونظراً لعجزنا عن التغلب عليه ، سوف يتحول الى كارثة ، وعندئذ يحدث فقدان الثقافة . ولكني لا استطيع تجاه الامكانيات الموضوعة امام

الأنسانية اليوم ، والقوى الفاعلة التي تنبعث من حضارة هي وسط ازمة كاملة، **لا أستطيع الزهد** بالأمل بان الخسائر سوف تعوض بتحول سلامي للثقافة . وجل ما استطيع قوله : إن تلك الحضارة والثقافة هما ابعد من ان يصلا الى **نقطة توازنها والى حالة التكامل التي تسترد فيها حضارة ما وثقافة ما** ، اذا صح التعبير ، **ملامحها المعروفة** . ويجدر بنا على العكس العمل ردحاً من الزمن ، ولعله لمدة طويلة وسط حالة من فقدان التوازن وعدم الاستقرار التي تقتضيها كل ازمة مجتمع او حضارة .

لنعترف ـ جملة ـ بأن **لوسائل التقنية الحديثة والحاجات الجديدة في المجتمعات المصنعة اثراً عميقاً في الثقافة اليوم** ، ذلك لأن الانسان الحديث بحاجة الى تمثل طائفة من المعارف كان العقل الانساني في الماضي لايشعر بضرورة الارتباك بها ، ولا ريب في انه من الصحيح القول : إنه ينبغي **ألا نمزج** بين التعليم والثقافة ، وأنه يجدر **التمييز** بين الاعلام والثقافة ، فليس للاعلام من معنى سوى المواد التي تزود بها معرفة الانسان ، على انه يجدر بنا الاعتراف بان **الرجل الحديث لا يمكنه الاستغناء عن إعلام متجدد دوما** ، وبأن هذا الاعلام يزحم فكره باشياء كثيرة ، فعلى الرجل الحديث إذن ان يبذل جهداً متواصلاً في عملية **التمثيل**، وقد انقضى عهد كانت تنعم فيه الثقافة بنوع من القرار والسكينة ، وان ما ينبغي ان تنزع اليه فهو الكفاية من **الفراغ** لكي تتعلم وتتأمل ، حتى يستطيع هذا التمثل المتجدد دوماً من الاسهام **في اغناء ثقافة الرجل الحديث وتعميقها** . إن الرجل الحديث مجبر إذن على أن **يتمثل غذاء فكرياً لم** يعد في الامكان أن يظل انسانياً بحتاً او تاريخياً او أدبياً ، وإن **المثقف البحت** ينزع الى **ازدراء** الحضارة اليدوية والعملية ، وإلى عدم الاعتراف بحضارة إلا اذا كانت كلامية وكتبية . وليس من المصادفات إلا ينتج عصرنا عباقرة ادباء يضاهون غوته ، وبلزاك ، وهوغو ، وتولستوي ، ودوستويفسكي ، فقد فضلت **العبقرية الانسانية في القرن العشرين الظهور في ميادين أخرى من المعرفة والايجاد** ؛ فان رجالاً وهبوا ذكاء خارقاً ، وخيالاً مديداً ، نوقفوا حياتهم على علوم الفيزياء ، والكيمياء ، وعلم الأحياء ، وعلم النفس ، والتقنية ، ويجدر بنا التسليم بأنهم بتوسيعهم الى مالانهاية ميدان المعرفة الانسانية **قد طبعوا الثقافة بطابع توجيه جديد**، فان اعمالهم ومكتشفاتهم **شغلت** ـ على الارجح ـ الانسانية الحديثة **أكثر مما شغلتها** المبتدعات الادبية البحتة .

وهناك رجال آخرون حملهم نبوغهم على مزاولة نوع من الفعالية الفنية ، فاختاروا أن **يطبقوها** على الهندسة ، وتنظيم عمران المدن ، والتصوير الشمسي ، والفنون التطبيقية ، والسينا والاذاعة الى غير ذلك من المشاغل التي يلقى فيها **فكر ميال الى الايجاد** امكانية اشباع ميول التحقيق المادي . وهناك اخيرا رجال دخلوا **غمار السياسة** لان هذه في زماننا تستدعي **المواهب الانسانية المتنوعة ، ويخطىء** كل من يظن أن الجهد القائم على تكييف تنظيم المجتمع وفعاليات الدولة مع حاجات عالم في طور التحول لهو جهد بعيد عن الثقافة ، وقد رأينا — مكتفين هنا بمثال واحد دون امثلة اقل شهرة — رأينا في مطلع هذا العصر اديباً رقيقاً هو ليون بلوم Léon Blum كان في شبابه ناقداً ادبياً ، معنياً بعلم الجمال ، لطيفاً ، هجر صنعة الأدب لأن موهبته الاستعدادية وحس الواجب الاجتماعي امليا عليه مزاولة السياسة ، حتى اذا غدا رجلاً سياسياً ، وخطيباً ، ورئيس حكومة ، ظل الرجل ذا الثقافة الواسعة ، كما ان ثقافته غنيت بالتجارب الجديدة التي حصل عليها في ميدان العمل .

ان محاولة **حصر الرجل المثقف ضمن اطار فعالية الأديب** وفعالية السياسي تؤدي الى الفصل بين الأدباء من جهة وبين ارباب التقنيات والمتجرين والسياسيين من جهة اخرى، في حين ان من **واجب الرجل المثقف** في القرن العشرين ان يظهر فعاليته ايضاً في المخابر والمراسم Ateliers والمشاغل « ورشات » Chantiers والمعامل وقاعات المداولات وحتى في مكاتب الادارة الكبيرة . ان **الثقافة** التي يمكن ان نزود بها ، والتي يجب ان يزود بها رجل علمي ، او تقني ، او بناء ، او مهندس ، اورجل الجماهير ، او مدير كبير ، واعني بذلك كله ، الباحثين والمخترعين وقواد المشاريع والرجال . ان هذه الثقافة **اقل تشربا للتقاليد الانسانية والادبية ، واقل نعومة** من ثقافة المتعلم المحض ، ولكنها ستكون **اقرب الى الحياة ، واكثر حسية ، واقل تجوداً** عن المنافع ، ولعلها **اكثر نفعاً** من ثقافة هؤلاء الذين يفيدون مجداً من معرفتهم الكبيرة ، وعلمهم الواسع الذي لايخطئ الا نادراً ، ومن عقولهم المرنة ، ومطالعاتهم التي لاتحصى . ويخشى ما دمنا نحافظ على مدرك ثقافي ، وهو دوام عفاة الزمان ، ألا تسيطر هذه الثقافة على الانسانية الحية كما تعمل وتناضل في عصر محفوف بالمصاعب ، وليس أبعد عن ذهني وأنا ابين هذه النظرات ، ازدراء التراث الثقافي

الكبير الثمين الذى نحن مؤتمنون عليه ، ولكن يجدر ان نعلم ان **المواد ذات الصفة العلمية الواسعة** ، وكذلك ايضاً **المشاغل ذات الطابع المشدد الجمالي** والادبي قد اصبحت جميعاً **اختصاصاً** في جملة بقية الاختصاصات ، فهي لم تعد تمثل الثقافة بل ستظل عنصراً هاماً فيها ، هذا اذا لم ترتكب خطأ بمطالبتها بحصر الثقافة فيها ، لان من **واجب الثقافة النزوع ليس الى التكامل بادخال معارف من انواع مختلفة** فحسب ، بل يجب ان تكون في **متناول** عدد متزايد من الناس ينتمون الى اوساط اجتماعية ومهنية مختلفة . وليست الثقافة **غاية** في ذاتها كاسرار المعبد ، بل يجب ان **تلبي** اكثر فاكثر حاجة معممة للمعرفة وامكانيات متزايدة دون انقطاع للذيوع والانتشار .

اما فيما له علاقة بتعليم الثقافة ونشرها فليس لي أن أزيد على ماسبق ان قلته . إن **دور المربي** اولي بالبداهة ، كما ان دور هؤلاء الذين يستعملون الادوات في خدمة نشر الثقافة يزداد اهمية اكثر فاكثر . ولا بد لي من الاشارة الى خطورة ماقاله ايليا اهرنبورغ Jlya Ehrenbourg عن استعمال هذه الأدوات ، ان هذه ليست صالحة اوسيئة في حد ذاتها ، فان المعول اذن على **الاستعمال** الذي يخصها به الرجل ، فان التبعات الملقاة على الناس في هذا المجال لكبيرة جداً ، وينبغي السعي دوماً الى ابعاد الخطر الذي يمكن أن ينجم عن **سوء استعمال المطبوع والسينما والاذاعة** ... الخ ومهما تكن معتقداتنا السياسية فمن المحسوس ان للمجتمع والسلطات القائمة حق مراقبة استعمال التقنيات الحديثة لنشر الكلام والصور والأصوات ، وليس بوسع الحريص على التمسك بفكرة الحرية الموافقة على اساءة استعمال الحرية. وسيبذل جهده في البحث عن الوسائل المشروعة التي تتيح له التخفيف ما امكن من اثر هذه الاساءة . اما القول إن هذا مما يثير مشاكل صعبة جداً فهذا شيء مؤكد ، ولكن يجدر بنا ان نثق بمجتمع تكون بملء الحرية ، فيه **شعور الجماعة وارادة حمايتها** من التأثير السام التي قد يحدثه استعمال سيء للتقنيات الجديدة او القوية ، انه سيجد مناهج كفيلة بابطال مفعول هذا الاستعمال السيء اوحذفه .

وأخيراً بقيت كلمة **عن التحولات** التي يمكن للوسائل التقنية لنشر الصورة والكلام والاصوات ان تحدثها أو التي أحدثتها في الثقافة الانسانية . وعندما قال فاليري : ان الثقافة مائتة لم يكن يفكر في الظاهر بأن حضارتنا قد بعثت بفضل تقنياتها حضارات زائلة أو بعيدة ،

ان علم الآثار جعلنا **نعي** بفضل الصور **كنوز** الفن والهندسات المنتزعة من باطن الارض أو الغابات العذراء ، أو المكتشفة في انحاء القارات البعيدة ، وإنها لظاهرة جديرة بالاهتمام تلك العناية التي تبديها الجماهير نحو الحفريات الاثرية . ومن نحو آخر فان النسخ Reproduction الفوتوغرافي والشريط الوثائقي Documentaire وحتى الصحف المصورة والمجلات ذات الانتشار الواسع والتي نعلم مساوئها ، قد **وسعت** بصورة خارقة للعادة **معرفتنا بتراث الانسانية الفني** .

وهناك ناشرون فنيون ذوو فضل عميم في مجال ثقافتنا الفنية . وهكذا فان اسلافنا لم يحظوا بهذه الوسائل العجيبة لتوسيع نظراتهم الى العالم ، وبكلمة موجزة لدفع ثقافتهم الفنية دفعة متجددة دوماً ، بل لتوجيهها وجهة جديدة .

إني لا أطيل الكلام ، لأنني أتكلم عن اشياء معروفة ، وتكفي أخيراً اشارة الى متحف اندره مالرو André Malraux الخيالي (١) .

وليست هناك فائدة ترجى من توسيع الافكار حول **تجاوب** الصور المتحركة الى ميدان الثقافة الانسانية ، ولعل الفيلم الوثائقي قد اسهم أكثر من التصوير الشمسي . في **ولادة رؤية جديدة للعالم** ، ثم ان تأثير تقنية الفيلم اخذ يثبت وجوده في مجالات مختلفة من العرفان وشعور الانسان الحديث ، فقد أحدث ، كالتصوير الشمسي ، تعديلات هامة في **جمالية** القرن العشرين . وأخذ الفن المسرحي يتأثر بذلك بصورة دائمة ، لأن الفيلم كسر الاطار المسرحي ، وقلب جميع الوحدات Unités ، كما ان قدرته على تحقيق مطابقة الوقوع (المعيّة) Simultanéité وتعميم الوجود المكاني Omniprésence تكاد ان تكون غير محدودة . وقد أتينا بحق على الفيلم الايطالي في السنين الاخيرة لطرحه جانباً ـ وهذا دون النظر الى بقية مزاياه ـ المعالم الاخيرة لتخلف فن الفيلم تجاه الفن الدرامي .

واذا أجيز لنا الكلام عن ثقافة درامية أو مسرحية . فمن المؤكد أن السينما قد غيرت كلياً شروط هذه الثقافة . وهذا من الأمثلة الجلية التي تعزز الفكرة القائلة أن التقنيات الجديدة **قابلة** لاعطاء وجهة جديدة ، والى حد ما ، **معنى جديد للثقافة** .

وفي مجال اعادة نشر الاصوات فقد كان **للحاكي** « الفونوغراف » **والمذياع** أثر

---

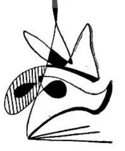
(١) يشير صاحب المقالة الى كتاب اندره مالرو : المتحف الخيالي للنحت العالمي
Museé Imaginaire de la sculpture mondiale (1953)

عميق على ثقافة الرجل المعاصر الموسيقية ، ولما يمض زمن طويل على ظهور مقال عـن موزارت كتبه العالم اللاهوتي كارل بارت ، الذي يملك آثار موزارت كلها مسجلة ، فـد وصف الحاكي بأنه « اختراع مبارك » وفي امكاني تقييم اسهام **الاسطوانة** الخـارق للعادة في تعليم الشبيبة الموسيقى . فقد أصبح في مكنة الطالب ان يكتسب ، بفضل الاسطوانة، معرفة عميقة ذات شيات وصفات عالية للآثار الموسيقية الفذة وعازفيها ، إن الهواة والمحترفين مدينون لهـا . فهل أثرت الاسطوانة ايضاً على جمالية الموسيقى في أيامنا ؟ هذا محتمل . ان العازف غير مرئي ، والموسيقى مسموعة في تجريدهاأي في صفائها . انالاسطوانة تتم بلطافة عن عيوب الأثر الموسيقي وعازفيه، فهي تنمي نوعاً من الجمالية الموسيقية ، كما انها تضر بنوع آخر ، فان نوعـاً من قواد الجوقات الموسيقية ، وعازفي الآلات ـ ولنذكر نموذج العـازف الرومانتيكي الذي يؤثر بوجوده المرئي والمغناطيسية المنبعثة من شخصه على جماهير المستمعين ـ ان هؤلاء جميعاً ينكشف ضعفهم اثنـاء التسجيل ، حتى اذا عزم العازف على مجابهة هذه المغامرة اقتضى ذلك منـه الخضوع لنظام فني وجمالي لم يرزق الجميع مثيله في الحفلات الموسيقية .وهكذا فلم تعدالموسيقى**مشهدمسرحياً** ، وأعتقد ان هذا لصالحها .

إن **المذياع** بالذات يوفر لجمالية الصوت والكلام الآلي امكانيات جـديدة ، فهناك مؤلفات موسيقية تنبأن في جدتها وقدمها بظهور عليها بشكل محسوس تأثير **الاسطوانةوالمذياع**، وإننا عالمون بذلك المزيج المدهش بن التأليف الموسيقي والتعليق الشفهي في قطعة Pierre et le Loup للموسيقار بروكوفييف (١٨٩١ ـ ١٩٥٣) تلك القطعة التي تسحر اطفالنا وكذلك ذويهم . واذا أردت أن تسمع هؤلا الصغار والكبار احدى القطع الكبرى في الفهرست الموسيقي Repertoire للقرن التاسع عشر كالكوميديا الموسيقية لفاجنر Maitres chanteurs رأيت رد الفعل الذي تحدثه فيهم وبخاصة اذا كانوا حديثي السن.فهناك عوامل عديدة ومتنوعة جداً اسهمت منذ ثلاثين عاماً تقريباً ، في تدشين **جمالية جديدة** في مجال التأليف الموسيقي . وينبغي **ألا** ننسب ذلك إلى وسائل نشر الصوت الآلية ، وليس من جدال في ان ذيوع هذه الجمالية الجديدة افادت من هذه الوسائل ، ولكن هنـاك اكـثر من هذا ، فقد عقد مؤخراً في مدينة بال بسويسرا مؤتمر دولي للموسيقى الالكترونية ، وهكذا نرى ان التقنية لم تعد تكتفي باعادة نشر اصوات الادوات الموسيقية التقليدية ، **بل تنتج** بذاتها اصواتاً . وليس ادعى للاهتمام من متابعة البيان المشروح في الاذاعة عن هذا **المؤتمر** وحفلاته . وليس لدينا اليوم مثال واشد وقعاً

على **تعديل** خارق للعادة **لمدركات الثقافة الموسيقية** اكثر من ظهور التقنية الالكترونية في مجال التأليف والعزف الموسيقيين .

وخلاصتي الشخصية في موضوع معرفة ما اذا كانت الثقافة في خطر ، فليست كما قلت تشاؤمية ولا تفاؤلية ، حتى اذا ما تركت مزاجي على غاربه ، وذهني في منحدره الطبيعي فانما تكون على الأرجح **تفاؤلية ، إذ ينبغي ان نثق بالانسان وبالناس** ، لأن ذلك على وجه التقريب ضرورة حيوية في عالم برزت فيه امام اعيننا النزعات السيئة وقوى التدمير بصورة مقلقة وخارقة للعادة ، وإني اعتقد ان ليست الحاجة الملحة لتلافي الاخطار فحسب بل الأمثلة المتعددة والبديهية تنادي جميعاً لصالح فكرة تستند الى **ملاحظة القوى الخيرة والجديدة** الآخذة في تعويض الخسائر التي تمنى بها حضارتنا وثقافتنا ؛ انها لقوى **معوضة** ، قادرة على تحويل الثقافة وتغييرها . لنشعر أيضاً بأنه يحوجنا كثير من الارادة الطيبة والجهود المتجددة دوماً لبلوغ هذا الهدف . إن هذه المهمة كونية ، وينبغي أن تؤديها الأنسانية الحديثة جمعاء ، ولديها شرط اولي **وهو استقرار السلام** بين الشعوب .



الكتاب والموضوعات

● خمسون دقيقة انتظار

مسرحيـة حوارية

ذات فصل واحـد

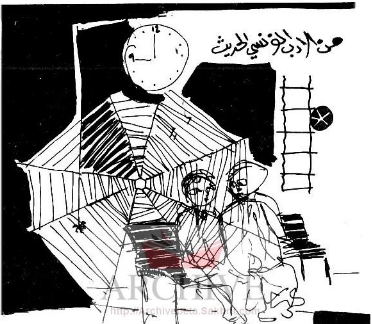
من طرائف

الأدب الافرنسي الحـديث

للـكاتب المسرحي :

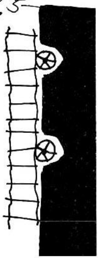
شارل شارا

من الأدب الفرنسي الحديث



خمسون دقيقة انتظار

مسرحية حوارية ذات فصل واحد



تأليف الكاتب الفرنسي: شارل شارا

ترجمة: سعيد القضماني

خمسون دقيقة انتظار

حائزة على الجائزة الأولى المسرحية لعام ١٩٥٥

الاشخاص : لويس ، ارمان .

المدة : خمسون دقيقة .

المسرح : رصيف محطة صغيرة تقع على خط حديدي طويل ، الجرس يعلن قدوم قطار . يقف على المسرح ، شخصان ، هما موظفان في مكتب واحد وقد عاد احدهما الى منزله بعد ان قضى يوماً عند زميله .

لويس ـ إن حظنا كبير فالقطار متأخر عن موعده ثلاثين دقيقة .

ارمان ـ آه لا بأس .

لويس ـ وقد جئنا قبل الموعد أيضاً بعشرين دقيقة .

ارمان ـ عشرون دقيقة؟وهذا يعني أن علينا ان ننتظر اكثر من ثلاثة ارباع الساعة .

لويس ـ تقريباً .

ارمان ـ أي ما يقرب من الساعة .

لويس ـ وهذا صحيح .

ارمان ـ انه انتظار طويل .

لويس ـ كان في مقدورنا البقاء عشر دقائق اخرى في المنزل .

ارمان ـ نعم وهذا ينقص مدة الانتظار عشر دقائق .

لويس ـ عشر دقائق لها أهميتها بالنسبة الى خمسين دقيقة .

ارمان ـ نعم ، إذ تصبح عندئذ أربعين .

لويس ـ أي أكثر من نصف ساعة بقليل .

ارمان ـ وعندها يختلف الامر .

لويس ـ وهذه ياصديقي عادة متأصلة في نفس زوجتي ، فهي كلما ذهبت الى مكان ما ، كان عليها أن تصل اليه قبل الموعد بزمن طويل . وهي لو جاءت معنا لرأيت كيف كنا نصل قبل الموعد بساعة بدلا من عشرين دقيقة .

ارمان ـ وعندها يبلغ بنا الانتظار ساعة ونصف الساعة ، وهذا وقت طويل.

لويس ـ والشيء المضحك انها جاءت مرة الى المحطة ولم تلتفت ابداً الى القطار .

ارمان ـ وماذا صنعت ؟

لويس ـ كلا ، لم تلتفت الى القطار بل جلست وأخذت تنز بالصوف .

ارمان ـ ياللغرابة ؟

لويس ـ وعندئذ لم نكن لنلحق بالقطار الا راكضين وفي اللحظة الاخيرة.

ارمان ـ لقد رأيتها كثيراً تخرج بنا من المنزل قبل الموعد بكثير .

لويس ـ انت لاحظت هذا الامر منها ، اليس كذلك ؟

ارمان ـ ولكن كنت أقول في نفسي لعلها ملت حضوري ، لذلك لم أطلب اليها البقاء .

لويس ـ ليس الامر كما تظن ، لقد قلت لك ان ذلك عادة متأصلة فيها . حتى في الجنائز ، فانها كانت تصل قبل موعد تشييع الجثمان الى المقبرة بوقت طويل . وعندها تنتظر وتنتظر .

ارمان ـ وفي هذه الحالة لم تكن لتستطيع ان تنز بالصوف .

لويس ـ كلا ، بالطبع .

ارمان ـ هذه حالة لا تقبل المناقشة شأنها شأن الذين يصلون دوماً متأخرين . ثم انها عادة خير من غيرها من العادات . قل لي ياصديقي . الا تذهب لنشرب شيئاً نقطع به هذا الانتظار ؟

لويس ـ آه ؟ انت تعلم ان المشرب بعيد من هنا ، ومن الجائز ان يسبق القطار موعد تأخره .

ارمان ـ ربما كنت على حق .

لويس ـ ثم اذا فاتك القطار ، فلديك قطار آخر يصل خلال ساعتين او ثلاث.

ارمان ـ وعندها يطول الانتظار .

لويس ـ نعم ، هنالك حالات كثيرة الانتظار .

ارمان ـ ذلك انه خلال ساعتين او ثلاث ، لايستطيع المرء مباشرة أي عمل من الاعمال ، وليس امامه الا الانتظار .

لويس ـ سنعود عندئذ ثانية الى المنزل .

ارمان ـ كلا ياصديقي ستتركني هنا انتظر لوحدي .

لويس ـ هل تريد المزاح ؟

ارمان ـ آه ! كلا ، فانا لا أريد ان أضايق امرأتك مرة أخرى .

لويس ـ وهل انت واثق مما تقول .

ارمان ـ نعم ، نعم أنا اعرف انه عندما ينصرف الضيوف ، فان النساء يرغبن في اصلاح المنزل بهدوء ، وعودتي الى المنزل مرة اخرى تضايق امرأتك ولا شك .

لويس ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟

ارمان ـ لا اعني شيئاً ، الامر جد طبيعي — فهي قد استقبلتني كما يستقبل المرء . ولكن المرء يستقبل اليوم صديقاً ، وغداً يباشر عملا آخر . وللنساء برامج خاصة صغيرة ، وهن حريصات على تنفيذها .

لويس ـ هذا صحيح ، ولكن عودتك لاتفسد برنامجها ، فليس الامر كالوعدت للبقاء يوماً كاملا آخر .

ارمان ـ على التأكيد !

لويس ـ آه ! انظر هنالك الى ذلك الثقب في الشجرة .

ارمان ـ ماذا هنالك !

لويس ـ لاشيء ، ثقب فحسب . لم تشأ الشجرة ان تمتد في هذا الاتجاه ، وعندما قلمت حدث هذا الثقب . هناك دوما ضحايا في هذه الحياة .

ارمان ـ شيء مؤكد .

لويس ـ انا نفسي تسببت يوما في انزال الشقاء . وانا أدرك الآن سوء ماصنعت .

ارمان ـ آه ! وكيف كان ذلك ؟

لويس ـ تصور أني عندما كنت اعود الى داري مساء كنت أبول دوماً ، ولا ادري ما السبب ، في مكان معين في الطريق .

ارمان ـ ثم ماذا ؟

لويس ـ هذا كل شيء فبعض الحشائش كانت ضحية لهذه العادة التي لا استطيع لها دفعاً حتى اليوم الذي شعرت فيه بفداحة الظلم الذي كنت ارتكبه .

ارمان ـ وهل اخترت مكاناً آخر ؟

لويس ـ نعم ، وعندها صرت ابدل المكان في كل مرة وهذا شيء يدعو للتأمل.

ارمان ـ آه ها قد انقضت ثلاث دقائق.

لويس ـ حتى واكثر من ذلك بقليل . ثلاث دقائق ونصف .

ارمان ـ هو الوقت اللازم لاعداد بيضة مسلوقة .

لويس ـ بالضبط.

ارمان ـ الساعة تقارب التاسعة . وامامنا سبع واربعون دقيقة .

لويس ـ كنا نتحدث عن السرعة التي تتغير فيها الاشياء في هذا الزمان ، وهناك شيء ، على النقيض من ذلك ثابت لا يتغير .

ارمان ـ اي شيء ؟

لويس ـ الوقت الذي يلزم لاعداد بيضة مسلوقة .

ارمان ـ ولكن هذا يتبدل حسب حجم البيضة .

لويس ـ اوه ، كلا .

ارمان ـ ثم ألا يتبدل ايضاً بين بيضة حمامة وبيضة نعامة؟

لويس ـ آه . هذا مؤكد ... أنا اتحدث عن بيضة دجاجة من انتاج بلدنا .

ارمان ـ الآن نحن على اتفاق .

لويس ـ الذي اريد قوله انه في أية بقعة من بقاع العالم تحتاج بيضة دجاجة من بلدنا للبقاء ثلاث دقائق ونصف في الماء الغالي لتصبح مسلوقة. وهذا مبدأ من مبادىء الاستقرار ولكن ليس له قيمة في عصر مسرع ـ متبدل كعصرنا .

أرمان ـ الحق ما تقول .

لويس ـ ثم ان رجلا كأنشتين يريد أن يخلع النسبية على كل شيء فتأتي البيضة المسلوقة لتصيح في وجهه : كلا .

أرمان ـ نعم .

لويس ـ ان البيضة شيء مدهش .

أرمان ـ واعتقد ان شهرة كريستوف كلومب مرتبطة بشهرة البيضة .

لويس ـ نعم ان البيضة متصلة باكتشافات كبرى. البيضة تحوي كل شيء.. والظاهر ان الانسان ينام مرتاحاً جداً اذا حاول أن يجمع جسمه كأنه داخل بيضة ، وقد سمعت يوماً محاضراً في الاذاعة دعا المستمعين للتفكير في البيضة ، وقال : « البيضة هي الوحيدة دون سائر المخلوقات ، التي لها شكل البيضة » .

أرمان ـ هل نجلس ياصديقي ؟

لويس ـ نعم .

أرمان ـ غريب أمر هذا الزمان لقد انتظرت القطار مرات كثيرة وأنا وحيد .

لويس ـ الحق ماتقول .

أرمان ـ نعم ، اني انتظر القطار دوماً بصحبة رفاق .

لويس ـ ياللغرابة !

أرمان ـ الحياة لاتجري أحياناً كما يشتهي المرء ، فلم يحدث لي ابداً أن صحبتني امرأة الى المحطة أو اني صحبتها .

لويس ـ أبداً ؟

أرمان ـ إذ عندها يحلو الانتظار ساعة أو حتى ساعتين . فكلما تأخر القطار سارت الامور سيراً حسناً .

لويس ـ الحق ماتقول .

ارمان ـ فأنت تستطيع بصحبة امرأة ان تجد لذة في أي شيء من الاشياء . تستطيع أن تتلهى في المحطة باللعب بزهرة ، بالنظر الى رأس المستخدم ، بسماع الجرس يدق . وتستطيع ان تشرح للمرأة كيف تسير القطارات وكيف ترقم العربات ولماذا يترك فاصل في نهاية الخطوط الحديدية ... وأن تمعن في شرح كل هذه الاشياء الصغيرة التي تجهلها المرأة ، ثم ان الذي يسرع بالوقت وأنت في صحبة امرأة هو تلك المحاورة الصامتة : فمن تبادل في النظرات والابتسامات ، الى الضغط على الأيدي ، الى قبلات خاطفة وأخرى طويلة .

لويس ـ نعم . بينما يشعر الانسان اذا كان في صحبة رجل انه مدفوع الى الخوض في الاحاديث الجدية .

ارمان ـ آه عندما نفكر بذلك نشعر بأن الحياة لا تحتمل بدون النساء .

لويس ـ كلا لا تحتمل .

ارمان ـ يجب أن تحب النساء . اذ ستجد من يقول لك : «النساء هن النساء» .

لويس ـ نعم لاحظ جيداً ان اصطحاب امرأة الى المحطة قد يكون في بعض الاحيان شيئاً شاقاً متعباً .

ارمان ـ عند الخصام وقطع العلاقات .

لويس ـ كلا لقد اصطحبت حماتي معي يوماً الى هنا . لأن امرأتي كانت متعبة ولم تستطع المجيء .

ارمان ـ آه هذا شيء آخر .

لويس ـ ثم انك تعلم انها كانت تمانع في زواجي . كانت فكرة العظمة مستأثرة بها ، فكانت ترغب ان يكون زوج ابنتها دركياً من رجال الامن .

ارمان ـ نعم نعم اني اعلم ذلك .

لويس ـ ولكن موقف مرغريت كان موقفاً حازماً . واستطعنا الزواج . على أن جفوة ظلت بيني وبين حماتي بسبب هذا الحادث .

ارمان ـ يالمسكين !

لويس ـ وفي ذلك اليوم وصلنا الى المحطة قبل الموعد بثلاثة ارباع الساعة . فحماتي تستأثر بها هذه العادة أيضاً وعنها اخذتها زوجتي .

ارمان ـ وهل كان القطار متأخراً ؟

لويس ـ اوه أنت قاسي القلب لاترحمني . وأرجوك أن تتأكد أن البقاء معها كان عذاباً نفسانياً طويلا بالنسبةلي. فالأمر معك الآن شيء هين يسير . اذ لم اكن ادري ماذا اقول لها . حاولت أن احدثها وفكرت طويلا بما اتحدث اليها وعندها لم اقل شيئاً ولا اعلم اذا كانت ، هي ايضاً قد حاولت وفكرت . وعلى كل حال لم تقل شيئاً ايضاً وكان الحال خلال الطريق ايسر بعض الشيء فكانت ضجة وقع الاقدام تخفف من وطأة الصمت . ولكن لو تعلم كيف كان الامر عسيراً في المحطة .

ارمان ـ اصدق بسهولة ماتقول .

لويس ـ ثم اني لا أعلم اذا كنت ،انت ايضاً مثلي تعتقد انه كلما امتد الصمت زادت الخشية من الكلام وتراءى انالذي سيقال سيكون تافهاً سخيفاً .

ارمان ـ اني افهم عنك كل الفهم .

لويس ـ فمثلا اذا قلت بعد صمت امتد عشر دقائق :« ان الشمس قد غربت »، كأنك تقصد بقولك هذا ان الشمس لن تشرق ابداً وان نهاية العالم قد حلت .

ارمان ـ هذا حق .

لويس ـ ومع ذلك قلت لها هذا القول في ذلك اليوم كي ابدأ الحديث معها .

ارمان ـ او لم ينشط الحديث بينكما بعد ذلك ؟

لويس ـ لقد اجابتني : « كان ذلك بسبب سحابة » .

ارمان ـ وهذا كل شيء ؟

لويس ـ لقد حاولت الكلام بعد ذلك مرتين او ثلاثاً ولكن دون نجاح .

ارمان ـ حتماً لقد تنفست الصعداء عندما وصل القطار .

لويس ـ انك تقدر الموقف وترى الامور بوضوح فالوقت يمر بسرعة وحتى ولو كان الحديث بين رجلين ولكنه يتصل بينها وانت تعرف الى اي مدى تفضي هذه الاحاديث .

ارمان ـ لو اننا ذهبنا الى المشرب لتحسن الوضع بعض الشيء فالجلوس وطلب ما نريد ان نشربه، ثم شرب ما طلبناه ، ودفع الثمن ، كل ذلك يقطع الوقت ويسرع به . وكذلك فان باستطاعة الخادمة او صاحبة المشرب ان تقدم لنا بعض التسلية فانا لا أحب الصمت ولا الهدوء من النساء .

لويس ـ آه انت ترى ذلك .

ارمان ـ نعم ان الذي احبه عند بعض النساء طريقتهن في الاثارة فهناك شيء لا استطيع تحديده يبعث فيك الحيوية والنشاط ، كطراز اثوابهن مثلا اي كم ينحسر القميص عند الصدر ، وكم تغطي التنورة من الساق . باشياء كهذه تبعث الاثارة ولا استطيع ايضاحها ، ولكن علماء الاجتماع يشرحون لك ذلك ويوحون اليك اكثر الاحيان بأن الاثواب انما صنعت لتكشف عن مفاتن الجسم .

لويس ـ وهل يشرح علماء الاجتماع هذه الحالة ؟

ارمان ـ نعم النساء يباشرن ذلك بغريزتهن ، ولكن العلماء يقولون لك : كيف ولماذا .

لويس ـ اعتقد ان هذا بعيد عن اختصاصهم .

ارمان ـ آه . انت مخطىء في هذا الامر . فعندنا في مكتب المعمل عالم اجتماعي يقوم بإجراء الاختبارات . وهو منصرف الى هـذه الامور . حتى ان لديه اختباراً خاصاً لمعرفة النساء اذا كن رصينات او هن مستهترات .

لويس ـ احقا ما تقول ؟ وماهو هذا الاختبار ؟

ارمان ـ بسميه اختبار السدة فهو يقف في اسفل سدةخشبية ويطلب الى المرشحة ان تصعد اليها . الطريقة التي تظهر بهـا ساقيها ثم ارتفاع الدرجات التي تصعدها ومدى السماح للنظرات كي تنزلق من تحت اثوابهـا ، كل ذلك يعين على الحكم على رصانتها او على استهتارها .

لويس ـ وماذا بعد ذلك ؟

ارمان ـ يحرر لها بعد ذلك بطاقة بالنتيجة ويستطيع صاحب العمل ان يقبلهـا أو أن يرفضها حسب حاجته الى الرصانة او الاستهتار .

(يمر قطار سريع محدثاً ضجة)

لويس ـ القطار السريع يمر بسرعة .

ارمان ـ نعم .

لويس ـ وخاصة في هذه الاوقات .

ارمان ـ ثم ان سرعته تزداد من وقت لآخر .

لويس ـ انك رأيت كيف هز زجاج النوافذ هزاً .

ارمان ـ نعم ان الاهتزازات تنتقل بواسطة الارض ؟

لويس ـ والغريب ان ذلك لم يؤثر على النباتات .

ارمان ـ الظاهر ان الجذور تمتص كل رجة للارض .

لويس ـ انظر كيف ان اغصان الاشجار تهتز ايضاً . فالقطار هو الذي حرك الهواء. القطار شيء شعري يجر النسيم وراءه وان له لذنبـــاً كطائرة الكوميت ولكنه ذنب خفي لايمكن رؤيته .

ارمان ـ نعم .

لويس ـ الانسان حقق تقدما في هـــذه الناحية . انه قادر على صنع الهواء ، والانسان يدفع الهواء الان دفعاً قوياً .

ارمان ـ وخاصة بعد تفجير القنبلة الذرية .

لويس ــ واذا كان لي ان اخلع اسما على عصرنا هذا فاني اسميه عصر الهواء .
ارمان ــ ولكنه هواء عنيف جداً ، ذلك تحدثه القنبلة الذرية .
لويس ــ نعم انه في منتهى العنف كما كان الحال في برج بابل .
ارمان ــ حقاً ان الهواء العنيف هو الذي هدم برج بابل .
لويس ــ كلا بل الزيادة في هذا العنف .
ارمان ــ والمروحة ايضاً تحدث هواء .
لويس ــ نعم ولكن بطريقة اكثر انوثة من هواء القنبلة الذرية .
ارمان ــ هذا صحيح .
لويس ــ ان عناصر الطبيعة قاسية على الانسان على كل حال .
ارمان ــ نعم .
لويس ــ انت تذكر قصة الجثة التي تكشفت عنها الثلوج بعد ستين عاماً من اختفاء صاحبها الذي كان يتسلق جبال الالب .
ارمان ــ وهذا يثبت ان العناصر اذا كانت قاسية فهي مستقيمة عفيفة ترد ما سبق أن أخذته .
لويس ــ ولكنها ترده في حالة جديدة .
ارمان ــ والظاهر أنها محفوظة حفظاً جيدا .
لويس ــ جميلة هذه القضبان الحديدية .
ارمان ــ نعم .
لويس ــ وهي رمزية .
ارمان ــ ماذا تقصد بقولك هذا ؟
لويس ــ انها تدعو للتأمل فهي لن تلتقي ابدا .
ارمان ــ كلا انها متوازية .
لويس ــ ومع ذلك فانها تلتقي آخر الخط تدريجيا عند الحاجز النهائي . هــذه

الحواجز هي ايضا رمزية، فليس هناك من سبيل الى التجاوز عنها. الخطوط الحديدية شيء غريب، كل مافيها يمت الى الرمز، فنقطة التلاقي تعني انه يمكن للمرء السلوك في طرق شتى، وتعني ان الانسان اذا اختفى حينا يمكنه الظهور مع ذلك في جهة اخرى، اما الجسور فتعني انه في الامكان تخطي العقبات والصعاب .

ارمان ـ رغم كل شيء فان الانسان مجبر على الوقوف في المحطة في جهة من الجهات.

(الجرس يرن)

لويس ـ انظر، الجرس ايضا رمزي .

ارمان ـ الى أي شيء يرمز .

لويس ـ الى كل شيء انه يعني : « انتبهوا » انه يرن .

ارمان ـ آه .

لويس ـ وهذا الحصى بين القضبان. انه رمز اجتماعي جميل. ان المرء ليتساءل كيف ان هذه الحجارة الصغيرة تحمل اثقالا ضخمة كاثقال القطارات دون أي تململ او تذمر.

ارمان ـ السبب انها تتعاون كما يتعاون المواطنون تحت وطأة الضريبة .

لويس ـ وهل تعلم ان هذه الحجارة وسيلة ثورية من الطراز الاول ؟

ارمان ـ وكيف كان ذلك ؟

لويس ـ الواقع انه يمكن الاحتماء خلفها، ثم بالحجارة يستطاع رجم فرقة بكاملها، ولهذا السبب تخلو منها محطات المدن الكبرى .

ارمان ـ ولعل ذلك من حسن الحظ .

لويس ـ الحق ان سواد الشعب قوي مهما كانت الظروف .

ارمان ـ ولكنه غير واع فعندما تؤكد له انه قوي تأخذه نشوة الفرح ويمكنك، عندئذ ان تسوقه الى حيث تريد. وكان يساق من القديم بضربات السياط ، اما الآن فبضربات من التمدح والتملق . وهذا تقدم محسوس وفرجهدا كبيرا .

لويس ـ ربما .

ارمان ـ اوه ، انظر الى هناك ، الى تلك المرأة الجميلة الشابة .

لويس ـ آه . هذا صحيح .

ارمان ـ وانها وحيدة .

لويس ـ تمهل فعسى أن يكون رجلها في سبيل قطع التذاكر .

ارمان ـ وهل تعتقد ذلك . ان لها سيماء امرأة وحيدة .

لويس ـ وكيف عرفت ذلك .

ارمان ـ اولا انها تحمل حقيبة .

لويس ـ وربما كان يحمل زوجها حقائب ، او كان من النوع الذي لا يقوم بأي عمل

ارمان ـ اقول لك ان امرأة جميلة شابة كهذه المرأة لا يمكن ان تحمل حقيبة اذا لم تكن بمفردها .

لويس ـ هذا مجرد شعور خاص .

ارمان ـ سترى .

لويس ـ ثم ربما كان زوجها مصاباً بمرض القلب .

ارمان ـ ماذا تقصد بقولك هذا ، فرجل مصاب بمرض القلب لا بد أن تعجل بموته امرأة جميلة كهذه المرأة ، وعندئذ تصبح أرملة .

لويس ـ ربما تكون على صواب ولكن اعتقد ان الامر مجرد مصادفة لا أكثر .

ارمان ـ ابداً . فلولم تكن وحيدة ، لما جاءت الى طرف الرصيف ، وكان عليها ان تنتظر في الوسط . فالمرأة التي لا يرافقها رجل لا تعرف ابدا أين تذهب في المحطة . وعندئذ ، تأخذ في الانتظار .

لويس ـ هذه وجهة نظر .

ارمان ـ ثم عندما تكون وحيدة فانها تذهب مباشرة الى حيث هي الآن .

لويس ـ ربما كانت امرأة ذات شخصية مستقلة .

أرمان ـ ولكن شخصيتها لاتظهر في المحطة ، ربما ظهرت في العربة عند اختيار المقعد او وضع الحقائب على انه من المستحيل ان يكون للمرأة شخصية متميزة اذا كانت وحيدة في المحطة .

لويس ـ اذاً ربما كانت زوجة سائق القطار اتخذت موقفها هناك لتركب في مقدمة القطار بالقرب من زوجها .

ارمان ـ انت مصر حقاً على أن تكون هذه المرأة ذات بعل .

لويس ـ اوه كلا ، بل اني اتحدث لمجرد الحديث ومع ذلك فانه شيء لطيف جدا ان يقود السائق قطارا يحمل زوجته .

ارمان ـ اذا كان السائق يرغب في ذلك .

لويس ـ آه على التأكيد ، ويمكن عندئذ ان تجلس في العربة التي تلي القاطرة فلاتشعر بحر او برد وعلى السائق عندها ان يحسن القيادة وعليه ان يسير بسرعة في الطرقات المستقيمة ليدخل الرعب الى قلبها وان يخفف من السير عندمايكون المنظر جميلا كما يلف المنعطفات بشكل منحرف ليبعث في قلبها السرور .

ارمان ـ وهل باستطاعة القطار ان يبدل من اتجاه المنعطفات ؟

لويس ـ نعم .

ارمان ـ ماذا يستطيع ان يصنع ؟انه مضطر للسير على القضبان .

لويس ـ انه يستطيع ذلك من ناحية خاصة .

ارمان ـ وما هي هذه الناحية الخاصة ؟

لويس ـ وأخيرا الا تريد ان تفهم عني ؟

ارمان ـ آه نعم .

لويس ـ قل لي ألم تشعر برغبة في ان تقود قطارا صغيرا مكشوفا في يوم من الايام ؟

ارمان ـ قطار صغير مكشوف ؟

لويس ـ نعم،انك تعرف تلك القطارات التي تسير على ارصفة المحطات الكبرى يقودها سائق يقف على دواسة العربة الاولى .

ارمان ـ آه،نعم، عرفت ولكني لا ارغب في ذلك فانا احب قيادة عربة مغلقة تضم سيدة جميلة .

لويس ـ الغريب ان لكل انسان مثلا اعلى .

ارمان ـ هذا شيء موكد . قل هل تسير قليلا ؟

لويس ـ انك تريد أن تقترب من تلك المرأة الشابة ؟

ارمان ـ كلا ، اذ لدي متسع من الوقت لكي أحدق بها في القطار .

لويس ـ ومع ذلك تود ان تتأكد اذا كانت جميلةعن قرب كما هي جميلة عن بعد.

ارمان ـ نعم ، فبعض الاحيان تحدث مفاجآت غير سارة .

لويس ـ انظر .الساعة الآن الثالثة وخمس دقائق ، وامامنا حوالي ثلاث وثلاثين دقيقة انتظار .

ارمان ـ انك ترى ان الوقت يمر بسرعة بمجرد وجود امرأة .

لويس ـ والملاحظ ايضاان الوقت مضى بسرعة لانناصرفنا الحديث في قضايا جدية .

ارمان ـ في اية ناحية ؟

لويس ـ في موضوع القطارات .

ارمان ـ هل تقصد موضوع الرموز ؟

لويس ـ نعم .

ارمان ـ انك تعلم ان المرأة رمز ايضاً .

لويس ـ انها رمز عظيم .

ارمان ـ وانت مخطىء ان لم تحسب الحديث عن النساء جداً كل الجد .

لويس ـ أنا لم أقل هذا .

ارمان ـ ولكنك الحت اليه ضمنا . اما انا فيداخلني الضجر في مجتمع يخلو من النساء ويتراءى لي انه مجتمع لا قيمة له ولا نفع فيه .

لويس ـ وهل تفضل أحاديثهن ؟

ارمان ـ كلا ، ولكن الحديث مع امرأة له مضاعفات ويفضي الى امور عاطفية حساسة .

لويس ـ انت على حق .

ارمان ـ فمثلا الحديث الذي سأجريه في القطار بعد قليل مع المرأة الشابة ربما كان له مابعده من النتائج السارة .

لويس ـ اتمنى لك التوفيق .

ارمان ـ نعم ،هذه المرأة الشابة تثير الاهتمام حقا. فهي تغري بالتقرب اليها .

لويس ـ الحق تقول واذا كنت راغبا في الانفراد بها والتحدث اليها فاني ادعك لوحدك واقوم بجولة .

ارمان ـ وهل تعتقد انها تثير اهتمامي ؟

لويس ـ انت خجول مع ذلك .

ارمان ـ كلا فالمرء مصيره الفشل منذ ان يظهر الاهتمام بالنساء وأنا أفضل التحدث الى الرجال .

لويس ـ انظر الى اللوحة هناك .

ارمان ـ هل تعني فرساي ؟

لويس ـ نعم انها شيء عجيب .

ارمان ـ أرى انها كبيرة جدا .

لويس ـ على التأكيد وكل شيء في موضعه يؤدي الغرض المقصود منه .

ارمان ـ أراها كبيرة رغم كل شيء ، انها كبيرة وسابقة لعصرها ، وتحتاج الى طائرة هيلكوبتر ليتنقل المرء فيها من قطعة الى قطعة .

لويس ـ وكيف يتم ذلك ؟

ارمان ـ من فوق الاسطحة .

لويس ـ الواقع انها كبيرة .

ارمان ـ انها تتعب المرء وهي اكبر من متجر كبير .

لويس ـ هذا صحيح من حيث المساحة .

ارمان ـ والمتاجر الكبرى متعبة ايضا مع انه لاتنقصها المصاعد .

لويس ـ فرساي تحتاج الى مصاعد ، ولكن على ان تكون ذات اتجاه افقي .

ارمان ـ ثم انك نسيت برج ايفل .

لويس ـ كيف ؟

ارمان ـ انا افضل برج ايفل على فرساي .

لويس ـ ولماذا ؟

ارمان ـ انه يمثل التقدم والنجاح ،ويشغل مساحة اقل، وهذا شيء يتجاوب مع عصره . والدليل على ذلك انه لايسبب للمرء ارهاقا .

لويس ـ بشرط ان تأخذ اليه المصعد .

ارمان ـ وأنت الم تركب المصعد متخلف عن عصرك لانك عندئذ تعود القهقرى في طيات الزمن .

لويس ـ ولكن يجب في اعتقادي التريث والانتظار قبل ان نتحدث عن برج ايفل.

ارمان ـ وما هو سبب التريث والانتظار ؟

لويس ـ اذ يجب ان نتأكد من ان البرج لن يسقط في يوم من الايام، انه يهتز.

ارمان ـ اين ؟

لويس ـ من اعلاه .

ارمان ـ هذا صحيح وخاصة عندما يعصف الهواء ، ولكنه قائم متماسك رغم كل شيء .

لويس ـ انا اعرف اشخاصا يرفضون السكنى في منطقة بجواره اذا كانت لاتبعد اكثر من (٣٠٠) م وذلك خوفا من ان ينهار البرج فوقهم .

أرمان ـ هناك دوماً كثير من الناس المتشككين المتشائمين .

لويس ـ ثم انه سهوي قطعة واحدة بسبب المسامير الضخمة التي تربط بين اجزائه .

ارمان ـ هذا جائز ، ولكن لا يمكنك ان تفهم هذه المسامير اذ بفضلها اصبح بالامكان اقامة برج ايفل .

لويس ـ اعلم ذلك، فالعجلة تحتم وجود الدولاب، والقطار يحتم وجود الخط الحديدي.

ارمان ـ هذا صحيح ،فبرج ايفل اذا خلا من المسامير يصبح فرساي وعندئذ ينبسط في الارض بدلا من ان ينهض الى الاعلى .

لويس ـ حقا ان قصر فرساي سابق لمصره . واني اذكر اني قرأت في احدى الصحف انه يمكن بنفقات قليلة تحويل قصر فرساي الى مصح كبير.

ارمان ـ هذا امر محتمل جداً .

لويس ـ انه باتجاه الريف ومعد اعدادا حسنا بما يحوي من الحدائق والاشجار والممرات ، وهذا يجعله صالحاً ليصبح مصحا جميلا .

ارمان ـ ولكن ربما كان الهواء فاسدا بعض الشيء لقرب القصر من باريس.

لويس ـ صحيح . ولكن هذا ينسجم مع قولك انه سابق لمصره .

ارمان ـ ثم هناك البحيرات التي تسبب كثيرا من الرطوبة .

لويس ـ وهذا صحيح ،ولكن انت تعلم ما أرمي اليه .

ارمان ـ ثم هناك الضجة الكبيرة التي يحدثها السياح.

لويس ـ ولكن لن يكون عندئذ سياح .

ارمان ـ وهذا شيء مربك اذ ان كثيرا من الناس بلغهم حديث القصر وخاصة في خارج البلاد .

لويس ـ هذا صحيح ، ولكن انت تدرك ماذا اقصد بقولي هذا .

ارمان ـ ثم ان العادة قد جرت بأن ينظر الى القصر كما هو ، انه فرساي. انظر هذا قطار .

(يمر قطار – ضجيج واهتزاز)

وهذا قطار آخر لا يقف .

لويس – كلا ولكنه يسير مع ذلك بسرعة أقل من سرعة القطار الاول .

ارمان – ويجب ان يكون قطارا سريعا .

لويس – على التأكيد ، فهو لم يحدث اهتزازا في زجاج النوافذ .

ارمان – ولكنه احدث رجفة للمرأة الشابة ، فهي لم تلحظ قدومه اول الامر وهذا ما أذهلها . امرأة في المحطة ، يالها من مغامرة .

لويس – الظاهر انك لست على خطأ .

ارمان – كلام جميل . الحق ان المرأة رائعة وخاصة عندما تصبح مبعث الاثارة ، وانا استطيع ان اذهب حتى نهاية العالم مع امرأة تعرف ، بطريقة او اخرى ، ان تبعث الاثارة في النفس .

لويس – ولكنك ستظل دوما كما انت .

ارمان – باستطاعة كل النساء على وجه التقريب ان يكن مثيرات شريطة ان تحسن معاملتهن .

لويس – آه .

ارمان – ثم خير لك ان تجعل النساء يغرقن في التأمل من ان تتركهن جامدات ، ليس فيهن حياة ولا اثارة .

لويس – اني لاتساءل هل حقا ان برج ايفل يتجاوب مع عصره .

ارمان – لماذا ؟

لويس – بسبب الطيران .

ارمان – ثم ماذا ؟

لويس – ماذا ؟ انه عال جدا ، فهو يضايق سير الطيران . ويحتاج في الليل الى كثير من الكاشفات الدوارة وهذا يكلف غاليا . فهو لذلك متأخر عن عصره .

ارمان ـ وانت تعلم ، ان المرأة انما خلقت لتعاني الالم ، فاذا لم تأخذ في هذه المعاناة فهي غير موجودة .

لويس ـ آه ، انظر ، الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة عشرة ، لم يبق الا خمس وعشرون دقيقة انتظار . الوقت يمر بيسر عجيب .

ارمان ـ وهذا صحيح حتى من الناحية الجسمية ،انظر كيف ان المرأة تبدو رائعة عندما تكون ثيابها مثيرة عندما تصالب ساقيها ، عندما تترك جزءا من قدمها يخرج من الحذاء اوتكشف صدرها أكثر من المعتاد وانا لا اتحدث عن العري ، فالملابس اكثر اثارة .

لويس ـ هل لاحظت ان ساعات الحائط في المحطات لاتدق ؟

ارمان ـ كلا .

لويس ـ ومع ذلك فالامر صحيح . وهذا رمز ايضا فكل ضجة في محطة هي رمز حتى تلك التي لم توجد بعد .

ارمان ـ على ان هناك سرامن الاسرار .

لويس ـ نعم

ارمان ـ بماذا تفسر ، مثلا ، انه لايوجد مشاهد في الملاهي لاثارة النساء .

لويس ـ آه . حسناً انك .. ان .. الواقع انني لا اعلم .

ارمان ـ انك لاتستطيع ان تذكر لي ملاهي ، كالفولي برجير ، حيث تذهب النساء لرؤية الرجال عراة .

لويس ـ كلا .

ارمان ـ اذن هذاموضوع يثير مشكلة .

لويس ـ على التأكيد .

ارمان ـ صحيح ان المرأة تجد الرجل الذي ترغب فيه .

لويس ـ نعم .

ارمان ـ ولكن لاتنسى الحواجز .

لويس ـ اية حواجز ؟

ارمان ـ التقاليد .

لويس ـ يمكن التستر في هذه الحال .

ارمان ـ صحيح، ولكن انتبه، هناك الذين يخشون الله فهو يراهم مهما تستروا، والا ماذا تفسر حالة تلك المرأة العجوز التي تحدثت عنها الصحف هذا الاسبوع .

لويس ـ اية امرأة ؟

ارمان ـ كانت في البادية ، وفجأة فتح باب .

لويس ـ ثم ، ماذا ؟

ارمان ـ رأت جماعة من الشباب عراة، عراة حقاً، ولكن ليسوا كفتيات الملاهي .

لويس ـ هذا شيء غريب ، وماذا صنعت ؟

ارمان ـ اغمي عليها .

لويس ـ يالمسكينة !

ارمان ـ هل ادركت الآن ان هناك مشكلة ؟

لويس ـ على التأكيد .

ارمان ـ هناك حواجز تمنع بعض النساء من معاناة مايجب ان يعانينه .

لويس ـ يجب ازالة هذه الحواجز .

ارمان ـ ولكن هذه قضية اجتماعية .

لويس ـ نعم . ثم انظر الى ساعة المحطة فهي صامتة .

ارمان ـ لقد سبق لك أن أبديت لي هذه الملاحظة .

لويس ـ ظننت أنك لم تلتفت اليها .

ارمان ـ كلا .

لويس ـ فهي على النقيض تماماً من الساعة الناطقة التي لاتكف عن الدق والنطق.

ارمان ـ وهذا شبيه بما في الحياة: بعض الناس كالساعة الأولى والبعض الآخر كالثانية.

لويس ـ أعرف شخصاً يتمثل الجحيم في أن يحكم عليه بالاستماع دوماً الى ساعة ناطقة.

ارمان ـ هذا جائز، فالأمر يتعلق بالمزاج اذ يمكن لآخر أن يقول لك ان الجحيم يتمثل له في أن يكره على الاستماع دوما الى صوت ناعورة تمتلىء بالماء ثم تفرغه، وهذا شيء أكثر فظاعة، ثم هناك الرطوبة أيضاً.

لويس ـ هذا صحيح.

ارمان ـ لو لم يكن القطار متأخراً لكنت سافرت منذ مدة.

لويس ـ نعم فنحن هنا ننتظر منذ ثلاثين دقيقة.

ارمان ـ وتكون أنت قريباً جداً من بيتك.

لويس ـ تقريباً.

ارمان ـ لقد أمضيت يومين جميلين.

لويس ـ ارجو ألا يكون قد أصابك الضجر.

ارمان ـ اتريد المزاح؟ امرأتك رائعة.

لويس ـ وهي لطيفة، اليس كذلك؟

ارمان ـ لقد أدرنا احاديث ممتعة.

لويس ـ ارجو ان تكون بريئة.

ارمان ـ آه. كلا، ان نساء الاصدقاء مقدسات.

لويس ـ اقول ذلك على سبيل المزاح.

ارمان ـ ثم اني اجد خيراً كثيراً في معرفة نساء يمكن التحدث اليهن دون التفكير بالجنس، هذه لذة وتفوق لذة التحدث الى الرجال.

لويس ـ لذلك يجب ان يختار الرجل للزواج امرأة تتقن فن الحديث حتى يستطاع تمضية الوقت معها بعد القيام بالواجبات الزوجية.

ارمان ـ انا اجد العكس هو الافضل. يجب الزواج بامرأة من اجل الواجبات الزوجية والبحث عن متعة الحديث عند نساء اخريات.

لويس ـ هل تعتقد ذلك ؟

ارمان ـ نعم ، فالمرأة لا يسيئها ان تذهب احياناً لتتحدث الى امرأة اخرى . اما اذا ذهبت تتلمس شيئاً آخر .

لويس ـ ولكن ستجد اخريات يقلن أنا لا اصلح اذن الا للفراش .

ارمان ـ المثاليات نادرات جداً .

لويس ـ وانت ان تزوجت هل تنشد في امرأتك الناحية الجنسية اولا ؟

ارمان ـ نعم شريطة أن تكون المرأة جميلة جداً ، وفي هذه الحالة سيكون وقت الحديث محدوداً .

لويس ـ وهل ستكون مخلصاً لزوجتك . في فضول شديد لمعرفة ذلك .

ارمان ـ وهل انت مخلص لزوجتك ؟

لويس ـ نعم ، فأنا اشعر أني مضطر لذلك اضطراراً لأن امرأتي لاقت صعوبات حتى استطاعت ادخالي في اسرتها .

ارمان ـ هذا صحيح .

لويس ـ ثم ان محاولتي العبث تعطي حماتي حججاً اذ ستقول لامرأتي : « أرأيت لو تزوجت دركياً لكان خيراً لك » .

ارمان ـ اذاً انت تقوم بمحاولات بعض الاحيان .

لويس ـ انت تعرف واقع الامر . نحن الرجال حساسون بالنسبة للجمال .

ارمان ـ وهل تنجح ؟

لويس ـ نعم .

ارمان ـ وهل تغار امرأتك ؟

لويس ـ هذا امر طبيعي بعد الجهود التي بذلتها حتى اصبحت فرداً من العائلة .

ارمان ـ هل ترى ذلك ؟

لويس ـ نعم ، اني اضع نفسي مكانها فهي دوماً وجهاً لوجه امام امها .

ارمان ـ مجتمعنا أقيم على اسس فاسدة . يجب اباحة تعدد الزوجات .

لويس ـ يكفي ثنائية الزوجة .

ارمان ـ ربما يداخل زوجتك القلق بسبب تأخرك في العودة الى المنزل .

لويس ـ اوه كلا . فهي تعرف اين انا الآن . انها تقلق في المساء بعد الخروج من المكتب. نعم، انت تعلم ماذا يجري في مكاتب باريس . فالمرء يعيش في اكثر الاحيان مع نساء جميلات فاذا اريد التمادي في العلاقات فالشيء الطبيعي ان يكون ذلك بعد الانصراف من العمل .

ارمان ـ اعلم ذلك هذه عادة شعبية : المواعيد بين الخامسة والسابعة .

لويس ـ ولذلك فان زوجتي تراقب موعد عودتي وتأتي بعض الاحيان تنتظرني عند الانصراف .

ارمان ـ وهذا من اخلاق المكتب ، انه شيء اجتماعي ايضاً .

لويس ـ نعم .

ارمان ـ ويبدو الامر في منتهى الغرابة عندما يفكر فيه الانسان فكثير من النـــاس يقضون مع زملائهم في المكتب وقتاً اكثر مما يقضونه مع عائلاتهم . فكر في شخص له صديقة بين اللواتي يعمل معهن في المكتب .

لويس ـ نعم .

ارمان ـ فهما يقضيان الصباح معاً . يتنامزان ، يضغطان بالايدي عند تبادل الملفات ويتبادلان القبلات في الزوايا ما استطاعا الى ذلك سبيلاً .

لويس ـ هذا تعبير مضحك : تبادل القبلات في الزوايا، فهو يعني ايضاً ، في زوايا الغرفة كما يعني في زوايا الأنف والفم والاذنين والعنق والصدر .

ارمان ـ انه تعبير له معنيان .

لويس ـ وهو يتصل بالحب .

ارمان ـ نعم ، كل ما له معنيان يمت الى الحب . ثم انهما يتناولان الطعام معاً في الظهيرة ،وبعد ذلك يقومان بنزهة المشاق في حديقة عامة ، او يتناولان شيئاً في مقهى اذا كان الطقس رديئاً .

لويس ـ ماتقوله هو الحق .

ارمان ـ ويستأنفان بعد الظهر هذه المغازلات . وفي الساعة الخامسة يخرجان معاً ايضاً ، وبهذه الطريقة يمكن للحب ان يدوم طويلا . فلا هموم ولا مشاكل مادية او عائلية . والوقت الذي يقضيانه في منزلها فانهما يقضيانه في النوم .

لويس ـ انت على حق تماماً .

ارمان ـ وهذا يفسر لنـــا نظرة بعض الازواج الشرعيين الى يوم الاحد فهو بالنسبة لهم اسوأ أيام الاسبوع .

لويس ـ وسبب كل ذلك هندسة البناء .

ارمان ـ انا لا أتبين تماماً ماتقصد من قولك هذا .

لويس ـ لو ان باريس ارتفعت نحو الأعلى بدلا من ان تنبسط ابنيتها لكان في مقدور الناس ان يعودوا ظهراً الى بيوتهم لتناول الغداء .

ارمان ـ خذ ، لقد وجدت شيئاً .

لويس ـ ماهذا ؟

ارمان ـ دبوس .

لويس ـ آه ،نعم، لا أدري اذا كنت انت ايضاً قد لاحظت،فهناك شيء لا يمكن العثور عليه .

ارمان ـ ما هو .

لويس ـ حوالة قديمة .

ارمان ـ آه !

لويس ـ اذ يمكنك العثور على حوالة لم تصرف . ولكن لايمكن ابداً العثور على حوالة مستعملة .

ارمان ـ وعلى أي شيء يدل هذا ؟

لويس ـ يدل على أن الدائرة التي يدور فيها المال دائرة مغلقة تماماً .

ارمان ـ آه هذا جائز . انظر،الساعة الآن الثالثة وأربع وعشرون دقيقة ، بقي لنا اربع عشرة دقيقة انتظار .

لويس ـ واخيراً بدأ الوقت يمضي بسرعة .

ارمان ـ نعم .

لويس ـ امر غريب ان يشعر المرء باضطراره ليجري الحديث في محطة، اذ لايمكن ان يجري في منزلي حديث دسم كهذا في مثل هذه البرهة القصيرة من الزمن.

ارمان ـ هذا اكيد ، ولعل مرد ذلك الى جو المحطات .

لويس ـ وهذا سر ايضاً من اسرار طرق المواصلات (يدق الجرس) آه ، انه يعلن عن قدوم قطارك .

ارمان ـ هل تعتقد ذلك ؟

لويس ـ نعم ، نعم، انهم يعلنون دوما عن القطارات قبل وصولها بثماني دقائق أو تسع.

ارمان ـ مصلحة الخطوط الحديدية ادارة منظمة .

لويس ـ نعم .

ارمان ـ يحدث بعض التأخر ولكن ذلك يجعل القطارات اكثر انسانية .

لويس ـ ثم انه لاشيء يثير الدهشة اذا تأخر بين وقت وآخر ، سائق القطار ، او المفتش ، او احد عمال المحطة ،وسبب ذلك تأخير القطار .

ارمان ـ وهذا التأخير يحدث دوماً في المكاتب.

لويس ـ ولكنه لايلاحظ هناك،فالمكاتب تبقى في مكانها، آه لو انها كانت مضطرة للتنقل في مواعيد محدودة .

ارمان ـ وعندها تدخل في حالة الخطوط الحديدية .

لويس ـ والذي يعجبني كثيراً في الخطوط الحديدية لون الارصفة. انه ليس بلون الارض العادي هذا اللون الوردي .

ارمان ـ والحدائق الصغيرة في المحطات جميلة ايضاً .

لويس ـ نعم ان عبيق الشعر يفوح في المحطة .

ارمان ـ نعم ،العصافير تأتي دوما الى المحطة في الوقت المناسب ،تلتقط الفتات التي يلقيها الناس من نوافذ العربات ،وهي تطير بمجرد وصول القطار، وفي الجهة المناسبة ، اني اجدها رائعة جداً ؟

لويس ـ نعم.

ارمان ـ اتدري بما تذكرني هذه العصافير .

لويس ـ كلا.

ارمان ـ تذكرني بالعصافير التي تأتي لتنظيف أسنان التماسيح .

لويس ـ آه هذا شيء جميل .

ارمان ـ هاهي مخلوقات صغيرة ،وهي شجاعة ايضاً .

لويس ـ أرى ذلك جيداً . واللاحظ كما اعتقد أن التماسيح تسمح لها بالوقوف لان لها نفعاً ، وهذا يخفف الخطر بالنسبة للعصافير .

ارمان ـ هذا مفهوم ، ولكنك تعرف نفسية الكبار فان مجرد شهقة أو تثاؤب تكفي للقضاء على العصفور ، وهناك أيضاً ضعف الذاكرة ، فقد تنسى التماسيح أنها ترد معروفاً للعصافير فتحسبها شيئاً آخر وعندئذ على العصفور السلام .

لويس ـ هذا شيء مؤكد .

ارمان ـ وأنت تعلم أن هذه العصافير ذكية جداً . لها ذاكرة عجيبة تعرف بها موعد وصول القطار .

لويس ـ هذا جائز جداً ، للحيوانات ذاكرة قوية .

ارمان ـ والملاحظ أن هناك أشخاصاً يملكون ذاكرة عجيبة . فقد خطر لي منذ مدة حادثة غريبة ،جرت الحادثة في برلين زمن الاحتلال . فقد أخطأ جنديان طوح بهما السكر منزلهما وأيقظا السكان في منتصف الليل ودخلا المنزل وفجأة قفز أحدهما على ساعة الجدار في غرفة الطعام وهو يصيح : « آه يالأولئك القذرين ، هذه ساعة جدتي ، لقد سرقوها سنة ١٩١٤ » وخرج يحملها وهو يهدر كالمجنون .

لويس ـ وهل هي حقاً ساعة جدته ؟

ارمان ـ آه ،كلا لا أظن ذلك وعلى كل حال فقد كان صغيراً جداً حتى يستطيع التعرف عليها ،والغريب انه فكر فيها بعد ثلاثين سنة وفي مثل هذه الحالة.

لويس ـ انظر هذه النحلة ،يالها من دقة رائعة في الشكل ،وهي حيوان يملك حساً عمليا أيضا .

ارمان ـ نعم ، لقد تعرفت الى امرأة كنت ادعوها : نحلتي .

لويس ـ لماذا ؟ هل كانت تخزك ؟

ارمان ـ كلا ، كانت تمسني مساً خفيفاً .

لويس ـ ماذا تقصد بقولك هذا ؟

ارمان ـ امرأة لها مظهر من يدور حولك دوماً حتى ولو كانت على بعد منك ، وكأنها تحاول الجني .

لويس ـ آه ،فهمت قل لي أنها تحسبك زهرة ؟

ارمان ـ هناك أشخاص محظوظون رغم كل شيء . انظر هذا الرجل الذي وصل الآن فسوف لا يفوته القطار .

لويس ـ وهذا يعني ان الاصرار يلاقي بعض الاحيان مايستحق من مكافأة .

ارمان ـ تريد أن تقول العناد ، أنا أجد ان التأخر ثم اللحاق بالقطار شيء ينافي الذوق ، أنا لا أحب كل ملحاح عنيد .

لويس ـ ومن جهة أخرى اذا أفرطت في الرصانة فستكون ضحية لا يشعر بك أحد .

ارمان ـ ثم انظر الى سيمائه كيف تجد أن هذا أمر طبيعي . هنـاك أناس تظهر عليهم سيماء الشكر .

لويس ـ ومن يشكرون ؟

ارمان ـ لا يشكرون أحداً . ولكن ترى على وجوههم بسمة الشكر .

لويس ـ اتفقنا اذاً .

ارمان ـ تصور لو ان تلك المرأة الشابة وصلت متأخرة فالامر سيكون في غاية الروعة ، انها ستكون مرحة بادية النشاط طوال الرحلة من الناحيـة النفسية والجسمية . وفجأة تأخذ في التمدد والارتخاء ، وترتسم على وجهها ابتسامة جميلة ، ثم تصلح من شعرهـا وتتنفس الصعداء . يا له من مشهد رائع .

لويس ـ الظاهر انك على حق .

ارمان ـ وفي تلك الحالة (بين قوسين) يصبح امر مغازلتها لعباً من لعب الاطفال ، ذلك لا ادري اذا كنت لاحظت كم من السهل الدخول في حديث مع المرأة التي يبدو عليها النشاط .

لويس ـ آه ، نعم .

ارمان ـ والمرأة تعرف ذلك جيداً . من اجل ذلك ترى في الشارع كثيراً من النساء لا تحمل وجوههن اي تعبير ، فهن يخشين ان يفيد الرجال من ذلك ويحاولون التعرف اليهن .

لويس ـ ملاحظتك هذه تحمل كل الحقيقة والحكمة .

ارمان ـ ثم انه لامر مربك عسير على المرأة ان تصحب معها كلباً . فهو دوماً سبب الاثارة . فالحيوان يأخذ في شم مالا يجب شمه ، يقف حيث لايجب الوقوف ويسير في عرض الطريق ، وعندها تخرج المرأة عن رزانتها وجمودها ويدب فيها النشاط فتتهيأ للرجل سبل التحدث اليها .

لويس ـ انك شديد الملاحظة .

ارمان ـ والذي يعزيني ان ذلك الرجل يتصبب عرقا .

لويس ـ والملاحظة أن التعرق ليس بالامر السيء ، انه يطرد السموم فالحياة قد صنعت صنعا حسنا . وانت ترى ان الاغنياء يستطيعون ان يمدوا بحياتهم لو انهم تعرقوا اكثر مما يتعرقون .

ارمان ـ هذا صحيح . ولكن المصيبة ان التعرق يطيل حياة الذين لايهمهم ان تطول حياتهم .

لويس ـ اوه ، قل لي ، هناك رمز في المحطات نسيناه مع انه رمز مشهور .

ارمان ـ وماهو ؟

لويس ـ موظف المصابيح ، نعم ، لقد نسيناه ، ذلك الذي يعنى بالمصابيح مع انه رمز مشهور .

ارمان ـ أنه رمز قومي .

لويس ـ وربما كان رمزاً عالميا .

ارمان ـ هذا ممكن جداً .

لويس ـ لماذا خصصت موظف المصابيح بالرمز دون الموظف الذي يثقب البطاقات مثلا

ارمان ـ انه اجمل . ثم ان النور يجذب دوما .

لويس ـ نعم .

ارمان ـ والواقع ان موظف المصابيح ، على النطاق الاجتماعي ، هو الذي يحمل الشموع .

لويس ـ تقريبا .

ارمان ـ والملاحظ ان هناك تقدما مع ذلك ، فخير المرء ان يحمل الشموع من ان يكون عبدا .

لويس ـ نعم ،فمن حسن الحظ ان هناك تقدما ،ذلك ان بعض الناس يجري حس التقدم في دمائهم ،يحبون التقدم حباجما، وفي معملنا رجل تقدمي .

ارمان ـ آه !

لويس ـ انه يملك فكرا تقدميا ، ففي العمل عامل ثقيل السمع وآخر ضعيف النظر .

ارمان ـ نعم .

لويس ـ وهما يعملان معا فأحدهما يملي والآخر ينسخ . وكان الذي لا يرى جيداً هو الذي يملي على قليل السمع كانت تحدث عندئذ مشاجرات وتكثر الاخطاء. ثم طرأت فكرة للرئيس التقدمي بأن يعكس الامر ، وكان من العسير اقناعهما بالقبول . لان كلا منهما قد الف عمله ، ولكن اخيراً توصلا للقبول ، والآن تسير الامور على خير وجه . فشبه الاصم يملي والذي لا يرى جيداً يكتب .

ارمان ـ ولكن اين التقدم ؟

لويس ـ حسنا ، فليس على شبه الاصم من حرج عندما يملي سوى انه ربما تحدث بصوت عال وهذا كل شيء . اما الذي لا يرى جيداً فيستطيع ان يرى مايكفي لنسخ مايملى عليه وهذا تقدم رائع عظيم .

ارمان ـ ماتقوله هو الحق .

لويس ـ هل ترى كيف اننا انتقلنا بصورة آلية الى الأحاديث الجدية .

ارمان ـ آه ،انظر الى الساعة لقد تجاوزت الدقيقة الثانية والثلاثين ولم يبق الاست دقائق انتظار .

لويس ـ نعم ،ومن جهة اخرى فاننا نكاد نحس قرب السفر . فالمحطة تشعر ايضا بقدوم القطار .

ارمان ـ بواسطة الاهتزاز .

لويس ـ نعم ، وهذا شيء غريزي بالنسبة اليها .

ارمان ـ ربما .

لويس ـ هاهو قطارك على ما اعتقد .

ارمان ـ تريد ان تمزح ؟

لويس ـ كلا هو واجزم انه هو .

ارمان ـ اين هو ؟

لويس ـ هناك في نهاية الخط على اليمين .

ارمان ـ لا ارى شيئا .

لويس ـ بلى ، بلى ، نقطة سوداء كبيرة فوقها سحابة بيضاء .

ارمان ـ الدخان ؟

لويس ـ نعم .

ارمان ـ ولكن القطار يكون عندئذ قد تقدم عن موعد تأخره .

لويس ـ كلا ، خط اليمين طويل يستغرق اجتيازه دقيقة كاملة .

ارمان ـ صدقنا ، ولكن بقي هناك اربع دقائق أخرى .

لويس ـ لقد نسيت أن القطار يمضي دقيقتين في المحطة .

ارمان ـ أرى أنه قادم حقاً .

لويس ـ وهذا يذكرني بالمسائل التي كانت تطرح علينا في المدرسة ، قطار يقطع (٥٥) كيلو مترا بـ (٥٥) دقيقة فكم يقطع في الساعة ؟

ارمان ـ ستين كيلو متراً .

لويس ـ آه !ولكن مازلت تذكر ذلك،ثم كم يحتاج من الزمن ليقطع كيلو مترا واحدا.

ارمان ـ دقيقة واحدة .

لويس ـ أرأيت الى هذا التوافق ؟

ارمان ـ والآن اصبح يرى بسهولة ،ولكن ربما كان قطاراً آخر .

لويس ـ لا أظن .

ارمان ـ أوأنه قاطرة بمفردها.

لويس ـ كلا ، الا ترى ان جميع الناس قد انتصبوا واقفين على الرصيف .

ارمان ـ هذا لا يدل على شيء . ان الناس يأملون عبثاً في أكثر الاحيان .

لويس ـ سنراه يخفف من سرعته .

ارمان ـ آه يجب ان اقترب من المرأة الشابة .

لويس ـ الا ترى انه أبطأ في سيره.

ارمان ـ حقاً ،تمال من هنا .

لويس ـ نعم (يدخل القطار المحطة) اوه أنظر ان قاطرتك لجميلة .

ارمان ـ نعم ان لها طابعاً جديا . واخيراً سأقول لك ياصديقي الى الملتقى .

لويس ـ نعم

ارمان ـ سنلتقي مرة أخرى في باريس بعد العطلة .

لويس ـ سترسل لنا كلمة وستخبرني اذا كان حديثك مع المرأة الشابة قد أدى الى نتائج سارة (يقف القطار) هيا اصعد الى القطار .

ارمان ـ وعلى كل حال انها امرأة وحيدة وليست زوجة سائق قطار .

لويس ـ اني اقدم كل احترام وتقدير لذكائك وفطنتك .

ارمان ـ الى الملتقى (يصعد الى القطار).

لويس ـ الى الملتقى ، الدرجات عالية .

ارمان ـ ستعود الآن الى منزلك لتدخل على امرأتك الهدوء والطمأنينة .

لويس ـ كلا ، سأنتظر حتى ينطلق القطار . انت تعلم انه بعد هذا الانتظار الطويل يمكن حتماً ان انتظر دقيقة اخرى .

ارمان ـ على التأكيد .

لويس ـ ثم اني لا أشعر انني رافقت شخصاً لوداعه اذا لم أره يذهب أمامي .

ارمان ـ نعم لينتفي الشك في احتمال المودة.

لويس ـ لم أقصد الى هذا أبداً .

ارمان ـ يمكن ان ينسى الانسان شيئاً فيذكره في اللحظـــة الاخيرة ويعود ليبحث عنه .

لويس ـ ألم تنس شيئاً ؟

ارمان ـ كلا على حد علمي .

لويس ـ وعلى كل حال فانه لن يضيع ، سنحفظه لك ، ألديك مفاتيحك ؟

ارمان ـ نعم .

لويس ـ حقاً ، اني أحب كثيراً أن ارى الاشخاص الذين أرافقهم يسافرون أمامي ، وأبقى حتى يغيب القطار عن الأنظار .

ارمان ـ أنت خيالي عاطفي ، ثم بلغ امرأتك شكري على لطفها وحسن وفادتها.

لويس ـ هل ترى ذلك ؟

ارمان ـ وشكري لك أيضاً بهذه المناسبة .

لويس ـ انك لتمزح .

ارمان ـ كلا .

لويس ـ وشكراً لك أيضاً من أجل النبيذ المعتق الذي قدمته لنا ، لقـــد كان نبيذاً فاخراً .

ارمان ـ لم يكن شيئاً يذكر فهم يأتون به الى العمل في البراميل ، ونحن نفرغه في الزجاجات .

لويس ـ هذا لايغير شيئاً من قصدك الحسن .

(يصفر القطار)

ارمان ـ آه ! والآن حان الموعد .

لويس ـ نعم على ما اظن .

ارمان ـ أجل ، لقد حان الموعد .

لويس ـ كل شيء على مايرام ياصديقي .

ارمان ـ نعم ، كل شيء على مايرام ، ها قد سار القطار .

(يتحرك القطار)

لويس ـ هل نظرت الى الساعة ؟

ارمان ـ نعم

لويس ـ الساعة الثالثة و (٣٨) دقيقة على الضبط .

ارمان ـ ثلاثون دقيقة تأخير التي أعلن عنها .

لويس ـ من النادر ان ترى قطاراً يصل في موعد تأخره .

ارمان ـ نعم .

لويس ـ الى الملتقى ياصديقي ،

ارمان ـ الى الملتقى .

لويس ـ سفراً سعيداً .

ارمان ـ شكراً .

لويس ـ تمتع جيداً .

ارمان ـ وأنت ايضاً

لويس ـ أوه ! انت تعلم !

ـ انتهى ـ

الكتاب والموضوعات

- الفن معرفة

للدكتور سامي الدروبي

- الموسيقى العربية

وأصدقاؤها الحقيقيون

نجاة قصاب حسن



الفن

الفن معرفة

للدكتور : سامي الدروبي

العلم والفن ينشدان كلاهما المعرفة . ولكن معرفة العلم تختلف عن معرفة الفن . فالعلم علم بالكليات ، والفن ادراك لمفردات .

وقد نتوهم أن الفرق بين العلم والفن هو أن المعرفة العلمية تنفذ الى باطن الشيء ولا تكتفي بظاهره ، في حين أن معرفة الفن تقف من الشيء على سطحه دون أن تغوص الى اعماقه ، قائلين ان العالم الذي ينظر الى تفاحة ، يمضي الى ما وراء الشكل منها والالوان ، يمضي الى المادة التي تتألف منها ، فيحللها ويطلع على قوانين اجتماع بعضها الى بعض ، في حين ان الفنان لا يعرف من هذه التفاحة الا شكلها والوانها . فهذا ما ذهب اليه بعض الباحثين . يرى فكتور باش أن التأمل الفني إن كان وقفة على الشيء وتلبثا عنده ، فهو يختلف عن الوقفة التي يقفها العالم ، لانه وقفة على ظاهر الشيء دون النفاذ الى داخله ، هو وقفة على المظهر، على الصورة على الشكل دون البنيان الداخلي . (١) والذين يقررون هذا الرأي يريدون أن

(١) باش ، أم المسائل « في علم الجمال » ، في كتابه « دراسات في علم الجمال والفلسفة والادب » ص ٤٥ ـ ٤٧

يخرجوا الفن من نطاق معرفة الواقع . والحق أن نظرتهم الى الواقع تنقص الواقع وتحذف منه . فكأنهم لا يعدون الاشكال والالوان جزءاً من الواقع ، وانما يرون أنها شيء مضاف اليه ، ملحق به ، كأنهم يرون أن طول الموجة هو الواقع من امر اللون ، اما صفته اللونية فليست من واقعه . ولكن اللون والشكل جزء من الواقع قد لا يكون اقل اجزائه خطورة شأن ، لا من حيث الفائدة التي تجنى منه طبعاً ، بل من حيث المعنى الذي يدل عليه ويشف عنه . فاذا رددنا اللون والشكل الى حلبة الواقع ، ارجعنا الفن الى نطاق المعرفة .

فالفن معرفة . وهو بمعنى من المعـــاني اكمل من معرفة العلم لانه لا يلغي المعرفة العلمية ، بل يمتصها ، ثم يضيف اليها ما استبعدته . واذا كانت المعرفة العلمية تقصر هذا النوع من التقصير عن ادراك الواقع كما هو ، فلانها تبحث في الاشياء عن الصفات المشتركة التي بينها ، فتصنف هذه الاشياء في انواع ، ولا تنظر الى كل شيء ، على حـــدة ، في ذاته ، وانما تتكىء عليه من اجل الوصول الى القانون العام لتسخيره بعد ذلك فيما يفيد .

والمعرفة العادية اخت المعرفة العلمية في هذا ، من حيث ان العمل أمهما كلتيها . اننا في حياتنا اليومية لا ندرك الاشياء في اصالتها وتفردها ، بل فيما هي متشابهة فيه ، بغية التعرف عليها وتسميتها والتلاؤم معها ، ونحن بذلك نسدل على واقعها الفردي ستاراً . ولا كذلك الفنان فهو يرى الشيء في ذاته ولذاته ، لا يحول بينه وبين النقاب الذي اسدله على الشيء ميل في العقل الانساني الى رؤية العناصر المتشابهة في الاشياء من اجل تسخيرها . وهو بعد أن يرى هذا الشيء ، يعبر عنه في اثره الفني ، ومن خلال هذا الاثر الفني انما نرى نحن ذلك الشيء سافراً غير محجوب .

ولكن ما الذي يراه الفنان ؟

هل الفنان هو ذلك الذي ينظر الى الشيء المفرد في ذاته ولذاته لا يزيد على أن يرى شكله والوانه وخطوطه كما تبدو للناظر العادي حين يتفرس هذا الشيء وينعم النظر فيه ، ويتوقف على كل جزء من اجزائه حريصاً على ان لا يفوته أي واحد منها ، فلا يدع تفصيلا من تفاصيله الا ويسجله ؟ هل الذي يراه الفنان ويزيح الستار عنه هو ما تراه عدسة ممتازة من عدسات آلات التصوير ، عدسة مثالية ، تنقل الشيء الذي تجتازها اشعته الى الورق الحساس نقلا يبلغ غاية الامانة ، فاذا بصورة هذا الشيء تنطبع على هذا الورق الحساس . (لنفرض انه حساس حساسية مثالية) تماماً كما يبدو للعين العادية اذ تنظر فيه ملياً وتتأمله طويلاً ! الحق ان الصورة الفوتوغرافية الامينة التي التقطت للشيء والتي تفرغ من تحقيق كمال ما تهدف اليه حين تمثل لك هذا الشيء كأنك تراه ماثلا امامك ، انما تردك الى هذا الشيء نفسه ، فان أنت نظرت الى هذه الصورة « الكاملة » بعينك ، عين الانسان العادي ، لم تر فيها غير ما كنت تراه في الشيء ذاته ، وان أنت نظرت اليها بعين الفنان رأيت فيها ما استطعت أن تراه في الشيء ذاتـــه بادراكك الفني . وهكذا فان الصورة الفوتوغرافية لا تكون قد خطت بنا أية خطوة في العملية الفنية ، ويكون علينا أن نبدأ هذه العملية من اول طريقها ، أعني الادراك الفني أولا ثم التعبير عن المدرك ثانياً بحيث يزاح عنه الحجاب . كذلك يكون شأن الرسام (وهو لا وجود له) الذي ينقل اليك الشيء في تفاصيله كما قد يبدو للعين العادية حين تنعم النظر لتلاحظه جزءاً جزءاً ، ذلك أن المصور ، رغم أنه قد يكون قد تلبث على الشيء ، لم يستطع أن ينفذ اليـه ، وانما ظل يرمقه من خارج ، شأنه شأن الفوتوغراف . إنه يعوزه التواصل مع هذا الشيء ، يعوزه التجاوب الذي اذا اقبل به عليه . أفضى اليه بسره وسمح له ان ينفذ الى صميمه ويشاركه حياته ، أتاح له أن يعرف معناه . ومن هنا قال ليوناردو

دافنشي: «ليس فن المصور أن يتناول جزءاً جزءاً من اجزاء الموديل لينقله الى قماشه، وليمثل بهذه الاجزاء واحدة واحدة مادية الموديل. ولا هو كذلك رسم نموذج مجرد غير شخصي يصير فيه الموديل الذي يُرى ويلمس الى شيء نظري غامض. وانما الفن الحق يرمي الى تصوير فردية الموديل، وهو من أجل هذا يبحث، وراء الخطوط التي ترى، عن الحركة التي لا تراها العين، ووراء هذه الحركة نفسها عن شيء أخفى منها أيضاً، عن النية الاصلية، عن الصبوة الاساسية التي تربض في الشخص وهو معنى بسيط يعادل كل الفن اللا متناهي الذي للاشكال والألوان». ومن هنا كان رودان يشتكي مر الشكوى من أن «زبائن» الفنانين الكبار الذين يكلفون الرسام العظيم بتصويرهم أو يكلفون المثال العظيم بصنع تمثال لهم ينكرون الوجه أو التمثال ولا يرون بينه وبينهم شبهاً، في حين أن ما يصنعه لهم من ذلك صغار الرسامين أو المثالين المتاجرين يرضيهم ويعجبهم. ذلك أن الفنان الكبير لا ينتبه الى الظاهر مستقلاً عن الباطن، بل ينفذ من خلال الظاهر الى الباطن، والمرء يجهل نفسه التي اكتشفها الفنان الكبير وعبر عنها، أو هو يريد ان يجهلها على شعور منه بذلك أو على غير شعور. فنحن لا نعلم من أمر أنفسنا ما قد يعلمه فنان نفذ اليها.

قال رودان: «... ليست الخطوط والالوان بالنسبة الينا إلا علامات حقائق مختبئة. إن نظرنا تنا تغوص الى الروح الكامنة وراء السطوح ونحن حين نرسم السطوح بعد ذلك نغنيها بالمضمون الروحي الذي تشتمل عليه. ينبغي للفنان الجدير باسم الفنان أن يعبر عن كل حقيقة الطبيعة، لا حقيقة الظاهر فحسب. بل حقيقة الباطن أيضاً وخاصة. فحين ينحت المثال القدير جذعاً انسانياً، فانه لا يمثل العضلات فحسب. وانما هو يمثل ايضاً الحياة التي تحرك هذه العضلات... بل انه لا يمثل هذه الحياة فحسب، بل يمثل ايضاً الطاقة التي أضفت على هذه العضلات شكلها

وبثت فيها الرشاقة أو القوة أو الحنان أو العنف ... والفنان الذي يرسم مناظر الطبيعة يمضي الى أبعد من هـــذا ايضاً ، فهو لايرى انعكاس الروح الشاملة في الاشياء المتحركةفحسب ، بل يراها كذلك في الاشجار والادغال والسهول والروابي . فالشيء الذي ليس في نظر عامة الناس إلا خشباً وتراباً يبدو للفنان الكبير الذي يصور مناظر الطبيعة كأنه وجه كائن كبير . كان كورو يرى الطبيعة منثورة على قمم الاشجار وعشب السهول وماء البحيرات ...(1) ». وقال رودان أيضاً : « الجسم الانساني هو مرآة النفس أولاً وقبل كل شيء . ومن هنا يأتي جماله كله . إن مانحبه في الجسم الانساني هو الشعلة الداخلية التي يبدو لنا انها تضيئه شفوفاً ، أكثر من شكله الجميل كل هذا الجمال (2) » . وقال أيضاً : « واذا لم يصور الفنان إلاقسمات سطحية كالتي تستطيع أن تصورها الفوتوغرافيا ، اذا نقل نقلا دقيقاً مختلف خطوط الوجه ، دون أن يردها الى نفس ، لم يستحق الاعجاب . والشبه الذي يجب أن يحصل عليه الفنان انما هو الشبه بالنفس ، فهذا الشبه بالنفس هو الأمر الهام ، هو ماينبغي للمثال أو المصور أن يمضي باحثاً عنه وراء الوجه . وبكلمة واحدة أقول : إن جميع القسمات يجب أن تكون معبرة أي مفيدة في الكشف عن شعور (3) » .

فما يدركه المصور ليس هو اذن فقط ماقد تدركه العين العـــادية حين تتوقف على الاشكال والالوان توقف عدسة التصوير عليها ، وانما هو أيضاً المعنى المترقرق خلال هذه الالوان والاشكال . ولما كان المعنى هو من صلب الاشكال

---

(1) رودان « الفن » ص ٢٦٣ ــ ٢٦٥ .
(2) المرجع المذكور ص ١٧٢ .
(3) المرجع السابق ص ١٨٦ ــ ١٨٧ .

والالوان ، لاينفصل عنها وانما يتجلى فيها ولا سبيل له الى الظهور إلا بهـا ، كما لاتتجلى الروح إلا بالجسد ، فمتى زال الجسد غابت الروح عن مجـال الادراك ، كان الفنان يتلبث على هـذه الاشكال والالوان لا من حيث هي ثوب للروح أو غلاف ،وانما من حيث هي الروح ذاتهاوقد تجسدت فأصبح في الامكان ادراكها. ان الفنان لايفصل الروح عن الجسد الذي تتجلى من خلاله ، لذلك فهو في اللحظة التي يدرك فيها الاشكال والالوان يدرك الروح . ولعل الذي يميزه عن الانسان العادي هو أن هذا يستطيع حين انعام النظر في الشيء من خارج أن يعزل شكله وألوانه عن الروح التي فيه ، فيتصور تلك قائمة بغير هـذه ، تماماً كما يفعل حين تكوين المعاني العامة باستخراج العناصر المشتركة بين الاشياء ثم يروح يتعامل مع هذه الاشياء على أساس مختصراتها العقلية تلك لتسهيل التأثير فيها وتسخيرها ، في حين أن الفنان يرفض ذلك العزل ، فهو لايرى روح الشيء إلا متجسدة في شكله ولونه ، ولكنه لايتوقف على الشكل واللون ليرى أجزاءهما مبعثرة وإنما هو يرى الشيء موحداً بالروح التي يعبر عنها . وهو عندئذ يستطيع بل يجب عليه حين يريد أن يعكس هذه الروح أو هذا المعنى أن يقف وقفة خاصة على العناصر الفذة في هذا الشيء ، العناصر التي تشف عن المعنى أكثر من غيرها وأن يدع ماعداها في الظل أو أن يغيّبها تماماً ، ليوفر في أثره من الشفوف مالم يتوفر في الشيء نفسه أمام العين العادية. فلعل كل فنـان يلعب لعبة رامبرانت على طريقته الخاصة .

وعلى هذا الاساس نفهم ذلك الحوار الذي قام بين رودان وصاحبه(١):

---

(١) هو بول جزيل الذي سجل ملاحظات رودان وآراءه في الكتـاب الذي حمل اسم رودان والذي سبق الاستشهاد بنصوصه .

— انني أخضع للطبيعة في كل شيء ، ولا اطمح في أن آمرها . كل ما اطمح اليه هو أن أكون أميناً لها كل الامانة .

فاجابه صاحبه :

— ولكنها ليست الطبيعة كما تتجلى في آثارك

فقال رودان :

— بل هي كذلك

— انك مضطر الى تغييرها

— أبداً . اني لا ابيح لنفسي ارتكاب هذا الاثم

فقال له صاحبه :

— ولكن خير دليل على انك تبدلها هو أن « الصب Le moulage » لا يعطي نفس الاثر الذي يعطيه نحتك .

— هذا صحيح . ولكن مرد ذلك الى أن الصب اقل صدقا من نحتي (....) ان الصب لا يمثل الا الظاهر الخارجي ، اما انا فأمثل عدا ذلك الروح، التي هي أيضاً جزء من الطبيعة ، من غير شك . انني ارى الحقيقة كلها ، لا السطح وحده ، انني من اجل ذلك أبرز الخطوط التي تشف عن الحالة الروحية اكثر من غيرها .

قال رودان ذلك ثم أشار بيده الى تمثال من أجمل تماثيله : فتى راكع قد رفع يده الى السماء ضارعا مبتهلا . القلق يسري في كيانه كله ، جسمه منقلب الى وراء ، صدره منتفخ ، عنقه مشدودة في يأس ، يداه مندفعتان نحو مجهول تريدان أن تتشبثا به ، وقال :

— أنظر ، لقد ضخمت بروز العضلات التي تعبر عن الحزن ، هنا ،وهنا وهناك ..(وراح رودان يدل باصبعه على الاجزاء العصبية من تمثاله) .

فقال له صاحبه :

— من فمك أدينك . ها أنت ذا نفسك تقول انك ضخمت ، ومعنى ذلك انك بدلت الطبيعة .

— لا ، لم ابدل ، أوقل بالاحرى أن ما احدثته من تبديل لم اقصده حين احدثته . ولكن العاطفة التي اثرت في رؤيتي قد اظهرت لي الطبيعة على نحو مانقلتها.

ثم قال بعد لحظة .

— انني أوافقك على أن الفنان لا يرى الطبيعة كما يراها العادي ، لان عاطفته تكشف له عن الحقائق الداخلية وراء الظواهر ، ولكن المبدأ الوحيد في الفن يبقى هو نفسه . أن ينقل الفنان مايراه (...) ولاشك في أن الانسان العادي اذا هو نقل عن الطبيعة لا يصنع أثراً فنيا . ذلك أنه في حقيقة الامر ينظر دون أن يرى . ومهما يحرص على تسجيل كل تفصيل من التفاصيل في دقة ، فان النتيجة التي يصل اليها تظل عاطلة من المعنى (...) ولا كذلك الفنان فانه يرى . أي أن عينه الموصولة بقلبه تنفذ الى اعماق الطبيعة . ومن اجل هذا كان على الفنان أن يصدق عينيه (١) .

واضح من كلمة رودان هذه أن التغيير الذي تحدثه عاطفته في الطبيعة على غير علم منه ، ليس تشويهاً للطبيعة ، وانما هو ادراك لحقائق باطنية لا يدركها من لم يكن مزوداً بتلك العاطفة التي يحملها الفنان . فالعاطفة هنا تعني التعاطف الذي يتيح للفنان ، اذ يتواصل مع الشيء ، أن ينفذ الى معناه ، وان يعاين حقيقته الداخلية على حد تعبير رودان . ان عاطفة الفنان هنا هي كالحب الذي تحمله الام لابنها ، أو العاشق لمعشوقته ، فهذا الحب لا يعمي عين ألام

(١) المرجع المذكور ، ص ٤٩ — ٥٣ .

أو عين العاشق ، وانما هو يفتح العين على جوانب لم تكن لتتفتح عليها بدونه ، فنحن لانعرف الشيء الا اذا أحببنـاه ، كما يقول باسكال. ان هذا الحب هو من فعل ، « الكشف » شرطه الاول ، وباعثه العميق ،وبدونه تعبر العين على الشيء عبور من لا يباليه فلا يراه . وهب عاطفة الفنان تختار وتضخم وتطفف ، فهل هذا افساد للرؤية وابتعاد بها عن الواقع ، أم هو في حقيقة أمره اختيار أوتضخيم أو تطفيف ليس من شأنه الا التلبث على مافي الشيء من جوانب هي أشف عن معناه من غيرها ؟ ان عاطفة الفنـان لاتعدو هنا أن تكون نافذة أطل منها الفنان على الموضوع ، فرأى منه مالم يكن ليراه بدون ذلك ، ثم عبر عن رؤيته في اثره الفني ، فاذا بذلك الجانب يتزاح عنه الستار ، فيراه سائر النـاس من خلال هذه الكوة التي شقتها عاطفة الفنان . وهذا كله انما يلخصه في عبقرية اللغة العربية أن الرؤية تعني النظر بالعين والنظر بالقلب جميعا ، بل ان الرأي من الرؤية كذلك ، فكأن الرؤية هي جهد الشخصية كلها في الادراك .

على أننا مازلنا الى هنا في نطاق الفن الكلاسيكي الذي ينصب على الواقع المفرد ، فيراه فيثبت رؤيته في الاثر الفني . ولكن الفن الكلاسيكي ليس كل الفن . ولئن كان ليوناردو دافنشي ورودان لا « يغيران » الشيء الا ذلك القدر من « التغيير » الذي يجعله أشف عن المعنى المتجلي في صورة ، أو عن الروح المترقرقة في الشكل واللون ، فان الفن الحديث يوغل في تغيير الطبيعة الى أبعدمن ذلك . انه يبدل الطبيعة تبديلا حقيقيا . فأين « الرؤية » هنـا ؟ الحق ان الرؤية هنا قد استحالت من رؤية بالقلب الى رؤية في القلب ان صح التعبير ، أو قل ان البصر قد استحال هنا الى بصيرة اذا فهمنا البصيرة على أنها التفات البصر الى الذات. ان العين التي كانت ملتفتة الى العالم الخارجي تلتفت الآن الى العالم الداخلي ، أوهي

تقف على الحدود بين العالمين فتراهما في آن واحد ، وتزاوج بينها ، فاذا الاثر الفني يعبر عنهامعاً. قل، انشئت المجاز، إن عينا تنظر الآن الى العالم الخارجي وعيناً أخرى تنظر في العالم الداخلي، وكما يكون الخيالان المرتسمان على الشبكتين من عيني الرائي صورة واحدة، كذلك يخرج الاثر الفني مزيجاً من صورتين احداهما تستمد أصلها من الخارج، والثانية ينبوعها هو الداخل. هنا يتحقق نوع من التآخد بين واقعين: **الواقع الخارجي والواقع الداخلي . هنا اصبح ما يستمد من العالم الخارجي في الاثر الفني وسيلة للتعبير عن العالم الداخلي . واذا كان الواقع النفسي لا يقل «واقعية» عن الواقع العادي ، فالرؤية في « القلب » لا تقل واقعية عن الرؤية بالعين وبالقلب . ونحن مازلنا اذن بصدد ادراك ، ولكنه كان ادراكا بالبصر فاصبح ادراكاً بالبصيرة . بل ان البصيرة كانت تمازج البصر دائماً ، فكأن الفرق بين التصوير الكلاسيكي والتصوير الحديث فوق في الدرجة لا في النوع ، هو فرق في مقدار ما يخالط الرؤية بالعين من رؤية بالقلب في الحالتين ، وفي مقدار ما يحققه البصر من نظر الى العالم الخارجي تارة والى العالم الداخلي تارة اخرى فيكون بصراً وبصيرة معاً على تفاوت في الكم . لقد كانت عاطفة الانسان تدخل في رؤيته للطبيعة قدرا من التدخل ثم اصبحت الآن تدخل في هذه الرؤية قدراً من التدخل اكبر . كان الاثر الفني يعبر عن الواقع الخارجي متدخلا مع الواقع الداخلي قدراً من التداخل ، فاصبح الاثر الفني يعبر عن الواقع النفسي بواسطة العالم الخارجي وقد تبدل قدراً اكبر من التبدل .**

الطبيعة هي الآن وسيلة لابراز الحالة النفسية التي يريد الفنان ان يعبر عنها فالفنان لذلك يبدل الاشياء الخارجية التبديل الذي يتيح لها ان تعكس الحالة النفسية . انه مثلا يعبر عن اساه بأن يفرض على الاشياء التي يصورها الواناً قاتمة

ولو كانت ترى في الطبيعة على غير ذلك ، او يعبر عن هيجانه باللجوء الى الوان صارخة مضطربة متصارعة يكسو بها الطبيعة وما هي كذلك . كان الفنان يعبر عن حالاته النفسية باختيار ما يناسبها ويوازيها ويتجاوب معها من جوانب الطبيعة ، فاذا اراد ان يعكس أساه صور الغروب مثلا ، ولكنه اصبح الآن يرينا الظلام حتى في قوس الشمس ، ويرينا الشجن حتى في طيران عصفور فهو الآن لاينتقي من الطبيعة ما يناسب حالته النفسية بل يفرض عليها فرضاً ماينفض هذه الحالة النفسية .

ان الفنان يبدل الطبيعة هنا من اجل ان يزيح الستار عن حالة نفسية . انه لايصور واقعاً مرئياً ، وانما يتخذ الشكل المرئي الذي يفرضه على الطبيعة ممراً الى واقع نفسي غير مرئي ، رمزاً يوحى به ، ينم عنه ، يحيل اليه ، ذلك ان هناك توازياً (ليس من شأننا الآن ان نكشف عن مصدره) بين الالوان والاشكال من جهة وبين الحالات النفسية من جهة اخرى . فليس القاع الذي يمتد الى اللانهاية في اللوحة كالقاع الذي لايعدو ان يكون جداراً ، وليست الخطوط المنحنية كالخطوط المنكسرة ، وليس البياض كالخضرة ، ولا الخضرة كالحمرة من حيث التوازي القائم بين هذه الأشكال والالوان من جهة وبين العواطف من جهة اخرى . حتى ان هذا التوازي يمكن ان يقوم بين الاحساسات بعضها وبعض ، فرب احساس لمسي يوقظ احساساً بصرياً ، ورب احساس صوتي يبعث احساساً شمياً ، الخ .

وقد يمعن الفنان اكثر من ذلك في تبديل الطبيعة ليهشمها فلا تكاد ترى في آثاره منها شيئاً . ان التفاته الى الداخل يكون عندئذ أتم . انه لايصور الطبيعة بل يصور نفسه ، وهو لايصور نفسه بواسطة الطبيعة ، بل بواسطة

اشكال والوان لايكاد يكون فيها من الطبيعة شيء. وهو اذ يصور حالاته النفسية قد لايقف منها على سطحها الشعوري، بل يغوص الى الأعماق، الى اللا شعور. وقد لايكون الفنان على شعور بأنه يغوص الى اللاشعور، وانما هو يدع لخياله أن يعمل، فاذاهو يلتقط من الاشكال والالوان ماينفض اللاشعور الى الخارج مقتفياً وفقاً للآليات التي يتم بها خروج اللاشعور في احلام اليقظة. **هاهنا استحالت «الرؤية» الى «رؤيا» بمعنى حلم.** والحلم، عدا أنه في ذاته واقع نفسي، رمز الى واقع أعمق منه، الى واقع هو منه بنبوعه. «ان العالم الخيالي الذي يعرضه علينا الفنانون هو اسقاط مرئي لما في ذواتهم من شيء غير مرئي. وهم بذلك يعطوننا مفتاح وجودهم، يتيحون لنا أن نصل الى وجودهم هذا بواسطة الرمز ... انهم ينظرون فيما حولهم، مهمومين، يبحثون في ذخيرة الاحساسات التي يقدمها لنا العالم الى غير نهاية، يبحثون عما يعطيهم مفتاح طبيعتهم الخاصة». وكأن رودان، الواقعي، يبرر اتجاهات الفن الحديث، من قبل أن يتبلور هذا الفن الحديث، حين يقول: «إن الفنان اذ يصور لنا الوجود على نحو مايتخيله يعبر لنا عن أحلامه على الأقل ... وهو بهذا يغني نفس الانسانية، لأنه حين يضفي فكره على العالم المادي يكشف لمعاصريه ألواناً لانهاية لها من العاطفة، ويجعلهم يكتشفون في أنفسهم ثروات كانوا يجهلونها».

ان هذه النقلة من الخارج الى الداخل ومن الداخل الى الخارج، بل ان هذه المزاوجة بين صورة النفس وصورة الطبيعة في الادراك هي ماتعبر عنه عبقرية اللغة العربية اذ تشتق الوجود من الوجدان، واذتخرج الشيء من المشيئة، واذ تشير الى تفاعل الطبيعة والطبع بوحدة مصدريهما،

واذ تجعل المادة من المدة ، ناهيك عن وحدة الرؤية والرأي والرؤيا ، وعن امتزاج الحلم (العقل) بالحلم (ما يرى في المنام) .

لقد كان الفن ، في تاريخه الطويل ، حديثاً عن الطبيعة والانسان ، فتارة يحدثنا عن الطبيعة أكثر مما يحدثنا عن الانسان ، وتارة يحدثنا عن الانسان أكثر مما يحدثنا عن الطبيعة ، ولكنه يحدثنا عنها معا في كل كلمة يقولها ، لأن الانسان والطبيعة طرفان لا يكمل وجود أحدهما إلا بالآخر كما لا يتم حصول المعرفة إلا بلقاء بين الموضوع والذات .

وليس هذا الحديث ، أعني الفن في تاريخه ، الا صورة للحوار الذي قام بين الطبيعة والفنان ، وهو حوار كان فيه الفنان يصغي الى الطبيعة تارة وكانت فيه الطبيعة تصغي الى الفنان تارة اخرى ، وكان المصغي يؤثر اثناء صمته في المتكلم فينطقه من حيث يشعر أو لا يشعر بما يعبر عن المتحاورين كليهما في آن واحد ،وكان المتكلم يؤثر بكلامه في المصغي فيخرجه من جلده ليندس في جلد صاحبه . وكان الفن في جميع مراحل هذا الحوار يحقق عناقاً بين الوجود والوجدان بين عالم المادة وعالم المدة ، بين الشيء والمشيئة ، بين الطبع والطبيعة . وكان يمكن أن نقول ان الفن سار في تاريخه موتقياً من الوجود الى الوجدان ، ومن عالم المادة الى عالم المدة ، ومن الشيء الى المشيئة لولا أن في الوجود وجداناً يراه الفنان رؤية العين والقلب والنفس جميعاً ، لولا أن المدة هي ما يدركه الفنان حتى في المادة أو من خلال المادة لولا أن للشيء في نظر الفنان مشيئة . لذلك كانت حركة الفن في تاريخه نقلة بين طرفين لا سيرا على خط مستقيم ، سواء أتصورنا هذا الخط المستقيم أفقياً أم عموديا . وها هو ذا الفنان الحديث يصافح ، من فوق أكتاف القرون ،

الفنان البدائي . اننـــا من الفن السابق على التاريخ ، الى الفن البدائي فالكلاسيكي فالباروكي، فالرومانسي،فالانطباعي ، فالوحشي ،فالرمزي، فالسريالي ، فالتكعيبي ، فالتعبيري ، فالمجرد،اننا من هذا الفن كله في سلسلة تتلاقى أطرافها حتى لتكاد تشوي في كل حلقة من حلقاتها كل حلقة ، على حالة الكمون الذي يهم أن يصير الى ظهور ، ثم يصير فعلا الى ظهور ، على درجات متفاوتة من الظهور .



الموسيقى العربية

واصدقاؤها الحقيقيون

بقلم : نجاة قصاب حسن

قرأت في مجلة المعرفة مقالات الاستاذ ميخائيل الله ويردي عن الموسيقا العربية ، ولفت نظري فيها امران :

١ — ان الاستاذ ميخائيل كرر ما سبق ان قاله وكتبه في محاضرات ونشرات ومقالات كثيرة بلا زيادة ولا نقصان وبلا تبديل في نص العبارات فليس الموضوع جديداً .

٢ — إن اسلوبه لا ينسجم — في نظري — مع التواضع المطلوب من عالم يناقش ويدافع عن قضية حقة . فمن يخالفه فيما يقول يصف كلامه بأنه « زعم بليد » وهو يضيف « انني على استعداد لزيادة الشرح بمناقشة من يشاء من علماء الشرق والغرب في ندوات ومجتمعات أمام المذياع والتلفزيون واعتبر عدم الرد اما جهلا بهذا الموضوع ، واما عجزاً او اما موافقة على كلامي الاول من نوعه » وهذا يشبه تحدي المصارعين والملاكمين اكثر مما يشبه ابحاث العلماء .. وهو يتكلم عن مخالفيه الذين ناقشوه بقوله « هنالك مجالس ولجان لم يفتح الله عليها ببصيص من نور الفن لترى سواء السبيل » ... ومثل ذلك يتكرر بلا نهاية ...

وقد وجدت من الضروري أن أتولى الرد لتأكيد بعض الحقائق ، والحقيقة الأولى هي أن الاستاذ ميخائيل الله ويردي يضع اسلوباً خشناً في خدمة قضية جوهرها صحيح، وهذا الاخدم القضية ولا يعتبر تصرف صديق حقيقي للموسيقى العربية . والحقيقة الثانية هي أن سبيلنا في خدمة الموسيقا العربية ، وبشكل خاص في المرحلة الحاضرة ، ليس في الموسيقا الغربية والدعوة الى نبذها في الغرب وتبني موسيقانا وانما التعايش بين الشكلين الشرقي والغربي من اشكال التعبير الموسيقي ، والسعي الى أن نرتقي نحن بموسيقانا أولا حتى تكون لها قيمة فعلية واقعية – لا نظرية فقط – في مجال المنافسة . والحقيقة الثالثة هي أن الاستاذ الله ويردي انتهى من مناقشيه ، ومنهم لجنة الموسيقا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب التي ردت عليه ، بشتمهم فقط دون الرد عليهم في المجال الوحيد الذي تتاح فيه مناقشة علمية – وهو صفحات المعرفة – مع أنه يتحدى من يشاء من علماء الشرق والغرب (كذا) لمناقشته امام المذياع والتلفزيون وهما ليسا مجالا لبحث القضايا التي يختص بها اذ ليست الابحاث الموسيقية الفيزيائية مما يفهمه الجمهور الواسع أو يستسيغه .

واني لأرجو أن يتسع صدر الاستاذ ويردي للاحظاتي ولا يعود الى التهجم علي كما فعل من قبل ، لأننا لا نختلف الا على أمور علمية وتوجيهية لاصلة لها بالاعتبار الشخصي ، وهو يعلم مقدار اعتباره عندي ومقدار استلطافي له من الناحية الشخصية .

ماهي مشكلة الموسيقا العربيـــة ؟!

تطورت الموسيقا العربية بالتلاقي مع اشكال عديدة من الموسيقا الفارسية والهندية والبيزنطية وغيرها ، فهي محصول تطور انساني طويل في ميدان التعبير الموسيقي . وقد تعرضت في هذا التطور الى عديد من التبدلات أصف بعضها :

١ – فالانغام (المقامات) كالراست والبيات والسيكاه وعشرات غيرها ، اختلفت درجاتها ونسبها ومواقعها من عصر الى عصر (١) ، ولا تزال غير متفق عليها بين قطر وقطر . وقد اثبتت ابحاث المؤتمر الموسيقي الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٣٢ ان الذوق الشعبي في تركيا غيره في سوريا ومصر ، ولذلك فالدرجات الموسيقية في النغم الواحد مختلفة بين قطر وقطر . وقد أحب الاستاذ الله ويردي أن يقول ان سبب هذا الاختلاف هو « النبش السمعي » أي فساد السمع عند من جرت عليهم هذه الانغام . ومن هم الذين اتهمهم بالنبش السمعي ؟ انهم كما يقول الاستاذ ميخائيل في الصفحة ٤٣ من كتابه فلسفة الموسيقا الشرقية « خمسة من الاساتذة المشهود لهم بصفاء الحاسة السمعية هم الاساتذة عوض وعويس وفتحي ودرويش الحريري وسامي الشوا » .

(١) الخلافات كثيرة مشعبة وحسابية وقد تعثر فيها مؤتمر الموسيقا في القاهرة ولو حاولت ايضاحها لأخذت صفحات كثيرة لانها غير المختص ولذلك اكتفي بالتعميم .

واذا علمنا أن الاستاذ الله ويردي موسيقي نظري إذ أنه ليس عازفاً ولا موسيقياً ممارساً ولا مؤلفاً ولا مغنياً ، وأن ادراكه للدرجات الموسيقية باعترافه نفسه ضعيف من ناحية السمع وكل عمله أنه يعين عدد الاهتزازات الفيزيائية لدرجة ما ، فان زعمه بأن هؤلاء الموسيقيين الكبار مصابون بالغبش السمعي زعم ضعيف. والموسيقا عمل الموسيقي لا الآلة، فهو الذي يعين الدرجة عن طريق السمع الذي يقود يده ، وكان يمكن لباحث موضوعي أن يرد الأمر بدل الغبش السمعي الى شيء أبسط وهو الاعتياد مثلا على نغمة معينة ، فالسيكا المصرية أخفض من السيكا السورية بسبب أن الموسيقيين تعودت أذنهم عليها بصورة مختلفة في القطرين ، وكلتاهما جميلة . أو كان يمكن لباحث موضوعي أن يفعل مافعله بعض الباحثين في السويد حين حاولوا أن يربطوا ، بعد دراسة استغرقت زمناً طويلاً وتناولت الآلاف من الاشخاص في مناطق مختلفة ، بين الزمر الدموية لدى الأفراد وبين بعض الدرجات الموسيقية ، وقد حدثنا عن هذا الدكتور نيلس فالين خبير الموسيقا العالمي الذي اوفدته الاونسكو الى سورية والقى فيها محاضرة في المجلس الاعلى دعي اليها السيد ميخائيل الله ويردي ولم يحضرها، بينما حضرها الكثيرون من البحاث والموسيقيين ...

وبالتالي فبدلاً من التقعر ورمي الموسيقيين الكبار بالغبش السمعي نرى أن مهمة الباحثين الموسيقيين ومهمة المؤتمرات الموسيقية تنحصر في أحد أمرين. **فاما أن تترك للذوق الشعبي في كل قطر ما اعتاد عليه** من درجات السلم الموسيقي في نغم أو مقام معين ، وفي هذا صرف سليم وغنى للبشرية بالألوان الناعمة الفروق بدل جودهـا عند ألوان محددة أقل عدداً ، **وإما أن تقرر درجات معينة للسلم الموسيقي في كل مقام** عسى أن يقبل بها الموسيقيون ، علماً بأنه ليس من مؤيد الزامي يمنع استمرار الغناء الشعبي والموسيقا في سيرتهـا الأولى الناشئة عن الذوق والاعتياد وربما عن الخصائص الحيوية كما في ابحاث السويديين المشار اليها.

والشاكل المتصلة بهذا الموضوع تحلها المؤتمرات الموسيقية إذ انه لو تم تعين درجة معينة وجب ان يصاغ لها (ديابازون) وهو جهاز معدني خاص إذا نقر أعطى الصوت الصحيح المتفق عليه ، فتكون عندنا مجموعة من الديابازونات بعدد الدرجات المتفق عليها أي بالعشرات ، وعندئذ نضبط الآلات الثابتة عليها ، ويسترشد بها الموسيقيون كلما داخلهم الشك . . . أما الجمهور الذي تنحصر المشكلة عنده في التذوق الموسيقي عن طريق السمع فــلا شأن له بهذه الابحاث لتكون موضع المحاضرات والمناقشات امام الراديو والتلفزيون . وقد سبق للسيد الله ويردي أن حضر حلقة الدراسات الموسيقية التي عقدت في بيروت عام ١٩٥٨ باشراف الاستاذ التشيكوسلوفاكي

هابا ولم نر قرارات الحلقة انطبعت بطابعه مع أن ذلك المجال كان مجاله ، أما السبب في ذلك مع وجود البحاث والعلمـــاء المنصفين فليس علي أنا أن أبينه .

٢ — وما تعرضت له الانغام من ناحية الفروق الطفيفة في درجاتها وطرق عزفها تعرضت له نتيجة عامل اجتماعي إنساني أثر على كثير من العلوم والفنون العربية فقادها الى الكثرة والتعقيد دون مبرر حقيقي . فكما ان النحاة في سعيهم إلى الجديـــد ليذكروا به (١) ساروا بالنحو في طريق التعقيد الشديد فكذلك الموسيقيون اخـــذوا يحاولون التزيد في النغمات والابتكار في الاوزان ، فما يمكن أن يعتبر تحويلاً بسيطاً اثناء أجراء نغمة أصبح نغماً جديداً أو مقاماً ، حتى صار بعضهم يجتزىء نصف نغم ويضيفه الى نصف نغم آخر فيخرج معه مقام جديد (٢) . كل ذلك كان يجري ليرتبط اسم المبتكر بنغم جديد يكون مجال شهرته . وقد استمر هذا الاتجاه حتى اليوم وهناك ملحنون ناشئون ابتكروا منـــذ عشر سنوات انغاماً جديدة واوزاناً جديدة فزادوا القضية تعقيداً .

وحل هذا التعقيد كما أجمع الموسيقيون العرب الدارسون في العصر الحاضر يكون في الاختصار على مقامات رئيسية كبرى عليها مدار الالحان الشهيرة في موسيقانا التقليدية (الموشحات والادوار والقدود) والشعبية الريفية . وتترك التفاصيل الصغيرة كأساليب في التعبير الناعم يمكن للمغني المتمكن والعازف الجيد أن يجرياها دون أن يعطياها اسماً أو يفتناها في مقام جديد ، وبذلك يسهل تعلم الموسيقا العربية ونشرها وتوطيد أسسها بينما هي اليوم سر مغلق يزيده اغلاقاً اسلوب الاستاذ الله ويردي الذي لايشجع على تعلم الموسيقا العربية ولا على فهمها وحبها ..

٣ — ويقودنا هذا بالضرورة إلى نوع من « التعديل » الذي ينكره الاستاذ الله

---

(١) سأل الرشيد أحد جلسائه : من تراه أعز العرب ؟ قال انت يا أمير المؤمنين ، قال بل فلان النحوي ، يتسابق الأمين والمأمون إلى تقديم نعله إليه . . .

وسئل احد النحاة : لم تقرأ لك الصفحات سائغة ثم تقرأ صفحات أخرى عسيرة لاتفهم؟ قال تلك تقودكم إلى هذه ، فاذا لم تفهموا جئتموني فأخذت دراهمكم لتفهموا ...

وشرح احدهم الالفية ، وشرح آخر الشرح ، وجاء ثالث فعلق على شرح الشرح ، ثم جاء من أحب أن يذكر فأعرب الألفية برمتها . . .

(٢) كما في مقام البسته نـكار وهو صبا يختم على درجة السيكا ، ولذا فهو مقام غير كامل. وقد اشار الاستاذ صلحي الوادي اليه في مقال سابق في المعرفة على أنه نموذج للانغام العربية ، في حين أنه شاذ وحده ، والشاذ ليس قياساً ولانموذجاً .

ويردي قولاً ويمارسه فعلا. فاذا كان الغرب قد ألغى الفرق بين صادح درجة (أي الدييز) ورخيم الدرجة التالية (أي البيمول-الدوديز أعلى بمقدار كوما من الره بيمول، فجعلها الغرب للتسهيل درجة واحدة وساوى بينهما في الآلات الثابتة كالبيانو وآلات النفخ والآلات ذات الدساتين) فان الاستاذ الله ويردي مع انتقاده لهذا الاسلوب وثورته عليه واعتباره إياه كضغط الضاد والطاء والدال والتاء في حرف واحد هو الدال (مقاله في العدد الثامن) فانه يفعل الشيء نفسه في السلم العربي الذي يدعو اليه (١). ففي الصفحة ٢٥٣ نجده ينقص بعض الدرجات ذرتين أو اربعاً وفي بعضها يزيدها ذرتين عما هي في السلم الطبيعي، فسلمه العربي هو اذن سلم معدل بصورة كيفية حسابية — لاذوقية سمعية — عن السلم الطبيعي الذي يعتبره الحقيقة الوحيدة الخالدة. فاذا كان التعديل ممكناً نظريا فهو يجب ان يكون ممكناً عملياً. واذا كنا نحن نقول بأن السلم الموسيقي الغربي ناقص في التعبير فان كثيرين من الغربيين ينادون بسلم الارباع المتساوية بدلا من سلم الانصاف، وهذا السلم يعطي تقريباً كل الانغام العربية، تاركاً المجال للذواق المرهف لأن يعطي الأحلى بين درجتين دون أن تفسد حريته القاعدة ...

ومن المعروف ان كل تقدم بشري استدعى نوعاً من التعديل. وفي الرياضيات مثلاً نسبة محيط الدائرة الى نصف قطرها رقمها المتفق عليه هو ٣٫١٤١٦ ولكن رقمها الحقيقي يستمر بلا نهاية مما يجعله غير عملي، فاجتزىء منه هذا الرقم لأنه يساعد على وجود نهاية للعمليات الحسابية. والآلات الالكترونية التي تفوق دقتها دقة الحواس البشرية آلاف المرات تعتمد ارقاماً وحسابات معدلة وإلا لما أمكن لآلة الكترونية أن تعطي جواباً على مسألة ولو ظلت تعمل أبد الآبدين ...

٤ - والموسيقا العربية، مع غناها الشديد (المبالغ فيه أيضاً) في الأنغام التي توسع دائرتها في التعبير، وغناها المفرط الى أبعد حد في الاوزان المعقدة (التي يصعب ادراكها وحفظها واجراء النغمات عليها) فقيرة في أنها لاتزال تسير على خط واحد ولا ترافقها الاصطحابات. وقد أدرك هذا كل عامل في الموسيقا حتى الاستاذ الله ويردي، ولكن حل هذه المشكلة رهن بأمرين: أن توجد القاعدة، وان يوجد الموسيقي المثقف الذي يدرك القاعدة.

والقاعدة في الاصطحاب الموسيقي (الهارموني والكونتر بوانت) لايمكن أن توضع بمعزل عن القاعدة العالمية التي يستخدمها الغرب لأسباب: فهي أولاً قد جربت واغتنت وطبقت وعدلت خلال مئات سنين وصارت ثروة انسانية لايستهان بها وكتبت مؤلفات هائلة وفق أسسها.

---

(١) وردت هذه الملاحظة في تقرير لجنة الموسيقا في المجلس الاعلى حول كتاب الاستاذ الله ويردي.

وهي ثانياً تصلح الموسيقا العربية حيثما كان النغم مشتركاً بينها وبين الموسيقا الغربية (في الماجور والمينور ، أي في عائلة العجم والجهاركاه والنهاوند والحجاز كار كرد والحجاز كار والنكريز والحجاز والزنجران وغيرها) علماً بأن كل المترمتين وزعيمهم الاستاذ ميخائيل الله ويردي لايخالفون في المبدأ وإنما في دقة السلم الغربي ، فليصححوا السلم كما يشاؤون والقاعدة تبقى سليمة . وهي ثالثاً قد أصبحت مدرسية ذات كتب ومؤلفات واسعة منتشرة لم يجرحها أحد قبل الاستاذ الله ويردي وبفرض أن هناك ملاحظات فهي تزاد لأن قواعد الهارموني والكونتربوانت لاتزال في تطور في نفس العالم الغربي .

ثم لو قلنا بان « الحق أحق أن يتبع » ولو كلف مجهودات كبرى ، فأين هو هذا الحق؟

ان الاستاذ ميخائيل بعدنا به في كتاب اسمه (الموسيقا الطبيعية وهرمنتها) لم يصدر حتى الآن ولم تره عين . ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ الله ويردي أمطر وزارة الثقافة والارشاد القومي في عهود مختلفة بطلب تبني هذا الكتاب قبل ان يصدر وبأن تنصح الاونسكو بترجمته قبل ان يطبع ، فأجاب المختصون في الوزارة وفي المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بأنه لايمكن تبني كتاب لم يصدر ، ودعوه الى تقديمه للنظر في طبعه حسب الأصول فأبى . إننا قياساً على جهد الاستاذ الله ويردي في اخراج كتابه السابق لانشك في أنه قادر على أن يكتب كتاباً بألف صفحة هذه المرة ولكن هل هنالك جهة في الدنيا توافق على تبني كتاب دون أن يصدر أو يسمح صاحبه بالاطلاع عليه ؟

ماهي قواعد هذا الاصطحاب ؟ سر . ماهي نظرياته ؟ سر . ماهي أساليبه التطبيقية ؟ سر . انا لسنا في عالم الاسرار وليس الأمر (شيفرة) سرية للمخابرات بين المؤلف والموسيقيين ، واذا كان ليس في خبراء وزارة الثقافة والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من يفهم هذا الكتاب فلمن يصدر ؟ وكيف تنتفع به الموسيقا إن لم يره الموسيقي ؟ **و كيف يسوغ ان نطلب من الغرب وسمياً ان يهجر قواعده قبل أن نريه قواعدنا ؟** وهل الأمر دعاية مسبقة لبضاعة تجارية على قاعدة المربعات التي توضع في الصحف وفيها علامة الاستفهام لتحفز اهتمام المطلع ريثما يأتي يوم المكاشفة فاذا هي نوع جديد من الصابون ؟

هذا عن القاعدة . أما عن الموسيقي فانه يجب أن يتعلم ليفهم مايقوله الاستاذ ويردي بفرض أنه سيقوله ـ وهو فرض مقبول عندي كما سلف الذكر . ولكن ماذا يتعلم ؟ لا ريب أنه سيتعلم القاعدة الموجودة وهي القاعدة العالمية .

والموسيقي في الواقع يضع القاعدة بالحس المرهف والتجربة العملية ثم يأتي من بعده النظري ليقنن . ماحدث قط في مثل هذه المجالات أن سبق النظري العملي . يأتي الموسيقي أو الرسام فيكسر القاعدة السائدة فاذا اكتسب الاسلوب الجديد حق الحياة بالتأييد العام من الجمهور جاء النظري فوضع هذا الاسلوب في شكل قاعدة قانونية . وانني لأرى في محاولات الاخوين رحباني وتوفيق الباشا وغيرهم لكتابة هارموني وكونتربوانت على الانغام العربية شيئاً جديداً أكثر من أن يأتينا استاذ بعدد من الذرات تقابل من الناحية الفيزيائية عدداً آخر من الذرات ثم لا يكون لعمله امكان من الناحية التطبيقية ...

مقترحات الاستاذ الله ويردي العملية

ولكي نستخدم الذكاء بالطرق البوليسية لنكشف عن سر قاعـدة الاستاذ الله ويردي نلقي نظرة على مقترحاته العملية لحل مشكلة الهارموني على السلم الطبيعي .

يقول في مقاله المنشور في العدد التاسع من المعرفة (صفحة ٩٥ وما يليها) بالحرف الواحد:

أولاً تعليم لغة الموسيقا الطبيعية ونبذ المعدلة بإيقـاف تعليمها للناشئين ... ولذلك يتوجب:

١ ـ تأسيس مدارس ابتدائية لتعليم لغة موسيقانا الطبيعية ..

٢ ـ تأسيس مدارس ثانوية ، تدرس علوم الموسيقا وهرمنتها ولهذه الغاية يقتضي اصدار طبعة ثالثة من فلسفة الموسيقا الشرقية مضافاً اليها ابحاث الهرمنة الطبيعية وأمثالها بالنوطة ، فيكون للدنيا كتاب بكر بحجم المحيط ..

٣ ـ تأليف معاهد عليا يدخلها الاساتذة والمتخرجون من المدارس الثانوية .. وانا نجد كل الانفاقات على مختلف الدرجات في كتابنا (الموسيقا الطبيعية وهرمنتها) المعد للطبع مع جميع المشاكل الفنية التي اعترت مؤتمر القاهرة سنة ١٩٣٢ فوجدت حلولهـا الآن بشكل قاطع ..

ثانياً بناء آلات مناسبة لاخراج الاصوات الطبيعية بدون تشويه لأن الآلات المعـاصرة كالبيانو والارغن ومجموعة الفنفار .. غير صالحة .. وبما أننا لانستطيع القيام بهذه المهمة وحدنا فلا مندوحة من الاستعانة بأهل الاختصاص !!..من جميع الأمم بعد أن نوضح لهم حقائق الموسيقا الطبيعية عن طريق العلم وقد قمنا فعلاً بهذه المهمة خدمة للانسانية جمعاء ...

أما ايجاد الآلات المناسبة فيتم اما موقتاً أو أبدياً باحدى الوسائل الآتية :

١ ـ وضع بضع بيانوات في مكتب الاذاعة ، يسوى كل منها وفق احد الانغام الواردة

في اللحن المطلوب ثم يعزف على كل يانو ما يتفق معه من القطعة ويسجل ذلك تباعا على الشريط فتظهر القطعة للسامعين كأنها عزفت على يانو شرقي .. وكذلك القول في آلات النفخ (أي آلات النفخ النحاسية والخشبية في الاوركسترا — نحاة) وغيرها من الآلات ذات الاصوات المعدلة المحدودة ..

٢ — ...

٣ — بدع آلات الكترونية لاخراج جميع الانغام مع اتفاقاتها الصوتية وفق الهندسة التي شرحناها في فلسفة الموسيقا الشرقية، وفي فلسفة الموسيقا الطبيعية وهرمنتها .. الخ

... عند هذا تشرع الدول بتحويل الالحان المعدلة الى مسموعها الطبيعي . . . وبهذا تتكلل بالنجاح التام اعمال منظمة الاونسكو ... ولن تحصل على نتيجة حتى توضع ابحاثنا موضع التنفيذ .. (انتهى كلام الاستاذ الله ويردي).

فلنناقش هذه الاساليب بجدية مع محاولتنا كثركل اشارة يمليها ظرف الاستاذ الله ويردي في هذه المقترحات . اذا وجب أن نطبق اقتراحات اليانوات وقدرنا عددها بتسعة على الأقل (لتقابل عدد الكومات مع ترك الأجزاء الأصغر وهي الذرات ، لان الاكتفاء بتسعة يانوات معناه القول بالموسيقا المعدلة حسب رأي الاستاذ الله ويردي) .. واذا وجدنا من يضبطها دون أن يكون مصابا بالغبش السمعي حتى يكون الفارق بين كل منها والآخر بنسبة كوما واحدة ، هل تتصورون عازفا ينط من يانو الى يانو ليعزف نوتة واحدة ثم مخبرا بدل غرفة المراقبة يقوم بجمع مصطنع لهذه النقات ؟

وبسمي هذا حلاً **أبدياً** !.. وهل تتصورون عازفا على آلة نفخ حوله غابة من الآلات ينفخ في كل منها نوتة ثم تجمع في المخبر ؟ وهل ينسى الاستاذ الله ويردي أن كل آلة نفخ يتغير فيها الصوت حسب قوة النفخ بمقدار الكوما أو اكثر ؟ وهل توضع على افواه العازفين آلات لتعيير قوة النفخ وتنظيمه ؟

ويبقى ماذا ؟ آلات اليكترونية . والحق ان الحل الوحيد لايجاد موسيقا تتناغم وفق القواعد الحسابية الفيزيائية هو الآلات الالكترونية ، وقد بدأ صنع بعض هذه الآلات ، ولكن هذا يخرج الموسيقا من يد الموسيقي ليجعلها في يد المهندس فلا يبقى من انسانيتها الا علاقتها بمؤلف لايستطيع تصور ماينتج عن خطه الاول ، ومهندس مكان العازف .. وانه لعمري شيء

لا استطيع نفيه فقد يهزأ المستقبل من نفيي بعد أن بدأ العالم في هذا الطريق ، ولكني استطيع القول إنه يخرج عن حدود انسانيتنا نحن .. اني غير قادر على مناقشة أمور لا يقدر هو على تصورها ولا يعرف أحد كيف تبدأ وكيف تنتهي ، ولا نعرف ان كان العالم سيأبه لها .. تماماً كما يحدث حين نتصور غزو الافلاك واختصار الزمان واطالة الحياة الا افا من السنين وسوى ذلك مما يخرج من البحث الواقعي ليدخل في الأحلام الشطاحة وفي مسلسلات فلاش غوردون ..

الغاء الموسيقا الغربية برمتها ؟

والاستاذ الله ويردي تراوده أحلام ، مغروبة بالنسبة الى طموح ، ولكنها تفيض عن حدود المقبول في العرف العلمي العام . احلامه هذه تقول بأن يعلم علماء العالم الحقيقة الموسيقية القائمة على السلم الطبيعي ـ السينا الملونة ـ الابجدية الكاملة، ليهجروا الموسيقا الغربية كلها ـ السينما السوداء ـ الابجدية المضغوطة ويعيدوا تسجيل روائعها (وربما بالطرق التي سبقت الاشارة اليها) ويوقفوا تعليمها ويبطلوا كتبها ويفعلوا بها مالم تفعله محاكم التفتيش بكتب الهرطقة . فهل هذا كلام مقبول أولاً ، وهل هذا كلام مسموع ؟ والذي يقوله الاستاذ الله ويردي عن السلم الطبيعي والمعدل ليس جديداً ، فقد قال من قبل كثيرون منذ هجر الغرب السلم الطبيعي وسار على السلم المعدل ، ولم يسمح أحد لهم حتى حين كانت القضية في بدايتها وقبل ان تتكدس هذه الثروة الانسانية من الموسيقا المكتوبة والمنفذة ، فهل يسمع لهـذا القول أحد الآن ؟

أولى بنا أن نعرف مكاننا . عندنا مادة موسيقية خام ، مختلف عليها ، شديدة الدقة ولكنها شديدة التعقيد ؟ ثلاثة ارباعها نغمـاً ووزناً مهجور ، والباقي غير معروف لقلة عدد الموسيقيين ولانعدام المدارس . ونريد أن نكسر الطوق ، ان نفتح المدارس ، أن نعلم الناشئة فماذا نعلمهم؟ الأوليات المتفق عليها والتي اثبتت التجربة صلاحها . الآلات العربية والافرنجية على السواء . وكلما تقدمت الموسيقا العربية خطوة في طريق البساطة تقدمت خطوتين في طريق الانتشار .

إن أصدقاء الموسيقا العربية الحقيقيين هم الذين ينفضون عنها التعقيد والغموض والاختلاف وييسرون لها أن تعيش وتنتشر وتأخذ مكانها في صف الموسيقا العالمية : تأخذ مكانها إلى جانب الموسيقا الغربية في تعايش سلمي وتمـازج لم يرفضه العرب حين أخذوا من الهندية والفارسية والبيزنطية . وهذا العمل تنهض به المدارس والموسيقيون الشباب الذين يجب ان نشجعهم ونحببهم بالتراث ، لا أن نحطمهم بالتعالي ونجعلهم ينفرون من كل شيء يتصل بهذا التراث .

ولنا الى الموضوع عودة ثانية...

مجلة المعرفة

التيارات الفكرية العربية والعالمية

ليل الاستعمار

بقلم : فرحات عباس

عرض وتحليل : أديب اللجمي

(*) عنوان الكتاب بالفرنسية :
Ferhat Abbas — Guerre et Revolution d'Algérie
I — La Nuit coloniale — Paris, Julliard 1962

« الى شعب الجزائر البطل .

الى جيش التحرير الوطني الظافر، وشهداء استقلال الجزائر الميامين .

الى الاخوات الجزائريات اللواتي اسهمن اسهاماً كبيراً في الكفاح التحرري .

الى الشعوب الشقيقة والصديقة التي أدانت حرباً استعمارية شنتها فرنسا على الجزائر، والتي نصرت قضيتنا العادلة بعونها وتأييدها .

الى الفرنسيين الواعين - في الجزائر وفي فرنسا - الذين تحملوا المسؤولية والمخاطر في كفاحهم الى جانبنا .

أهدي هذا الكتاب .»

بهذه الكلمات قدم الزعيم الجزائري فرحات عباس (رئيس حكومة الجمهورية الجزائرية الموقتة سابقاً، ورئيس الجمعية التأسيسية الآن) كتابه « حرب الجزائر وثورتها » Guerre et Révolution D'Algerie » الذي يقع في ثلاثة اجزاء، ظهر الجزء الأول منه حتى الآن تحت عنوان « ليل الاستعمار La Nuit Coloniale» وسيصدر الجزءان الآخران « الثاني تحت عنوان الفجر L'Aurore والثالث تحت عنوان النهار Le Jour » . في مستقبل قريب .

أول انطباع يتركه الكتاب في نفس القارىء هو ان المؤلف لايريد من هذه الاجزاء الثلاثة التي يكتبها، ان يضع كتاباً **تاريخياً** عن الجزائر، بل لايريد ان يكتب التاريخ للتاريخ، انه يريد ان يسجل شهادته عن احداث الجزائر . فقد عاش محنة وطنه، حين كانت الجزائر مطوقة بنير استعمار رهيب، يريد مسخها، وافقادشعبها هويته وأصالته . وعاش ثورة الجزائر اللاهبة، كما شارك فيها، وهي ثورة غلت في مدى سبع سنوات ونصف السنة ذل مئة واثنين وثلاثين عاما، لم تترك فرنسا خلاله وسيلة همجية إلا واتبعتها لاذلال هذا الشعب العربي الطيب، لابعاده عن تاريخه الحقيقي، عن جذوره الاصيلة التي كانت تقوم بقاءه وتحفظ وجوده .

كتاب فرحات عباس، ليس كتابا للتاريخ، ولكنه موقف لبطل جزائري عربي، يتمتع بثقافة عميقة، وفكر نير، بطل عاش احداث الجزائر في نفسه، كما عاش هو مأساة الجزائر، فهو هنا يقدم « إفادته » دون حقد، كما يقول وبلا هوى محاولا تحديد مسؤوليات الجزائريين، ومسؤوليات الفرنسيين، وبخاصة اولئك الذين تزعموا مقدرات فرنسا خلال السنين الاربعين الاخيرة . انه يريد ان يبين للاجيال الناشئة من الجزائريين كيف ولماذا تمكن وطنهم من تحطيم الاسطورة التي ظلت فرنسا تنادي بها طوال قرن وربع قرن، اسطورة « الجزائر الفرنسية » ثم تبددت كما تتبدد فقاعات الصابون .

. . .

« ليل الاستعمار » مظلم قاتم على المستعمر والمستعمر معاً . انه رهبة تقطع الانفاس ، تجلب الدمار للانسان، للبشر كلهم . **لأن الاستعمار بحكم منطقه « يقوم على تجاهل الواقع ، واقع الشعوب ، وعلى انكار حقها العادل المشروع » . انه شريعة الغاب : القوي يفتك بالضعيف .**

وتجلى الاستعمار الفرنسي بأبشع أساليبه في الجزائر ذاتها . كان قوة تدمير جشعة ، لاتقف عند حد . بل لقد جعل من هذه القوة علماً ، وأنشأ الى جانب المدارس العسكرية ، معاهد لما أسماه « بالعلوم الاستعمارية Sciences Coloniales » وهي تعلم فنون الكذب والخداع، وتلقن أساليب استغلال الاباء ، وتلفيقها ، وتزييف الحقائق التاريخية ، وإظهار الاستعمار بمظهر الرحمة التي تحمل الحضارة مجاناً الى الشعب المغلوب على أمره ثم اظهار هذا بمظهر شعب شرير ، يحرص على الاضطراب والفوضى .

لقدعاشت فرنسا على هذا أكثر من قرن . انه كذب ، أناخ بأثقاله على حرب الجزائر ، فغدا كنت مظاهر الحقيقة والصدق ، وبذلك ضلل كثيرين ، دون أن يتمكن من حجب الحقيقة .

« لقد فشل الاستعمار الفرنسي في احلال الاوروبيين محل الشعب الجزائري واخفق في توطين الجماهير الاوروبية فوق ارض الجزائر .

غير ان الاستعمار قد قلب حياتنا رأساً على عقب ، وكاد يوقعنا في الهوة . لقد أدمانا ، وكانت أعجوبة منا أننا لم ننته الى ماانتهى اليه الهنود الحمر . »

ان التسلط قد دمر ، على مر العصور ، مجتمعات كثيرة ، وخرق قوانين تاريخية ، وأذل شعوباً . غير أن طبيعة الأمور كانت هي الاقوى . وكان التاريخ يعيد الأمور الى نصابها ، بشكل أو بآخر .

وإن مايلفت النظر الى انسانية اليوم، أنها أصبحت تمج الاستعمار وتمقته في مختلف أشكاله وألوانه . **« ان عالماً جديداً يولد اليوم . وقد آن للاسرة البشرية الكبرى ان تعيد النظر في جميع مفاهيمها القديمة ... اننا نعيش عصراً يتسم بدخول قوى فتية الى المسرح العالمي . لقد ظهرت شعوب جديدة ، واستعادت شعوب اخرى حريتها السليبة . هذه وتلك تشعر بشخصيتها ، وبأن يكون لحضارتها مكان محترم . وطبيعي جداً ان يكون لهذه الشعوب ايضاً نصيبها في توزع الخيرات والمسؤوليات . »**

. . . .

انطلق الاستعمار الفرنسي في الجزائر من

مبدأ زائف كبير : **لقد أرادت فرنسا أن تقلب قطعة من العالم العربي الى قطعة من اوروبا** . ولكن هذه هي المشكلة التي مافتئت فرنسا تعمل جاهدة على تذليلها ، على تحويلها الى حقيقة ، وهي في أساسها وواقعها باطل . وتلك في الوقت ذاته هي المأساة التي فرض على شعب الجزائر أن يواجهها وأن يجترها ، وأن يكافحها خلال أكثر من قرن وربع قرن.

ذلك بأن الاستعمار الفرنسي لم يدخر وسعاً في هذا السبيل : استعباد الجزائريين وإذلالهم ، تجريدهم من هويتهم الاسلامية ، وهويتهم العربية. لقد أمعن في استعمال مختلف ضروب العنف والشراسة والفتك بحق شعب عربي باسل **« كان يدافع دفاعاً مستميتاً عن كل شبر من أرضه وعن كل جزء من تراثه العربي والاسلامي »** (١) .

ومنذ مئة وثلاثين عاما أثيرت مشكلة لم تتمكن أية حكومة فرنسية ولا برلمان فرنسي من الاجابة عنها : (٢) **ألا يحق للجزائري ، لابن الجزائر بوصفه عربياً يحمل تراث حضارة جميلة ، ولغة وتقاليد ، ألا يحق لهذا الجزائري أن يدافع عن هذا التراث وأن يظل منتمياً له** ؟ الواقع ان الاستعمار الفرنسي كان على درجة من العمى لم يمكنه من فهم أي واقع . وأكبر دليل على ذلك ، « الاسلوب السيكولوجي » الذي اتبعه بحق الجزائر ، فقد أخذ ضباط الجيش الفرنسي ، أثناء الثورة الجزائرية التحررية ، يثقفون من كتب ماوتسي تونغ على الحرب السيكولوجية ، ولكنهم لم يدركوا بأن هذه الحرب السيكولوجية التي ابتدعها وطبقها الزعيم الصيني انما كانت من أجل تحرير بلاده لا من أجل استعباد بلد أجنبي !!

من هذا الزيف الكبير الذي أشرنا اليه ، نشأت أسطورة ما يسمى « بالجزائر الفرنسية » . ان هذا التعبير بحد ذاته ، يعتبر إهانة للمنطق السليم. ان الصورة الأمينة « للجزائر الفرنسية » « تعني أنها تتألف من عشرة ملايين جزائري ، مهملين في الصف الاخير من مجتمع يريد أن يكون حديثاً ومتحضراً ، ومن ثمانمائة الف أوروبي. قادمين من مختلف الآفاق يتبوؤون المناصب العليا والوظائف الحساسة ، ويغتصبون ثروات بلد ما انفك يعتبر نفسه بلداً عربياً .. كانوا يقولون لنا

(١) ص ٢٤ .

(٢) كان بلوغ الجزائر استقلالها في هذه السنة هو الجواب الاخير والقاطع على هذا التساؤل.

حين كنا نطالب بحقنا من المدارس، اننا غير جديرين بالتربية والعلم؛ لقد عمل الاستعمار على تدمير ثقافتنا العربية، دون أن يعلمنا ثقافته. أغلق في وجوهنا أبواب المدارس العليا والمدارس الفنية، ليتهمنا فيما بعد بالتخلف وعدم الكفاءة. والحقيقة هي أن جبهة التحرير الوطنية قد كونت في مدى ست سنوات من الفنيين الجزائريين مافاق عددهم جميع الفنيين الجزائريين الذين كونتهم فرنسا خلال قرن كامل».

ان النظام الاستعماري، بحكم طبيعته وجوهره، لايكون طلائع، بل عبيداً.

على أن اسطورة «الجزائر الفرنسية» لم تبق مجرد وهم، ولا محض حلم اخترعته مخيلة الاستعماريين الفرنسيين لالهاء الناس به. فلقد صدق المسؤولون الفرنسيون الحلم الذي ابتدعوه وراحوا يعملون على اقناع الرأي العام الفرنسي والعالمي بصحة «حقيقتهم». فكانت تلك المآسي التي استمرت منذ ١٨٣٠ وحتى آذار ١٩٦٢ اذ تم الاتفاق على وقف اطلاق النار في الجزائر واعتراف فرنسا بحق الشعب في الجزائر أن يقرر مصيره ـ اي استقلاله ـ بنفسه.

. . .

وإذ ان الهدف قد ارتسم في ذهن المستعمر الفرنسي، وهو يقوم على جعل الجزائر العربية «جزائر فرنسية»، فلابأس من اتباع اية وسيلة لبلوغ الهدف. ان على من يتبنى الهدف أن يتبنى الوسيلة ايضاً... بهذه العقلية بدأ غزو الجزائر سنة ١٨٣٠، وبهذه العقلية استمرت فرنسا تتحكم في الجزائر. مادام الهدف محدداً، فلتكن الوسيلة ابادة هذا الشعب، وطمس معالم تاريخه، وحضارته، ولغته. ان على فرنسا ان تفني شعب الجزائر. اليكم ما كتبه احد الفرنسيين الذين كلفوا بهذه المهمة: «لقد تمركزنا في داخل الجزائر، ورحنا نحرق، ونقتل، وندمر كل مايقع تحت ايدينا. ثمة بعض القبائل التي مازالت تقاوم، إلا اننا طوقناها من جميع الجهات لنسبي نساءها واطفالها وأنعامها... ذلك، ياصديقي مايجب ان تكون عليه حربنا مع العرب. يجب ان نقتل جميع الرجال حتى سن الخامسة عشرة، وان نسبي جميع النساء والاطفال ونحشرهم في السفن ونرسلهم الى جزر ماركيز او الى اي مكان آخر بعيد. (من رسائل الكولونيل مونتانياك، سنة ١٨٤٢).

وتفتق الاستعمار الفرنسي عن ابشع صور التخريب والوحشية بحق ابناء الجزائر. كان الجنود يأخذون سكان القرى والمدن وماعندهم من بهائم، فيكدسونهم في كهوف، ثم يسدون ابواب الكهوف بالطين، ويتركون الناس في داخلها يموتون اختناقاً. حدث ذلك لعشرات الالوف من الجزائريين في ازمنة متفاوتة، في عهود مختلفة؛ **لقد تقلبت على فرنسا عهود سياسية**

عديدة ، الا ان العقل الاستعماري الاجرامي ظل هو هو لم يتبدل بل امعن في اثمه وظلامه . ان ليل الاستعمار مظلم ، وقد كان « ليل الاستعمار » في الجزائر طويلا ، قاتماً ، رهيباً .

. . .

في القسم الثالث من الكتاب ، يتحدث فرحات عباس عن تجربته وتجربة ابناء جيله ، ازاء المأساة التي كانت تعيشها الجزائر . لقد جعل الاستعمار الفرنسي ابناء الجزائر كلهم يصرفون قواهم ويتجهون باهتمامهم وجهدهم الى مقارعة الاستعمار . «لم تكن السياسة بالنسبة لي ، كما لم تكن بالنسبة لعدد كبير من اصدقائي ، موهبة او مهنة . لقد دخلنا الى السياسة ، لانه كان علينا ان نفعل ذلك ... ان شقاء بلادي هو الذي دفع بي الى ميدان السياسة . ولو أن فرنسا وجدت حلاً لاعادلة للمشكلة التي كانت مطروحة على شعبنا ، لكان من الراجح ان اقتصر في نشاطي على « العناية بحديقتي » . ولكن ايمكن لانسان ان يعيش لنفسه حين يرى آلام رفاقه ، والمظالم التي تحل بهم ، قد اصبحت من المشاهد اليومية الدائمة ؟... سألني احد الصحفيين حين كنت في دلهي الجديدة ، في شهر آذار ١٩٥٩ : « هل تستطيع ان تقول لي ياسيادة الرئيس ، ماذا كنت تحب ان تعمل ، خارج العمل السياسي ؟ وأجبته في الحال ودون تردد كنت احب ان اعمل في الزراعة . »

ثم يستعرض الكاتب فيما بعد تاريخ الكفاح الذي نهضت به مدينته واهله الفلاحون خلال عشرات السنوات ، ويبرز الدور البطولي الواقعي الذي كان يتجلى في سلوك ابناء الجزائر ، وهم يواجهون اعتى قوة استعمارية عرفتها الشعوب .

« لم يعرف أحد استعماراً فاق في غشمه وطاغوته ، استعمار فرنســا للجزائر . وما من نظام استعماري بلغ الشراسة في تحطيم شعب مغلوب على امره ، كالنظام الاستعماري الفرنسي .. حين كان الجزائري يقول للمشرعين الفرنسيين انه عربي كان هؤلاء يجيبونه : « لا انك فرنسي » فاذا ما وافقهم على قولهم وطالبهم بالحقوق الممنوحــة للفرنسيين ، اجابوه هم أنفسهم قائلين : « لا .. إنك عربي » .

كان شعب الجزائر منذ الغزو الفرنسي سنة ١٨٣٠ يندد بعملية الاغتصاب التي قامت بها فرنسا ويطالب بجلاء قوات الاحتلال عن ارضه . في سبيل هذا الجلاء ، تحمل نكبات لاحد لها كما

قلنا ، كما تحمل تضحيات لم تزده الا اصراراً على التشبث بحقه . وازاء هذا الاصرار ، كان لابد لفرنسا من أن تفتح أعينها على الحقيقة ، ولكنها كانت تواجه مطالب الشعب بالكذب . كانت تتظاهر بقبول مطالبه المشروعة وتخفي في الوقت ذاته خططاً جديدة في التآمر والارهاب . كم مرة طالبت الجزائر فرنسا ان تحترم حقوقها ، أن يعامل الجزائريون على أقل تقدير ، كما يعامل الفرنسيون انفسهم ، ولكن فرنسا ، وهي تسمع هذه المطالب كانت تزيد من اساليب العنف والهمجية . كان شعب الجزائر يطالب بالمساواة مع الشعب الفرنسي ، رغم علمه ويقينه بأن هذا الطلب مستحيل ، **«فهو شعب ينتمي الى الشرق الاسلامي ، ينتمي الى الأمة العربية . كان الجزائري في جميع العهود يفخر بقوميته الاسلامية .»**

ومع ذلك استمرت محاولات الزعماء الجزائريين في اقناع المسؤولين الفرنسيين بأن الجزائر لايمكن أن تستمر في السكوت على المنطق الاستعماري وما يتجلى به من سباط وإرهاب وخراب . ولم يدخر هؤلاء الزعماء فرصة ولا وسيلة إلا لجأوا اليها . غير أنهم كانوا يرتطمون بصخرة صماء على حد تعبير فرحات عباس . كانت النار تتأجج تحت الرماد . كان الشعب بمجموعه يتحين المناسبة لينقض كالصاعقة في طريق تحقيق أمانيه ، وفي السنوات التي انقضت بين ١٩٤٠ وبين اندلاع الثورة العارمة سنة ١٩٥٤ تقدم فرحات عباس ورفاقه من زعماء القيادات الوطنية بالعديد من المطالب وقابلوا كثيرين من الساسة الفرنسيين ورجال الحكم المختلفين ، فلم يصغ أحد الى تحذير الجزائر وانذارها . وكانت سنة ١٩٥٤ سنة القنوط المطلق من أن تدرك فرنسا بأن عليها أن تصلح الاوضاع في الجزائر ان شاءت أن يقوم شيء من التفاهم بينها وبين شعب الجزائر . لقد ظلت فرنسا أسيرة النظام الاستعماري الذي هو شقيق النظام الفاشستي على حد تعبير فرحات عباس ، **«ولا يمكن لهذين النظامين أن يعيشا إلا على الكذب والعنف . لقد التقيا سنة ١٩٤٠ وتعانقا وتآخيا . اننا نضيع وقتنا سدى في محاولة اعطائها طابعاً انسانياً . انهما لايقبلان الاصلاح . ان الطابع الانساني غريب عنهما .»** والنتيجة التي انتهى اليها شعب الجزائر بقادته وافراده من مختلف فئاتهم ، هي ان من العبث التفاهم بصورة سلمية وشريفة مع فرنسا على ايجاد حلول مناسبة ، وان على الجزائر أن تحمل السلاح حين تتمكن من ذلك . هذا ماحدث يوم الاول من تشرين الثاني ١٩٥٤ حين اعلن مجلس الثورة الجزائرية الكفاح .

. . .

في القسم الرابع من الكتاب يتحدث فرحات عباس عن انتقال الكفاح الجزائري من مرحلة الخفاء الى المرحلة السافرة ، مرحلة قيام جبهة التحرير الوطنية وحرب الاستقلال ، وهو يستشهد بجملة للكاتب الفرنسي الحر فرانسيس جانسون

من كتاب Francis Jeanson « الجزائر المتمردة على القانون L'Algèrie hors la loi » : « من الضروري أن يكون ثمة نوع من الوحدة في الكفاح . ولكن هذه الوحدة تتجسد وتتبلور ، في الكفاح ذاته . »

بدأ الكفاح الاخير بقيام حزب الشعب الجزائري Parti du Peuple Algérien سنة ١٩٣٧ . وقد تشكل الحزب من نفر من الجزائريين الوطنيين ، من ابناء الشعب الكادح ، وأصدر جريدة اسبوعية « الشعب » باللغة العربية ، فما أن ظهر العدد الاول منها حتى قامت السلطات الفرنسية باعتقال هيئة التحرير وزجت اعضاءها في السجن ، وأذاقتهم ألوانا من التعذيب الرهيب . ثم اعتقلت اعضاء آخرين من قيادة الحزب ، وظنت انها قضت على نشاطه . غير ان الحزب استمر قائماً ، بل ازداد قوة بانضمام مناضلين جدد اليه . وفي سنة ١٩٣٩ أصدر الحزب جريدة اسبوعية باللغة الفرنسية « البرلمان الجزائري Le Parlement Algérien » غير أن عمرها لم يطل . فقد قامت الحرب العالمية الثانية في ٢٩ ايلول ١٩٣٩ ، وصدر قرار فرنسي بحل حزب الشعب الجزائري وإيقاف جريدته . وهكذا أصبح نضال الحزب سرياً ، خاصة وأن كثيراً من زعمائه قد اعتقلوا وحكم عليهم بالسجن دون حجة قانونية . وكان السجن بالنسبة اليهم مناسبة ، جعلوا منه مدرسة ، يتبادلون فيه آراءهم الثورية ، ويضعون خطط الكفاح التحرري . كانوا يلقون المحاضرات والاحاديث على باقي السجناء الجزائريين ويوضحون لهم أهداف الحزب وغايته في النضال من أجل حرية الجزائر ، من أجل استقلالها . ويمكن القول أن خميرة الاستقلال الذي نالته الجزائر في هذه السنة ، قد بدأت في السجون والمعتقلات .

في سنوات الحرب العالمية الثانية كان الشباب والطلاب والعمال الجزائريون يزيدون من ثقافتهم القومية ، ويزدادون تأهباً واستعداداً للمعركة . وظهر فرق واضح بين جيل الآباء وجيل الابناء . فقد أخذ هؤلاء ينظرون الى التحرر الوطني من اطار الصراع الانساني القائم بين معسكرين في ذاك الحين . وانتشرت آنذاك مبادىء روزفلت بحق الشعوب في التحرر من الجهل والفقر والمرض . ورغم ان شعب الجزائر كان يتساءل فيما بينه عن مصير الانسانية ، وعن مصيره في الصراع الذي كان قائماً ، فان قضية تحرره الخاصة لم تغب عن باله مطلقاً .

وازداد الشعور الوطني لدى اجيال الشباب الجزائريين تأججاً حين نظمت فرنسا المذابح الرهيبة سنة ١٩٤٦ في منطقة سطيف وغلمه . وعاد حزب الشعب ينظم صفوفه من جديد ، كما اشتد نضاله السري . « وتجلت ارادة التحرر بكل قوتها وعنفوانها عند جماهير الشعب ، فأصبحت تؤكد عزمها بمختلف الوسائل على أن تمارس حياة قومية صحيحة . » وانبثقت عن حزب الشعب حركة جديدة اسميت حركة التنظيم الخاص

وهي ذات طابع عسكري كانت مهمتها الاعداد لحركة التمرد الشعبية . وبقيام هذه المنظمة بدأت الروح الثورية تتجسد ، فكان عدد كبير من المناضلين الشباب الجزائريين يذهبون خفية الى الجبال ويمارسون التدرب على استعمال الاسلحة وراح فريق منهم يتخصصون في اصلاح الاسلحة وتنظيم العتاد العسكري ، ووضع خطط عملية للكفاح . كان التدريب على غاية من التنظيم وفي جو من السرية التامة . كان النظام دقيقاً . وبدأ تنظيم حرب العصابات وحرب الفدائيين . كانت قيادة المنظمة تختار لعمليات التدريب شباناً موثوقين شجعاناً ، كانت تعبئهم تعبئة عسكرية غير محدودة الأجل .

في سنة ١٩٥٠ كانت المنظمة قد اعدت العدة لاشعال الثورة في الجزائر ، الا ان حادثاً اعتباطياً اخرق جعل سلطات الامن الفرنسية تكتشفها وتتعقب آثارها ، فاعتقلت عدداً من زعمائها من بينهم بوضياف وبن بيلا وبن طوبال وبوصوف ، وهكذا تأجل مولد انطلاق الثورة.

وعادت المنظمة الى تنظيم صفوفها من جديد ، وما ان جاء صيف سنة ١٩٥٤ حتى كان كل شيء جاهزاً للانطلاق في الساعة المحدودة .

« أصبح علينا ألا نضيع الوقت ، ان العدو يتربص بنا ، وهو يمتلك وسائل قوية ، ونخشى في أية لحظة ان يكتشف جهازنا الثوري الذي تعبنا في تنظيمه ، ان جهاز البوليس مخيف . ويجب ألا نوفر أية حيطة » .

وهكذا انطلقت الرصاصات الاولى من حرب الجزائر الظافرة ، صبيحة اليوم الاول من تشرين الثاني ١٩٥٤ . وما لبث أن امتد لهيبها الى جميع انحاء الجزائر . « لم يكن شبابنا وحدهم هم الذين صعدوا الى الجبال لينتصروا أو يستشهدوا ، بل لقد رفع شعبنا كله رأسه ، وأصغى الى نداء الحرب . وأدرك انها تختلف عن سائر الحروب التي سبقتها ، والتي عرفها آباؤنا ، بل ادرك أن هذه الحرب هي حربه بالذات . »

هكذا انصهرت « جبهة التحرير الوطنية » بالشعب الجزائري ، وهكذا تحول شعب الجزائر بأسره الى « جيش التحرير الوطني » . وكان طبيعياً ان ينتصر الشعب ، لان قضيته عادلة ، ولأنه لم يعد ثمة سبيل الى التريث أو المهادنة .





شعراء نجد المعاصرون

تأليف الاستاذ عبد الله بن ادريس في ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط طبع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٦٠

نقد وتحليل الدكتور زكي المحاسني

ألا حيا نجداً ومن حل بالحمى
وحق لنجد عندنا أن تكرما

بيت من الشعر دار على لساني ، كنت أدمدم في إنشاده تطريباً ، وتندفع النفس توافة الى مشاهدة هاتيك الربوع التي كانت في دنيا العرب مطالع الشعر .

وراح بيت آخر يزاحم هذا البيت في إنشادي إذ جاء يحمل في طياته لهفــات هوى من قول شاعره ، وهو يخاطب محبوبته التي ولهته حبـاً وضاع خبره في ضمير الزمان ، كما ضاعت هي في الوجود:

إن تهمي فتهامة وطني
أو تنجدي إن الهوى نجد

لقد أخذت أذكر هذا الشعر ، وأنا أرى الى كتـاب (شعراء نجد المعاصرون) لمؤلفه الاستاذ عبــد الله بن ادريس . وقد جعله في شطرين ، واحد جاء دراسة للحياة الادبية العامة والافكار المتعلقة بموضوع الشعر والادب ، وما كان من أمر الشعر المعاصر وتدرجه وتطوره ، وما نصيب البلاد النجدية منه ومن هم شعراؤها. وإبراز نماذج من آثارهم ،وهوالشطرالثاني .

وقد طافت بي نشوة فكرية ، حين أخذت أسرح النظر في هذا الكتاب ، وأجده هبة من هبات الشعر تطيف أنسامهــا بنجد ، رقرافة هفهافة . ففي كلام المؤلف الفاضل على «مركز نجد في الشعر» إلمامة مختصرة وموضحة للغرض الذي كان من أجله الكتاب . ولكن مهما يكن من أمر الاقتضاب والاستغناء ، فان بحثاً اذا تناول الشعر في نجد ، لابد له من أن يشير ـ ولو بتعريج عابر ـ الى كتاب (في الادب الجاهلي) للدكتور طه حسين ، إذ كان في تاريــخ الادب العربي الحديث قد أبان منذ سنة ١٩٢٦ مالنجد من المنزلة العليــا في شعر العرب وإصدار الشعراء

الأقدمين . وهذا مالم أجد أثراً له في كلام المؤلف على « مركز نجد في الشعر » وأنا عذيره ، إذ كان كلامه سيتجه الى نجد المعاصرة . لا الغابرة .

ثم اتجه بعد ذلك الى معالجة موضوع خطير ، لايستطيع أي باحث مهما يحذق الكلام إلا أن يمسه بقفاز من حرير . وهو موضوع الفكرة الوهابية ، والاصلاح الاجتماعي وحرية الرأي التي كان « محمد بن عبد الوهاب » من أوائل الداعين اليها في العصر الحديث ، فأخذ المؤلف الفطن ينضو عن دياره مانشب فيها من التهم حول ذلك الأمر ، حتى أبان حقيقة النهضة الفكرية المعاصرة في بلاده . ولم يكن الدكتور طه حسين ، وهو معلم الأدب في هذا العصر ببعيد عن المؤلف الذي رأى في كلامه على (الادب في جزيرة العرب) عناية بالشعراء النجديين الذين دعموا الحركة الفكرية ومشوا في التطور المعاصر .

ويبدو المؤلف ، في هذا الموضع من كتابه ، في أدق مايتصرف فيه من البحث إذ يصور الثقافات التي تتلاطم ، وما يؤدي تلاطمها من التطور ، فنجد نجداً في معزل ، وأن ماصدر منها كان من نتاج أرضها وجوها ، وأن ليس من دامر قد دمر عليها غريب يمكن أن يحدث حدثاً في الفكر والشعر ، وقد تبينت أن المؤلف ذو منهج علمي في بحثه ، يريد أن يطبع بطوابعه الأدب ، إذ كان يقسم آراءه ويزجي بها واحداً بعد واحد ، وهو يضع ملامس القارىء على تلك الأفكار ، فهو في كلامه (على الشعر المعاصر وعوامل تطوره) عرضه في معارض عامة ومظاهر خاصة ، ثم أعاده إلى المياسم العربية الكبرى ، فتتبع ما أثر في تطور الشعر العربي المعاصر ، ذاكراً في ذلك أثر التعليم واللقاح الفكري الغربي ، وما هزت في كيان العرب نكبة فلسطين وسوى ذلك من عوامل الاستعمار ، وما كان لرفد الصحافة والاذاعة والمكتبات من أثر في الانبعاث بعيد .

ولم يفوّت على قارئه اللهيف الصراحة الضاحية في ايراد الحكم ، واستخلاص النتائج ، ومن هنا بلغ اعجابي مبلغاً وسيعاً ، اذ وجدت مؤلفاً واعياً ، بين يدي الشعر المعاصر في بلاده ، يتبسط في نظراته العلمية الحتمية ، من أجل الادب ، وقضية الفكر.

وفي دراسته الاتجاه الشعري في نجد تراه كثير العلم بتأثير الارض على منابتها ومغارسها ، فيرى الشعر الحديث وليداً بعد القديم ، ويسمي القديم بالشعر التقليدي وهذا لا أقره في تاريخ الادب لأن تراثنا العربي القديم منذ عهود الشعر في الجاهلية حتى أمسك بطرفها الاخير الشاعر الخالد أحمد شوقي هو بقيا بين أيدينا من المنظوم العربي الجبار ، الذي نغالي به لأنه لحم اوطاننا ودمها .

إني لا أعد الناظمين ، كيفما يقولوا الشعر شعراء في قديمه أو حديثه ، وما كنت أعلم أن صديقي العزيز فيلسوف الادب الدكتور غنيمي هلال سيكون لكتابه في « الرومانتيكية » تأثير في هذا المؤلف اللبق يجعله ناسخاً للشعر القديم من أجل الشعر الرومانتيكي الحديث ، ولو علمت بذلك لكان لي موقف على حمله واعادة النظر في نظراته ، وما كنت أعرف له قولة في تقويض تراثنا الشعري القديم .

وقد أخذت مني مأخذها عبارة المؤلف هي: (المد الفكري) وكيف أصاب نجداً وشعراءها، ثم أتبع القول بعامل لعله هو الأصل في بعث الشاعرية لدى الشعراء، وهو « الحب » .

وقد عجبت من المؤلف أن لايكون شعراء نجد قد تيمهم « الحب » حتى أصبحوا معاميده، فلم يقولوا الشعر في آمادهم المنبطحة وما في حياتهم من صليبة العروبة . ولكن يحسبهم ان أرائهم يخافون ماخاف منه مواطنهم قيس بن الملوح العامري، وماجرعليه الحب من العنت والتشريد، وكان بحسب الحب أن يملأ قلوبهم وجداً نابعاً من نحو جبل « التوباد » الذي يرقد في سفحه « قيس » وينوح الصدى عليه في حنادس الدجى، منذ موته حتى لياليه في عصرنا، بدموع ليلى وشعر شوقي الذي تردده البيد :

إن يشركوني في ليلى فلا رجعت
جبال نجد لهم صوتاً ولا البيد

ثم يبتدر المؤلف بطوابعه العلمية التي دللت علها مواطن الواقعية في الشعر النجدي والعوامل التي مشت بالشعراء على أديم الواقع ، بعيدين عن عوالم التأمل والخيال. وأنا لا أريد لهم ذلك، لأن غذاء الشعر في انسراح خيالاته وانبساط تأملاته ومطالع تهاويله . أما الواقع فجاف، دعه لعالم الفلسفة ومدار الاجتماع، ومجالات العلوم .

وأما قسم الشعراء ونماذج أشعارهم، فقد بدا لي في وضعين، واحد اتباعي والآخر يحاول ان يكون إبداعياً، ولم أرد بهذا الرأي شكل النظم. أما هذاالشكل الذي يعبر به بعض المحدثين ويريدونه شعراً، فقد بدا شتيتاً بنثره، غائم الفكرة، في بعضه اضطراب وفي بعضه الآخر قلة عناية بلغة العرب .

وفي المجموع المختار نماذج من الشعر الرصين يصح لنجد معه أن تفاخر وان تكاثر، وهو ملىء بالوعي، دفاق بالشعور، يهز الفكر، ويفرض وجوده على الادب العربي المعاصر . وهو طاقات أزاهير من بساتين نجد يطل على شطآن بردى حاملاً نفحات الغوطة الشامية، وكم كنت أوثر أن أجد في تلك النماذج النجدية القصائد والمقطعات التي تفوح بعبير من عرار نجدفتصور النخيل وحلاوة التمور، قصائد حوافل بالنسيم الصحراوي الذي وصفه لنا شعراء الجاهلية صادراً من مدارات العروبة في ذلك الحمى القديم المراح .

ولعلي لا أحرم النفس من ذلك التمني إذ أقرأ في الكتاب قصيدة (مناجاة نخلة) للشاعرالنجدي المعاصر (ابن جهيان) فأشم وأنا ابن القرن العشرين عطر العرار والقيصوم من صوب نجد، وأتمثل أعطاف النخيل متماوجة دلالاً على أيدي النسيم .

من وحي الف ليلة وليلة

لمؤلفه فاروق سعد

عرض عبد الرحمن بدر الدين

يقع هذا الكتاب في ٣٢٨ صفحة من الورق الابيض الجيد وهو من منشورات المكتبة الاهلية في بيروت ويتضمن عرضاً لاثر الف ليلة وليلة في الشعر والقصة والمسرح وادب الاطفال ، وقد وعد المؤلف بأن يتضمن الجزء الثاني من الكتاب اثر قصة الف ليلة وليلة في الموسيقى والفنون التشكيلية والسينما والصحافة والاذاعة والتلفزيون.

وقد قسم المؤلف الجزء الاول من كتابه الى توطئة وتمهيد واربعة ابواب يتضمن كل باب عدة فصول ويختتم بتعداد للمصادر التي رجع اليها من اجنبية وعربية . كما تضمن الكتاب عدداً من الصور تمثل نماذج من الدمى المتحركة وغلافات لمجلات الاطفال .

مضمون الكتاب : يبدأ الكتاب بتوطئة حول احياء التراث الشعبي وارتباطه بنشوء الفكرة القومية . مستشهداً في ذلك بأقوال الأخوين جريم Grimm الالمانيين ، وبوسلايف الروسي ، وماكس مولر الانكليزي ، وبكتت Pectet الفرنسي ... كما يشير الى بعض الابحاث العربية التي كتبت حول التراث الشعبي كأبحاث نعوم شقير ويوسف هانكي الشامي، وابراهيم فارس... الخ ، وينتقل المؤلف بعد ذلك الى التعريف بكتاب الف ليله وليله فيحدث عن ماهيته وسبب التسمية مستعرضاً في ذلك مختلف الآراء ثم ينتقل الى زمان ومكان تدوين الكتاب والمخطوطات التي وجدت له فالطبعات الاولى واولى ترجماته . فالابحاث التي كتبت حول اصول حكايات الكتاب. ويختتم المقدمه بالحديث عن عالم الف ليلة وما تطرق اليه من بيئات وبلدان وصحاري وارياف ومواصلات ، فالعلاقات العامة كالتجارية والاعياد ومجالس الشرب والرقص فالنماذج التي وردت في قصص الكتاب من ملوك ونساء وتجار وحرفيين وصعاليك وشحاذين وشطار وقطاع طرق . اما بالنسبة للخوارق التي وردت في قصص الكتاب فيقسمها الى قوى خارقة وادوات خارقة ، والسحر ، والكنوز ويقول بأن المعارف الانسانية في الف ليلة وليلة تدور حول الثقافة العامة والأدب ؛ الفنون التشكيلية ، الموسيقى والعلوم ، وينتهي الى القول بأن كتاب الف ليلة وليلة جزء اصيل من تراثنا الشعبي ، والمؤلف في كل هذا يسير على هدي من كتاب الف ليلة وليلة للدكتوره سهير القلماوي من حيث البحث والتبويب

الباب الاول : يقدم المؤلف لفصول هذا الباب ببحث لغوي حول الفرق بين كلمتي اسطورة Legende وترهة Mythe ويخلص الى القول بأن التراث الشعبي العربي يجمع بين مقومات الاسطوره والترهة بينما التراث الشعبي الاوربي يميز بين مقومات كل على الكلمتين معللاً ذلك بأن

« جماهير الشعب العربي لم تشأ أن تتخلى عما علق بذهنها وما انتقل اليها وماتوارثته من معتقدات طريفة حول القوى الخارقة . » ويقود هـذا البحث المؤلف للحديث عن انواع اوضاع الاسطورة والترهة قبل ان يستوحيها الفنان واشكال الاستيحاء العامة والخاصة مع امثلة على كل نوع . وفي الفصل الثاني يتطرق المؤلف للحديث عن مقومات الطاقة الايحائية في الف ليلة وليلة ، فيقول بأن لهـذه المقومات مظاهر شتى فهي حيناً تكمن في نطاق الحكايات العام اي الابعاد الترهية الاسطورية وحيناً آخر تتجلى في الجو الايحائي العام وهو يشمل الغموض والسياق المشوق والالوان الساحرة كما تؤلف النماذج والخوارق مظهراً ثالثاً للمقومات الايحائية . ثم يعمد المؤلف الى شرح وتقسيم كل حالة من الحالات الثلاث مستشهداً في ذلك بأمثلة من قصص الف ليلة وليلة . وفي نهاية الفصل الثاني يعرض الكاتب الى اثر قصص الف ليلة في الشعر الملحمي البيزنطي وفي الشعر الملحمي الالماني ، أما في الأول فيظهر هذا التأثير خاصة في ملحمة ديجنيس اكريتاس (Digenis Akritas) التي ترجع الى القرن العاشر ثم يعرض موجزاً عن هذه الملحمة ويقارن بين اسماء شخصياتها وابطالها وبين امثالهم في حكاية عمر النعمان . ويعرض المؤلف خلاصة لملحمة النيبلو نجليد (Nibeloing euleid) التي ظهرت في جنوب المانيا في القرن الثـاني عشر ويبرز اثر الف ليلة في هذه الملحمة فالخاتم السحري الذي ورد فيها هو خاتم سليمان ، وطاقية الأخفاء بما تؤديه من خلافات هي نفسها التي في الف ليلة وسيف نونونج هو سيف الشمردل ... الخ ، وفي الفصل الثالث من هذا الباب يتحدث المؤلف عن اثر الف ليلة وليلة في قصائد الامثال الفرنسية فيقول بأن التأثير يظهر عند فلوريون (Florion) في قصـة الاعمى والمقعد . أما التأثير في الشعر الرومانطيقي في القرن التـاسع عشر فيظهر في شرقيات هيجو وفي الديوان الشرقي لجوته وفي الأدب كوبلاي خان لكولريدج ... كما يظهر التأثير في الرمزي الاوربي فيعتبر ان مواد قصص الف ليلة وليـلة هي مواد خام لخلق صور شعرية تجرد الواقع الذي هرب منه الشاعر الرمزي . ويفرد الكاتب الفصل السادس من هذا الباب لأثر الف ليـلة في الشعر العربي الحديث فيقول بأن هذا الأثر يبرز في ثلاث مجالات : الاول يختص بأثر شخصية شهرزاد ، والثاني يتعلق بأثر بساط الريح في شعر المهجر والثالث يدور حول شخصيـة السندباد البحري . ثم يورد المؤلف امثلة شعرية لـكل من هذه الانواع الثلاث كقصيدة شهرزاد أو سحر الحديث لعباس محمود العقاد ، وليـالي شهرزاد لاحمـد خميس ، والحريم لعبد الوهاب البيـاتي ، وشهرزاد القرن العشرين للدكتورة عاتكة الخزرجي ... الخ هذا بالنسبة للمجـال الأول ، أما بالنسبة لبساط الريح فيورد قصيدتين الأول هي بساط الريح لفوزي المعلوف والثانية لجورج صيدح . اما المجال الثالث فان المؤلف يستشهد بصورة عدة قصائد منها السندباد البري لنجيب سرور ورحله في الليل لصلاح الدين عبد الصبور ، ووجوه السندباد لخليل حاوي ومدينة

السندباد لبدر شاكر السياب .. الخ» وفي كل من هذه القصائد يحلل اديباً بعض مختارات منها ليدلل على تأثر الشعر العربي الحديث بسندباد الف ليلة وليلة.

الباب الثاني : الف ليـلة وليلة في القصة

يعقد المؤلف في التمهيد لهذا الباب مقارنة بين تأثير الف ليلة وليلة الشفهي في القصة وتأثيره في الشعر ويبرز اوجه الخلاف في ثلاث نقاط : من حيث الزمان والمكان ، والشكل ، والموضوع . ثم يورد عرضاً سريعاً لمضامين فصول البـاب ، ففي الفصل الأول يشير الى أن المستشرق ج. ب ثرند كان اول من اكتشف الصلة التي تربط الف ليلة وليلة بسيرة الفارس سيفار في مقال نشره في كتاب تراث الاسلام . ويتحدث في الفصل الثاني عن الاثر في القصة الايطالية في القرن الرابع عشر ويقول بأن المستشرق ه. ر. جب اول من نبه الى اثر الف ليلة وليلة في القصة الايطالية في القرن الثامن عشر وان التـأثير في القرن الرابع عشر يظهر في مجموعة الديكاميرون والصباحات العشر ثم يورد مقارنة كتبها الدكتور ضياء خلوصي بين مجموعة الديكاميرون والليالي . وفي الفصل الثالث يظهر اثر الكتاب في القصة الانكليزية في القرن الخامس عشر فيقول نقـلاً عن جب « ان قصة شوسر (Chaucer) المسماة حكاية الفارس التلام ليست غير واحدة من قصص الف ليلة وليلة »

اما الفصل الرابع من هذا الباب فيدور حول اثر الف ليلة في القصة الاجتماعية الاوروبيـة في القرن الثامن عشر ويقول بان التأثير نلمسه في الرسائل الفارسية لمونتسكيو ثم لجيل فيام (Fiam) يقول : « ان الرسائل الفارسية كثيراً ماتعطينا فكرة على انها قطعة من الف ليلة وقد البسها الفيلسوف الحر لباساً جديداً » ثم تطرق المؤلف الى اثر الكتاب في القصة الاجتماعية الانكليزية . اما الاثر في القصة الفلسفية فانه يظهر جليـاً في قصة صادق (Zadig) لفولتير الذي يعترف بأنه لم يصبح قاصاً الا بعد ان قرأ الف ليلة وليلة اربع عشرة مرة ، ثم يورد المؤلف بعض الامثلة من القصص الانكليزي ليوضح اثر الف ليلة في هذه القصة كقصة رؤيا ميرز (The vision of Mirza) لأديسن . وتاريخ الخليفة الواثق لوليم بكفورد وقصة راسلاس امير الحبشة لصموئيل جونس وفي الفصل السادس يتحدث المؤلف عن الاثر في القصة الدانمركية والالمانية ويقول ان التأثير يظهر منذ القرن الثاني عشر في القصص الشعبي الالماني الذي جمعه الاخوان غريم كقصة الروح المسجونة في القنينة وفي القصة الدانمركية المشهورة تكهن شيخ الجبل وقصة علاء الدين . وينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن الاثر في القصة الاوروبيـة في القرن التاسع عشر متشهداً بقصة الكونت دي مونت كريستو لاسكندر دوماس الاب . فيقول بأن المؤلف اراد ان يقدم شخصية تضاهي شخصيات الف ليلة في غموض ماضيها وفي حصولهـا على الثراء المفاجيء كما يتردد في القصة تسمية السندباد البحري وكنوز الف ليلة وليلة . اما الاثر في القصة الاميركية وفي القرن التاسع

عشر فيظهر عند ادغار آلن بو في قصة حكاية شهرزاد الثانية بعد الالف . ويختم بحث الاثر في القرن الماضي عن تأثر ادبنا الشعبي بقصص الف ليلة الذي يبرز في حكايات الشيخ المهدي التي جمعها العالم الفرنسي مارسيل من مصر اثناء حملة بونابرت . ويخصص المؤلف الفصلين الاخيرين لبحث اثر الف ليلة في القصة الاوربية والاميركية الحديثة ثم القصة العربية الحديثة . اما بالنسبة للاثر في اوربا واميركا فيشير الى بعض المؤلفات امثال : ترمل شهرزاد لهنري دو رونيه وقصة شهرزاد للكاتبة الرومانية هيلين فكاريكو وتكاد تكون نسخة عن مثيلاتها في الف ليلةوليلة ويعتقد الدكتور صفاء خلوصي ان هنالك صلة بين اقصوصة او هنري المسماة وجبة الطعام وبين حكاية علي شار وزمرد الجارية . ويظهر الاثر في القصة العربية الحديثة فيمؤلفات الدكتور طه حسين « بين اختين » وحسن مظهر « الف ليلة وليلتان » وفتحي غانم «شهرزادوالساحر» وتوفيق الحكيم « امام حوض المرمر » واحمد الصاوي محمد « عذراء تناجي شهريار » ... الخ

الباب الثالث : الف ليلة وليلة في المسرح

يتضمن هذا الباب اربعة فصول :

أ ـ اثر الف ليلة وليلة في المسرح الاوربي الكلاسيكي وخاصة الاسباني والانكليزي اذ يجد الدكتور صفاء خلوصي اوجه شبه بين مسرحية عطيل وحكاية قمر الزمان ومعشوقته .

ب ـ في المسرح العربي . نشأت هذه الصلة في القرن التاسع عشر عندما وضع مارون النقاش مسرحية بعنوان « ابو الحسن المغفل وهروت الرشيد » ثم تلاه احمد « ابو خليل » القباني فاستوحى ثلاث مسرحيات وهي : هرون الرشيد مع الامير غانم بن ايوب وقوت القلوب « وهرون الرشيد مع انس الجليس » والامير محمود ونجل شاه العجم « كما استوحى محمود واصف الف ليلة وليلة في مسرحية « هارون الرشيد مع قوت القلوب وخليفة الصياد » . وفي مطلع هذا القرن وضع توفيق الحكيم مسرحيتين استوحاهما عن الف ليلة وليلة وهما علي بابا ، وخاتم سليمان وقد مثلتا سنة ١٩٢٢ ثم مسرحية شهرزاد لتوفيق الحكيم سنة ١٩٤٣ ومسرحية سر شهرزاد لعلي احمد باكثير التي مثلت سنة ١٩٥٣ ويورد الكاتب ملخصاً لهذه المسرحيات مظهراً اوجه الشبه ومدى الاقتباس .

حـ ـ الف ليلة في المسرح الاوربي المعاصر

يعرض المؤلف ملخصاً لمسرحية شهرزاد لمؤلفها جول سوبرفيل ويدلل اثناء عرضه لتأثر هذه المسرحية بألف ليلة وليلة .

د ـ الف ليلة في صندوق الدنيا وخيال الظل ومسرح الدمى: يقدم لهذا الفصل بتعريف كل نوع من الانواع الثلاث مع لمحة تاريخية عن نشوء كل منهم . ثم يبرز التأثير الملموس في مسرحية علاء الدين والفانوس العجيب التي مثلت على مسرح اللاكسمبورغ سنة ١٩٤٦ في فرنسا . اما في تشيكوسلوفاكيا فهنالك مسرحية

كفاح الشعب السوري

تأليف الرائد احسان هندي

منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير

عرض قلم التحرير

.. كفاح الشعب العربي السوري منذ عام ١٩٠٨ حتى ١٩٤٨ دراسة تاريخية عسكرية ألفها الرائد احسان هندي وفازت بجائزة الابحاث القومية العسكرية لسنة ١٩٦٢ وان لمحة خاطفة حول الكتاب لتجعلنا ندرك قيمة الجهد الكبير الذي قام به مؤلف هذا الكتاب ، فهو قد صور فيه كفاح شعبنا الحقيقي منذ حارب ضد الاحتلال التركي وقال المؤلف في بداية الفصل الاول مشيراً الى ذلك « اجتاحت السلطنة العثمانية في اواخر القرن التاسع عشر ريح عاتية هي « روح القومية » فقد هب كل شعب من الشعوب التي كانت خاضعة لهذه السلطنة يطالب بالاستقلال او بالحكم المركزي يدفعه لذلك تشبعه بتلك الروح الجديدة التي تجعل لكل امة تملك مقومات تتميز بها عن غيرها من الامم، الحق في إنشاء دولة مستقلة يصرف ابناؤها شؤونهم بأنفسهم بدون وصي او رقيب. »

ثم اشار المؤلف الى مراحل النضال ضد الاحتلال التركي بتفصيل دقيق وتاريخي مؤيد بالارقام والشواهد ، ثم عدد اسماء الجمعيات التي أسست لتناضل من اجل فكرة الاستقلال حتى فترة الثورة العربية الكبرى فيقول المؤلف « وقد كان للسوريين اثر بارز في هذه الثورة ، فهم الذين دفعوا الشريف حسين للقيام بها بعد أن

→

قنديل علاء الدين . وقد قدمت فرقة سيرجي اوبراتزوف الروسية سنة ١٩٦٠ مسرحية علاء الدين والفانوس السحري في بيروت .

الباب الرابع

الف ليلة وليلة في ادب الاطفال

يورد المؤلف اسماء بعض القصص التي ظهرت باللغة الفرنسية في مجموعة لاروس La rousse للناشئة كقصص علاء الدين ، السندباد البحري ، تاجر بغداد ، النائم اليقظان . ثم مجموعتي (تالنديه وبياس Bias) الفرنسيتين واخيراً مجموعة مارتن (Marthen) الالمانية لكاتبها ويلهلم هوف كما يوضح اثر الف ليلة في ادب الاطفال السينمائي المعروف بالفانوس السحري وفي ادب الاطفال السماعي المعبأ في اسطوانات تذاع على الاطفال أما بالنسبة للناشئة العرب فهنالك مجموعة كامل كيلاني ومجلات سندباد وسمير ، وعلي بابا وبساط الريح .

هذا عرض موجز لما ورد في الكتاب وقد تقصى الكاتب كل ما كتب حول الموضوع ثم اخرجه في كتابه الذي تفتقر اليه المكتبة العربية كل الافتقار اذ أنه دراسة جديدة موفقة لموضوع جديد جدير بالبحث والاهتمام .

رسموا له خطوطها السياسية وقد فطن الاتراك لهذا فأراد قائد الجيش التركي المتراجع الانتقام من السوريين بضرب عاصمتهم الخالدة بالمدافع قبل انسحابه منها في اواخر ايلول ١٩١٨ لولا فطنة الامير سعيد الجزائري الذي توسط لديه للاقلاع عن فكرته فتوصل لذلك بعد ان كانت المدافع قد وضعت على جبل قاسيون لضرب المدينة. ومن المؤسف ان الحلفاء لم يقابلوا العرب بالاحسان بل قلبوا لهم ظهر المجن بعد انتهاء الحرب وضربوا بآمالهم عرض الحائط وكلفت تلك التجربة المرة كفاح ربع قرن من الزمن لازالة آثارها»

وينتقل المؤلف في الفصل الثاني لعرض مراحل نضال الشعب العربي السوري ضد الاحتلال الفرنسي فيبدأ هذه المراحل منذ معركة «ميسلون» بكثير من التفاصيل، فيؤرخ المعارك معركة اثر معركة ويدعمها بالادلة والخرائط والاحصاءات الدقيقة ويبرز مراحل النضال ابرازاً رائعاً.. ويصورها تصويراً مفصلا حتى ليحس القارىء انه يعيشها وان حوادثها تجري امام عينيه.

وقد قسم المؤلف الاستاذ هندي النضال في سورية الى مراحل، وأرخ كل ثورة من الثورات الكثيرة التي قام بها هذا الشعب البطل ضد الاستعمار تأريخاً خاصاً بها، فأشار الى ميزات كفاحنا المسلح في البداية منذ ١٩١٨ الى ١٩٢٨ ثم بدأ بعرض ثورات المنطقة الساحلية ابتداءاً من ثورة الشيخ صالح العلي مع رسم خريطة مفصلة لامكنة الثورات التي انبثقت من الساحل السوري،

ثم انتقل للحديث عن ثورات المنطقة الشمالية التي حدثت مابين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٦. والتي قام بها اول ماقام صبحي بركات وبعض اقاربه.

وتحدث المؤلف في الفصل السابع عن ثورات المنطقة الشرقية التي قادها مرعي الملاح.

وانتقل في الفصل الثامن للحديث عن ثورات المنطقة الوسطى فشرح باسهاب ثورات تلكلخ وحماة وحمص والقصير والهرمل والقلمون والصحراء التدمرية.

وفي الفصل التاسع تحدث عن ثورات المنطقة الجنوبية الغربية وابتدأ بثورة منطقة الشوف اللبنانية وفي منـاطق سورية اندلعت في وادي العجم والجولان والحرمون ووادي التيم.

وهكذا اخذ الكاتب ينتقل في بقية الفصول فيؤرخ الثورات المختلفة التي كانت تدلع في كل مكان من ارض سورية العربية والتي اكدت للمستعمر الفرنسي ان شعبها اكثر الشعوب حباً للحرية والعزة والكرامة.

وفي الفصل الثاني عشر تحدث المؤلف عن نتائج كل هذه الثورات اقتصادياً واجتماعياً وقومياً وسياسياً.

وينتقل المؤلف فيما بعد للحديث عن مرحلة الاستقلال والجلاء ودور سورية الطليعي في قيادة الامة العربية نحو معارك الاستقلال.. هذا الدور العظيم الذي أثمر أعظم مما كان يتوقع له.. فتتالت استقلالات البلاد العربية بعد سورية وبدأ الشعب العربي يمارس حقه في الحياة الحرة الكريمة.

وفي القسم الثاني من الكتاب تحدث المؤلف عن تاريخ جيش سورية العربية منذ أنشيء وتطور حتى وصل الى ماهو عليه الآن من قوة ومنعة يهابه كل عدو .

وهكذا فقد جاء كتاب « كفاح الشعب العربي السوري » سجل حافــل عظيم لتاريخ نضال شعبنا .. ومما لاشك فيه ان الرائد احسان هندي قد بذل جهوداً كبيرة لـكي يأتي مؤلفه على النحو الذي جاء فيه من الدقة في نقل المعلومات والاحصاءات.

وبهذه المناسبـــة لابد لنـا من أن نشيد بجهود ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي في تشجيع مثل هـــذه الابحاث ورصد الجوائز لهـا . . وهذه كلمــة السيد القائد العـام للجيش والقوات المسلحة اللواء عبد الكريم زهر الدين « **لقد كانت** غاية القيادة من **هذه المسابقات ان** تدفـــع الادباء والكتاب الى دراسة التاريخ العربي واحداثه القومية الكبرى ، وتغريهم بتصوير وقائعه وبطولاته ، وتشجعهم على الاهتمام بهذه الموضوعات، ليقرأها الجيل العربي الناشيء ويجد في مفاخر اجداده غذاء وجدانيا وتعبئة قومية ، فيزيده ذلك ايمانا بقضية امته وتعلقاً بتراثه ، وثقة بماضيه وحاضره ويفتح امام عينيه الطريق الى مستقبل مجيـد لايقل عن الماضي عزة وقوة ومجـداً »

هذه الكلمة التي تصدرت الكتاب تجعلنا ندرك ما للأدب من قيمة وتجعلنا ندرك في الوقت ذاته ما للجيش العربي السوري من مآثر في كافة الميادين .



مجموعة لشعراء من افريقيا

ترجمتها وقدمت لها اوجيني جالبرينا

عرض وتحليل : خليل الهنداوي

قلما نعرف شيئاً عن الادب الافريقي . . . هذا الادب الذي يمثل أغوار هـذه القارة التي غرقت في الأضواء والظلال . ويعود ذلك الى ان تاريخ اتصال العالم بهذه القارة لايعود الى عهـد بعيد . واليوم بعدأن تبلورت الشخصية الافريقية، وظهرت الى الوجود ، واستمع الناس الى نضال هـذه الأمم التي كانت منسية في سبيل الحرية والاستقلال ، اصبح يهمنا ان نعرف ملامح هذا الادب الذي علا صوته في غمرة هـذا النضال . ولم يأن بعد للأدب العربي ان يستمتع بالوان هذا الادب ، لجهلنـا اللغة الافريقية ، او اللهجات الافريقية التي لاتحصى عدداً بين تلـك الشعوب المتناثرة على المروج والسهوب .

في هذه المجموعة التي لاتزال مسطورة باللغة الغربية نمـاذج لواحد واربعين شاعراً افريقيا ، ينتسبون الى تسعة بلدان افريقية . هذه البلدان تختلف ، كما يختلف شعراؤها في اعمـارهم ، واتجاهاتهم ، ومذاهبهم الفنية .

وقد حرصت المترجمة أن تعرض هـذه الميول الاجتماعية والفنية الـتي توضح خصائص الادب الافريقي الحديث ، وتقدم الاسباب التاريخية التي عملت على تطوير الثقافة عند هذه الشعوب .

وكما تقول في المقدمة (ان افريقيا هي قارة مبرقشة بشعوب وقبائل ، والسنة ولهجات . . . وفيها ميول مختلفة،واتجاهات اجتماعية متباينة... ولكن صورة افريقيا القوية ، الواسعة التي يرسمها شعراء افريقيـا على اختلاف بلدانهم ... تدعو الى الاتحاد)

ان غالبية الشعوب الافريقية لاتملـك ادبا مكتوباً ، والصفوة المثقفة من هذه الشعوب ،التي حملت لواء الكفاح ، انما اخذت ثقافتها ، ولغتها من معاهد السيد الابيض . وهكذا نجد جـل هؤلاء الشعراء ينظمون بالانجليزية ، والفرنسية ، والبرتغالية ، وهنالك فئة منهم عاشت في باريس ولندن ، متأثرة بمذاهب الشعراء فيها .

وهؤلاء الشعراء المختارون في هذه المجموعة وان لم يقتطعوا من الحركة الادبية العالمية ، فانهم يتمتعون بأصالة عميقة ، وهم بالنسبة الى كل قارىء معرض غني بأثره ، وصوره ، ورؤاه ، يختلف عن كل معرض سابق .

في هذا العرض لمحة ، أو جملة ، أو لفتة تتمثل فيها صورة الماضي ، والعادات ، والاخلاق عند هؤلاء الافريقيين .

ولاشك أن غرابة الالوان ، والالحان ـ في هذه المقطوعات ـ ستثير انتباه القارىء الذي لم يألف من قبل هذا الشعر المجهول . ولكنه سرعان ما يألفها ، ويقبل عليها عند هؤلاء الشعراء الذين ينتمون الى بلدان مستقلة ، او الى مناطق لاتزال مستعمرة، حيث يرى مركز النضال ضد الاستعمار والتحرر من قيوده السياسية والاجتماعية .

الناس ـ هنا ـ يشعرون بانهم ناس ، إن أيديهم تنحني ، وهم يحطمون سلاسل العبودية . ان قلوبهم تلتهب ، وهي جديرة بالحرية والاستقلال ان عقلهم يبحث بكبرياء ، في اغوار الماضي ، عن الامثلة الرائعة للبطولة ، ان عيونهم تنظر الى المستقبل متشوقة متأملة .

ان شعور الشعوب الافريقية قد استيقظ ، ونما وعيه ، وانه ليس من بنات المصادفة ان يكون شعراء هذه المجموعة كلهم ، منهم الرجل السياسي ، والعالم ، والمفكر ، والصحافي ، والمعلم ، والحاكم .

انهم شعراء محامون يدافعون عن حقوق الانسان ، ومعلمون يشعلون في الصدور لهب الحق. انهم يتحدثون عن انفسهم ، وعن رسالتهم .

فهذا « توماس راهندراها » يقول :

« من اعمق اعماق نفسك ،

من أغلى ما يغور في دمك

من أصفى احلامك ...

من الزم رغباتك

من ابعد رؤاك

تنبع قوة ايمانك

صرخة اقدامك ...

انك لتتكلم ... »

وهذا دنيس « الشاعر ، والرجل السياسي في « نيجريا » يتحدث عن « نفسية افريقيا الفتية » عن « نفسية الملايين الجائعين ، المهانين ، العراة ، المتحطين » من « هذه النفوس الظمأى ، التي تنتظر ،

« ان الذي سيشتري كتبي

لن يشتري صراخ الأرقاء ،

ولا هواتف آلهة الحديد الابيض .

انه سيشتري افكارا مولودة

في مئات الالوف من الفتيان المأخوذين بالمعرفة ،

والنامين على حدود الثقافتين المتخاصمتين

إن من يشتري كتبي

سيشتري روح العصر

واللهب الذي لا ينطفىء ، المتوقد في القلوب

المتحفزة للبطولة والالم ،

اللهب المشتعل في اطراف الأرض ،

الذي ينتقم ، ويلتهم ، ويطهر ... »

على أن المتناقضات تتوضح في الصور الرمزية: ازدهار وذبول ، مقاومة وخضوع ، نهار وليل ، لهيب وظلام .

وهذه الرؤيا المرسومة عن العالم ، التي يختص بها الشعراء الافريقيين ، لاتبدو فقط في مقاطعهم

الوجدانية التي يتعالى فيها النداء . وانما تبدو أيضاً في المقاطع التي يتغير الهامها . فالشاعر (برنارد درابي) من ساحل العاج يصيح «ان سوادلوني ليس بعلامة الشقاء» ويجهد ان يحمل هذا النبأ للسنونو التي تحمل اسم « فارسة الفضاء » .

وهذا الشاعر « ويليام بلومر » من جمهورية جنوبي افريقيا ،يصف لنا خراب مزرعة ، حيث الحياة كانت تفور ، واصوات الرجال تدور ... أما اليوم فليس فيها إلا الخراب والصحراء . وفي هذه المرة يرسم الشاعر صورة رمزية ، فيتخيل فجأة في هذا المكان « تلك الأفعى ، في الظلام» تلتفت بسخرية في كل صباح مضيء ، رفيق » .

ويحلو لهؤلاء الشعراء دائماً ان يقارنوا بين الشمس والظلام . لأن هذه المقارنة هي التي تحدد دور رسالتهم في عالم اليوم .

والكتاب منهم يأخذون على عاتقهم ان يعبروا عن وعي الشعوب التي استيقظت بالفعالية التاريخية. وهم يضعون هذا السؤال الرهيب :

ماذا تحمل الى العالم؟ أية كلمة جديدة تقولها؟

الجواب ليس واضحاً دفعة واحدة . ومقطوعة الشاعر « ميكائيل » من غانا التي عنوانها « الى أين تذهبين يا افريقيا » تعبر عن هذا التشويش الروحي الذي يصور تشوف الروح الى الحقيقة :

« يا افريقيا . انك حسرت القناع ،
ولكن ، الى أين طريقك ؟
الى الوراء ؟
نحو الزمان الذي كانت تدوي فيه فقعقعات الطبول،
والرقصات تحت الظلال .
وحفيف النخيل الذي تقبله الشمس ؟
الى الوراء ؟
نحو أيام الخرافات ؟
لا .. ليس هذا هو الغاية .
اذاً ، الى أين ؟ الى الامام .. ؟
فالى الامام اذاً .
ولكن نحو أي شيء ... ؟ »

وهكذا تنتهي المقطوعة بنفس السؤال :ولكن الى أين طريقك يا افريقيا ؟

ومما لاشك فيه ، ان اية مقطوعة ليست مهيأة للجواب على سؤال معقد ، واسع ، ولكن الذي يهمنا ان الشاعر يريد الجواب الصحيح .

وبالامكان الجواب عليه بعد توضيح السؤال : ماهي الكلمة الجديدة المفروضة ؟ هل هي غير الكلمات التي قيلت ، وتقولها بقية الشعوب؟ وأين تجد مكانها في المجموعة العالمية ؟

من هنا تبـدأ مجادلة الشعراء فيما بينهم . وتستقطب نظراتهم المثالية المختلفة في هذا المأزق.

ان مصير الفرد ، في أيامنا ، ينطلق من كل مايجري في هذا العالم المعقد الكبير ، فالأفـكار ، والأهواء ، ومتناقضات هذا العالم يجب ان تقلق نفسية الافريقي أيضاً كما تقلقنا .

فهذا ـ سيدار ـ الشـاعر الذي أوتي ثقافة عالية وهو فيلسوف وعالم اجتماعي هو علامة المأساة للآلام التي هي من نصيب الافريقيين منذ القديم حتى الماضي الذي ليس ببعيد . ان له

القصاص كفيلسوف

تاليف جون كروكشانك

ترجمة : قلم التحرير

يقرر المؤلف في مقدمته ان القصة الفرنسية في ربع القرن الماضي قد اتخذت لنفسها وجهتين رئيسيتين: الوجهة الاولى من حيث مادة القصة وموضوعها ، ومن حيث التكنيك أي بناء القصة وأسلوبها . ففي أعمال مالرو وسارتر وكامو ودي بوفوار نجد أن القصة ملأى بالميتافيزيك ، وبما يطرأ عليها من تحولات بسبب معالجتها المسائل السياسية والفلسفية والخلقية ، وهي مادعاهامالرو نفسه « الوسائل المتمازة للتعبير عن مأساة الانسان ، وليس لتوضيح فرديته . »

أما من حيث البناء فان روايات موريس بلانكوت وصاموئيل بيكيت وألان روب غرييه وجان سيرول ، تفصح عن اهتمام جمالي في حين أن الأسس التقليدية للقصة ـ وهي العقدةوتحليل الشخصية ، ووصف المحيط ومغزى القصة ـ قد استبدلت بما أسماه المؤلف : « ميل الكاتب

→

ايمانا خفيا بان الاتحاد مع الارض والطبيعة يجب ان يحمل الى العالم دما جديداً ، طرباً غير مسمم بالبراهين ، ويجب ان ينطلق الكلمة الجديدة التي ستعيد الازدهار الى الحياة .

ان الشاعر يقول لزنجي « اثبت في عزلتك. وسوف توقظ بذلك اليتامى والمضطهدين لفجر جديد ، وسوف تنقذ الغرب القلق » .

على أن عاطفة اتحاد الشعوب من اجل حرياتها وانتصار القيم الانسانية في العالم الحديث تظهر عند الشاعر ـ برنارد داربي ـ في مقطوعته الشعرية الرائعة التي عنوانها « خطوط ايدينا » :

« ان خطوط ايدينا
هي خطوط الحياة
والحظ
والقلب
والحب
والقيود الجليلة
التي تشد بعضنا ببعض
الاحياء بالاموات
ان خطوط ايدينا
ليست بيضاء
ولا سوداء
ولا صفراء
ان خطوط ايدينا تجمع بين باقات احلامنا . »

ليست هي الاساطير ، ولا الاوهام ، ولكن هي الحقيقة الاجتماعية والتاريخية التي ستجدد ثقافة الشعوب . .

وليس هو التأمل العاطفي في الانعزال . . ولكن هو النضال الذي يحرص على التقدم .

ولذلك ، كانت قراءة هذه المجموعة تثير بهجة الشعور بأن في هذه المجموعة رنين ، عالياً فعالياً صوت الحقيقة التاريخية .

لأن ينجز في الرواية ، نفس التحول الثوري الذي طرأ على الرسم الحديث ، وهو الاستعاضة عن الصورة التمثيلية بالخطوط التجريدية . »

ومع أن الاتجاهين يلتقيان أحيانا فان الخلاف جذري بينهما .

وفي الحقيقة التقى سارتر وغرييه في الموضوع كما التقى كامو وبيكيت في الالحاح على العبث ، الا أن مناقشة التفاصيل توسع شقة الخلاف بين الجهتين . ففي حين ان آثار مالرو وسارتر ودي بوفوار ماتزال تخضع للتقاليد الروائية القديمة المتمثلة في (رؤية ماحدث) وفي التشويق وفنونه نجد أن الثوار التقنيين يجانبون هذه الطرق . إنهم لايولون موضوع القصة أي اهتمام . وكما يستحيل علينا أن تصور بطل مالرو منهمكا في واجباته الزوجية أوفي مهنته ، كذلك يعسر علينا أن نجد بطل غرييه سارداً في أفكاره الحزينة وهي تتداعى بطريقة التحليل النفسي .

أن الكتاب الذين يدعون (الميتافيزيكيين الطبيعيين) قد اعتنوا بالموضوعات غير الأدبية – وبخاصة السياسة – كي يرفضوا كل المفهومات البورجوازية التي تهتم بالعقدة والوصف التصويري والتحليل النفسي ، بلانكوت وبيكيت وغرييه وسيرول استأصلوا كل مايربطهم بالرواية الأوربية المعاصرة ، وطالبوا القارىء أن يجثو أمامهم خالي الذهن من أي ظن في أنه سيقبل على مايشبه (الحرب والسلم) أو (دير بارم) أو (قصة مدينتين) . ومن غرائب الصدف أن (الروائيين الجدد) هم الذين تبنوا حرفياً ملاحظات سارتر في أن تكنيك القصة يتضمن الميتافيزيك ويكثف اتصال الكاتب بما هو واقعي من خلال أسلوب القص بدلا من التعليق على معنى عمل مفهوم وهم بهذا المعنى يحولون تكنيكهم الى فلسفة ، رغم أن غرييه يقول (إن الموضوعات المادية أو وصفها عند الكتاب ، لاتحتوي على أي معنى فلسفي) . وهذا الاختلاف حول معنى العمل ، هو الذي يفصل الروائيين الجدد عن معاصريهم التقليديين .

إن انعدام (وحدة المادة) هو الميزة الرئيسية لكل تلك المدرسة التي يشترك أفرادها في أنهم تركوا لأنفسهم كامل الحرية للتعبير عن وجهة نظرهم الشخصية ، وأطلقوا لرغباتهم العنان في أن تظهر كما تريد . أما الأسرة فان أعضاء العائلة يتبنون بعضهم بعضاً بدلا من أن تكون الصلة بينهم بيولوجية عضوية . ولذلك نجد في بعض القصص مجموعة من الابطال لاترابط بينهم أكثر من معرفة عادية ولا يجهد أي منهم نفسه في توثيق صلاته بالآخرين .

ان المؤلف يحلل في هذا الكتاب الصغير عشرين قصة ورواية ، واذا كان تحليله يتصف بأنه ينطلق من أسس نقدية واضحة ، كما نرى ، فان ضيق الحيز يفقد عمله الدقة التي تلزم ناقداً مثله ليبين أسباب الغموض مثلا عند كامو ، ولو ركز بحثه في قصة واحدة واستشهد بجوانب من بقية القصص لايضاح أفكاره لجاءت دراسته وافية كاملة .

الثوار مروا ببيتنا

قصص لعادل ابو شنب

١٠٠ صفحة من القطع المتوسط
من منشورات وزارة الثقافة
والارشاد القومي في سورية

عرض وتحليل : زكريا تامر

عندما يقدم على الكتابة انسان يتميز بالخلاصة لوجوده وفنه وأرضه ، فلا بد ان ثمة صوتاً ملحاً عميقاً يحفزه لقول شيء ما عن حياة البشر ، وسيكتسب هذا القول بشكل عفوي طابعاً مميزاً نابعاً من رؤية الكاتب الخاصة للعالم والناس . وهذه الرؤية هي التعبير الحق عن الاصالة والموهبة.

وعادل ابو شنب في مجموعته القصصية الثالثة (الثوار مروا ببيتنا) يختار نماذج من البشر ، ويصورها بدقة ، ويرسم ملامحها النفسية والفيزيولوجية ومشكلاتها الحياتية دون ان تفقد هذه الشخصيات او الاحداث صلتها بواقعنا أو أن تتحول الى نوع من التأمل المجرد وتصميم ذهني للعالم وبشره . وشخصيات قصص (الثوار مروا ببيتنا) هي على الدوام دون فرح ، بائسة تعسة ، والسبب يرجع الى ان ثمة عدواً ضارياً يطاردها في حياتها اليومية ، ويسلبها امنها وغبطتها ، ويشوه انسانيتها . ويتجلى في كل قصة من قصص (الثوار مروا ببيتنا) وجه من الوجوه الكثيرة التي يملكها هذا العدو .

فمن هو هذا العدو؟ وما هو موقف شخصيات القصص منه ؟ هل تستسلم وتخضع لجبروته وظلمه أم تتمرد وتكافح للخلاص منه ؟ ان العدو في قصة (الثوار مروا ببيتنا) هو جنود غرباء أتوا من بلاد بعيدة ، وغزوا مدينة لم يولدوا فيها ، فحرموا الاطفال من التمتع بمسراتهم الصغيرة ، ومن يد أبيهم الكبيرة وصدره العريض الطافح بالحنان والقوة . وحرموا ايضاً المرأة من رجلها وملأوا عينيها دموعاً . وسلبوا ناس المدينة حريتهم وسلامتهم .

وان التغلب على هذا العدو أمر مرتبط ارتباطاً جذرياً بالاختيار بين حياة العبودية وحياة الحرية. لذلك فعلى الخيل أن تصهل صهيلها الجامح ، وعلى رايات المعارك القديمة ان ترتفع ، وعلى الرجال ان يغادروا بيوتهم ، وان يحملوا البنادق ليخوضوا حرباً ضارية ضد عدوهم من أجل استعادة حريتهم والحفاظ على انسانيتهم .

والبيئة ذات التقاليد المتحجرة التي تتنافى مع طبيعة الانسان هي العدو في قصة (حشد من

العيون) فبطلة القصة فطمة ، فتاة في مقتبل العمر ، فرحها الصغير المشع في حياتها اليومية ينبع من سماعها الاغاني ومن انتظارها لفارس احلامها الذي لم يأت بعد . وبطل القصة ماجد ، شاب ، حياته مجدبة ، ينتظر الحب بضراعة ولهفة ، ومتعته تكمن في مشاهدة الافلام السينمائية وفي الحلم بأن حياته ستتبدل في وقت قريب . وماجد وفطمة لايعرف أحدهما الآخر ، ويتلاقيان صدفة وجهاً لوجه في سوق مزدحم بالناس ، فيتبادلان النظرات ، ويشعر كل منهما لمدة لحظة خاطفة بأن الربيع قد أوشك ان يمنحه عطاياه السخية ، ولكنهما لايجرؤان على هدم الجدار الشاهق اللامرئي المنتصب بينهما . ولو تبادل الشاب والفتاة الكلام لهيمن التفاهم بينهما ولنبت ورد المحبة في قلبيهما .. هذه المحبة التي سيعقبها الزواج والبيت والاطفال . ولكن الشاب والفتاة اللذين هما نتاج بيئة لها تقاليدها العتيقة واخلاقها وتفكيرها كانا يحسان بالناس الآخرين الصاخبين حولهما احساساً طاغياً ، جعلهما لايجسران على القيام بأي فعل من أجل الحصول على سعادتهما ، والانتقال من عالم الحلم الى عالم الواقع ، وهزما أمام القوة الغامضة التي هي مزيج من الناس ونفسيهما بالذات ، وظلا مجرد حالمين مدحورين

والتفاوت الطبقي هو عدو طاغ عنيد في قصة (دمشق القمة . . دمشق السفح) فالشاب الفقير والفتاة الغنية ، يجمعهما الحب الذي يتألق خلال زمن قصير مكتسباً صفة الأمل القادر على القضاء على التفاوت الطبقي ، ولكن هذا الامل مايلبث أن ينطفئ ويتلاشى نوره لأن التفاوت الطبقي ليس هو فقط مسكناً من حجر ابيض وشارعاً عريضاً وملابس فاخرة وطعاماً دسماً وسيارة انما هو نمط معين من السلوك والتفكير والاخلاق والعادات والتقاليد . وينتصر العدو ، ويفترق المحبان لينعزل كل منهما في طبقته مجتراً وحشته .

ومن البديهي ان لايستطيع فرد واحد أو افراد قلائل الانتصار على هذا العدو فالقضاء عليه يحتاج الى جيل ثائر تصرخ العاصفة في قلبه وتدفعه لهدم كل شيء ليبني من جديد حياة تنسجم مع رغباته ، وليخلق قيما تتناسب مع عصره .

والفقر ذلك اللص الابدي هو العدو في العديد من القصص ففي قصة (الاحطاب) تقبل الاسرة الفقيرة ان تزوج فتاتها الصبية من رجل هرم غني ، ثم لاتفعل شيئاً سوى النحيب والشكوى .

وفي قصة (ابتسامة حزينة صغيرة) يموت رب الاسرة بعد ان كافح طويلا للحصول على القوت اليومي ، ان القبر في هذه القصة هو آخر رغيف يطلبه الانسان من العالم ، وسيكون مفجعاً ان لايظفر به ويظل جسده الفاقد الحياة دون قبر . وتتمكن الزوجة من ايجاد المال اللازم عن طريق الاستدانة ، وتنتصر على العدو ، ولكن هذا الانتصار هو موقت لانه مرتبط بتعاطف قد لايكون ثابتاً ولايمكن الركون اليه .

هذا مايحدث أيضاً في قصة (اشياء ليس لها ثمن) فشخصيات القصة تقضي على عدوها الفقر حين تتعاطف ولكن نصرها ايضاً هو نصر يكاد ان لايكون حقيقياً ، وهو ليس اكثر من تخدير لحالة بائسة ، ولن يكون نصراً حقيقياً الا اذا تبدلت النظم الاجتماعية الفاسدة .

الحزن في كل مكان
مجموعة قصص قصيرة لياسين رفاعية

منشورات دار الثقافة بدمشق
٢١٢ صفحة على القطع الصغير

بقلم الياس الفاضل

الحزن في كل مـكان ، مجموعة قصص للاديب ياسين رفاعية ، تضم اثنتي عشرة قصـــة قصيرة، عالج فيها الـكاتب مواضيع مختلفة مستمدة من صميم الحياة والمجتمع .

والقارىء لهذه المجموعة لابـد له ان يلاحظ انها تتميز بميزتين اساسيتين اولاها :

ــ انها ذات نظرة معينة الى الحياة والكون ، نظرة حزنيه ،دامعة ، متألمة .. فهل قادالكاتب بملء حريته واختياره سفينته الى هذا الميناء ، ام ان ريحاً غريبة قـد ارغمت زورقه على الرسو هنا ، في اعماق الظلمة القاتمة ؟!

وتتميز القصص بمجموعها بأن بداياتها تنطلق من لحظة الازمة في حياة شخصياتها . ولحظـة الازمة هذه تضفي على القصص مسحة ناعمـة من الشاعرية الصادقة التي تتجلى في صور جيلة .

ويخضع اسلوب السرد في القصص لتوتر غير مصطنع وخال من التكلف، وهو تعبير عن تلاحم حميمي بين الشكل والمضمون . وتخلو القصص من الاستعمال التقليدي للالفاظ ، وقد نجح عادل في ان يمنح الالفاظ روحاً جديـدة جعلت من القصص نثراً باهر الجمال .

ان ياسين رفاعية ، من شباب هـذا الجيل ، جيل المآسي والفواجع،جيل الحيرة والارهاق، الارهاق من البطالة ، من التسكع ، من التشرد ، الارهاق من الحياة التي هي اشد مرارة من الموت.. وهو الى جانب ذلـك ، انسان موهوب مرهف الحس ، كان يعد اصابعه ، على امل ان يلتقط بها قطرة ضوء ، يزرعها سراجـاً على طريقي ، وطريق الاخرين ، ولكنه كان يحيا مسحوقة تحت حوافر الفشل والخيبة ، أو مجمّدة بصقيع الزبد والفراغ .. وفي فرن ابيه حيث كان يشوى مع الخبز ، رفع راية التعاسة والانكسار

ثم جاء فشله في الحب ، فشرب كل افراحـه واشراقاته ، ذلك ان الحب عندنا نحن الشرقيين الذين نقتـــات بالنظرات ، يساوى وجودنا ، يساوي حياتنا .. نحن في مطالـع شبابنا ــ لما نعانيـه من حرمان ــ نربط مصيرنا بالتي نحب ، فاذا فقدناها تسود الدنيا في عيونـــا ، وتمتلىء آفاقنا بالغيوم الداكنة ، فننكفىء على ذواتنـا، على جراحنا وآلامنا ودموعنا .

ومن هنا جاءت هذه النظرية الحزينة اليائسة في قصص ياسين رفاعية « وفي لحظة خاطفة تمثل امامي الموت الرهيب في بشاعة قاسية وتمنيت لو تعود يد غالية ، فاعود الى الحياة الرائعة اناضل فيها واجاهد ، ولا افكر بالانتحار ابداً ..

وبدأت اتلاشى ، وراحت انفاسي تختفي ، واحسست ان شيئاً ما ، خفيفاً كطيف ينفصل عني ، وشعرت انني اضيع .. اضيع ..

وفي اعتقادي ان الاديب ياسين رفاعية وقد قطع سني الشباب الاولى ، سيتخلى عن هذه ،

النظرة ، لتأخذ بنظرة يكون معهـــا قادراً على املاء حياتنا بالبهجة والمسرات والاشراقات .

والبساطة هي الميزة الثانية البارزة التي تتميز بها قصص « الحزن في كل مـكان » ، ولا نعني بالبساطة : السطحية والابتذال ، وانما نعني تلك التي تتصف بالعمق والامتداد والغنى الروحي ، فحينا تقرأ احدى قصص المجموعة تحس انك أمام حوادث لاتبهر ولا تسحر ولكن ماتـكاد تنتهي منها ، حتى تشعر انك قضيت وقتـاً ضمن دائرة تغلي بالحياة العامرة باللقطات والمشاهد الانسانية .

وفي اعتقادي ان الاديب كلما استطاع ان يعبر عن تجربته الذاتية ببساطة مشحونة بعمق النظرة الى الحيـــاة والوجود ، كان ادبه اكثر قدرة على التأثير والفعل ، وكان اقرب الى البقـــاء .

وعلى ضوء ماقدمنا ، الى أي مدى يزيـد ـ الحزن في كل مكان ـ في نمو قامتنا القصصية ؟!

لاشك ان المجموعة هي مدماك بارز في عمارة القصة السورية القصير ، في هذه الفترة التي يجتازها الادب العربي بعد ركود طويل أفقده كل الخصائص والمزايا التي تمكنه من الانطلاق خارج الحدود المحلية . .

ولعل المقدمة التي كتبها الناقد المعروف الاستاذ رجاء النقاش تدلل على مكانة هذه المجموعة في القصة السورية يقول الاستاذ النقاش « ان هذه المجموعة القصصية تتميز بعدة ميزات اساسية ، واول هذه الميزات الروح الشعرية التي تشيع في المجموعة ، وهي روح نابعـــة من عمق النظرة للواقع وعمق الحياة فيه ... فعندما تقرأ عـــذه المجموعة تشعر ان صاحبها يرى مجرى الاحداث الواقعية في الشعور ، ولا يرصد هذه الاحداث رصداً خارجيا ... فـفي قصة « الحزن في كل مكان » تمضي الاحداث القليلة لتصنع اطاراً عاما لتصرفات البطل ، فعندما ماتت سميرة ، هذه التي تصبح لرقتها وشفافيتها رمزاً للمأساة .. عنـدما تموت سميرة .. عندما تقع هذه المـــأساة يتلفت البطل حوله فلا يجـد الا الحزن وليس في القصة حدث رئيسي كبير سوى « وفاة سمـيرة » اما بقية الاحداث فهي نفسية اكثر منها واقعيـــة ، انها صياغة شفافة بسيطـــة لاحزان نفس متألمة مسجونة في سجن من الظروف الاجتماعية ومن طبيعة الحياة التي تحمل المأساة . »

وهكذا يمضي رجاء النقاش في تحليل قصص المجموعة تحليلا واقعياً .. ولقد استطاع هذا الناقد ان يقدم دراسة ممتازة للمجموعة ، فيها اخلاص الناقد للفكر والفن .

وطبيعي ان قصص ياسين رفاعية التي نشرهـا بعد صدور « الحزن في كل مكان » قد سجلت تطوراً كبيراً في اسلوبه المـــميز الذي يدل على شخصيته الادبية .

ونحن بصدد الحـديث عن « الحزن في كل مكان » نجد ان قصص هذه المجموعة قد اقتطعت من صلب الحياة ومن واقع المجتمع ، فقصة الصديد وارض الديدان سبق ان كتب عنها احد النقاد في مجلة « الشهر » القاهرية مايلي « انها تصور الحياة الآلية البشعة التي نحياهـــا وتكشف عن

١١ *

الروح المادية المسيطرة على وجودنا ، كل شيء يشترى بالمال حتى آدمية الانسان ، وتحلل القصة واقعية الفراغ الذي يغلف حياتنا ، وقد التقطت القصة زاوية من الحياة العادية التي نحياها بما فيها من انفعالات وعواطف يجيش في صدر الانسان»

وهذا التحليل للقصة سليم ، وهـو يلمس الروح العامة الشائعة في «الحزن في كل مكان» وقد التقط الكاتب في مجوعته العديد من اللوحات الاجتماعية الناجحة واستطاع ان يقدم لنا عدداً من القصص التي تعد من ابرز قصص كتابنا الشبان الذين استطاعوا ان يلحقوا بالركب المتطور للقصة العالمية .

ان مجوعة « الحزن في كل مكان » من غير شك مجوعة قصصية ناجحة لها ميزة خاصة ولكاتبها إسلوب خاص استطاع ان يرسم من خلاله مشاكلنا في أطر شاعرية خلابة .



المراكز الثقافية العربية في سورية

دمشق

● اقيمت في المركز امسية قصصية اشترك فيها ياسين رفاعية بقصة عنوانها « الحقد » والسيدة قمر كيلاني بقصة عنوانها « دموع والآلي » واسكندرلوقا بقصة عنوانها « بركة الوحل » وقد استهلت الندوة بتعريف عن القصة السورية قدمتها الآنسة دلال حاتم فرصدت تطور القصة في سورية منذ عشرة اعوام ، ثم اشارت الى مكانة الادباء المشتركين بالندوة من هذه القصة .

● قدم الفنان فاتح المدرس ندوة فنية عن الرسم والنحت .

● قدم البرفسوررونيه هويغ الكاتب الفرنسي الذي كانت مجلة (المعرفة) اول من عرّف به ـ محاضرة باللغة الفرنسية عنوانها « مدخل الى فن التصوير » وقدرافق المحاضرة عرض صور مختلفة بالفانوس السحري .

حمص

● قدمت الفرقة التابعة للمركز الثقافي في حمص مسرحية بعنوان « شيطان في بيت » وهي من تأليف مراد السباعي وقد نالت هذه المسرحية الجائزة الاولى لمجلس رعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وقد حضر المسرحية وزير الثقافة والارشاد القومي الاستاذ رفيق بشور والامين العام الدكتور يوسف شقرا .

● كان مهرجان القصة السورية من أنجح المهرجانات الادبية التي قدمها المركز الثقافي في حمص ، وقد اشادت الصحف السورية بهذا المهرجان واثنت على نشاط الاستاذ عبد المعين الملوحي مدير المركز . . وقد اشترك في هذا المهرجان ياسين رفاعية والسيدة ام عصام ووليد مدفعي ، والدكتورة انعام مسالمة ، واسكندر لوقا ، وحضر المهرجان جمهور غفير يربو عدده على الآلاف .

● قدم المركز رواية تمثيلية والقيت بعض القصائد والدراسات وذلك بمناسبة مهرجان « ابي فراس الحمداني » .

حماة

● قدم أحمد الجندي محاضرة فكرية بعنوان « الشعر الحديث والعوامل المؤثرة فيه».

حلب

● « الفروسية في الشعر العربي » عنوان المحاضرة التي قدمهاسعاد السهان فيمركز منبج .

● اما اسماعيل صدقي فقد قدم محاضرة بعنوان « الادباء ومشكلة المراهقة في مركز منبج .

اللاذقية

● اقيمت في المركز الثقافي امسية شعرية اشترك فيها الآنسة ليلى كيلاني والشاعر غازي الجندلي .

السويداء

● قدم سامي حامد محاضرة في المركز الثقافي بعنوان « في الشعر المهجري ».

● كما القى الدكتور خالد سفا امين محاضرة بعنوان « فن المحافظة على سن الشباب » .

درعا

● « مشكلة البترول في الوطن العربي » عنوان المحاضرة التي قدمها فيصل الطحاني في قاعة المركز بدرعا .

● اما الدكتورة انعام مسالمة فقد قدمت امسية قصصية قرأت فيها بعض قصصها الجديدة.

● وقدم الدكتور نقولا سمعان محاضرة بعنوان « صحة الطفل واسسها . »

اخبار متفرقة

● في المنتدى الاجتماعي قدم الدكتور صادق العظم محاضرة حول المجتمع الامريكي والاحداث الدولية استمع اليها جمهور غفير من المثقفين .

كما قدم الدكتور شكيب الجابري حديثاً بعنوان « الروائي شكيب الجابري » نقد الدكتور الجابري في هذا الحديث كل اتجاهه الادبي .

● في منتدى سكينة الادبي اقيمت أمسية ادبية تحدث فيها نجاة قصاب حسن عن الجمال والتطور الانساني ، كما القت الآنسة ليلى كيلاني مقتطفات من شعرها العاطفي .. وقد حضر الامسية عدد كبير من الادباء والفنانين والمثقفين .

● وفي جمعية الشبان السريانية اقيمت امسية قصصية شعرية تحت رعاية الدكتور يوسف شقرا امين عام وزارة الثقافة والارشاد القومي اشترك في هذه الندوة الاستاذ اسكندر لوقا في قصة بعنوان « المصارع » وغادة سلهب الحصني في بعض قصائدها عبد الله الشيتي في قصة بعنوان « امرأة من نار » والقى فيما بعد الشاعر كمال فوزي الشرابي قصائد مختلفة حملت الاسماء التالية : اسم حبيبتي ، ميساون ، عذوبة روحك ، الى مبدعة ، اغنية الى صبايا بلادي ، تأملات ، وأخيرا القى الدكتور ظافر ابوريشة قصيدة « موت الذئب » وقصيدة « جبل الزيتون »

وفي ختام الامسية هنأ الدكتور يوسف شقرا الادباء المشتركين وشكرته الجمعية لرعايته الامسية وتشجيع نشاطها الثقافي .

● وفي الندوة الثقافية النسائية استمع جمهور غفير الى سعد صائب الذي قدم محاضرة ممتعة بعنوان « شعراء معاصرون من العالم » تحدث فيها عن ثلاثة شعراء معاصرين من الهند وافريقيا والبرتغال . كما قدم عدة قصائد مترجمة لهؤلاء الشعراء .

● احيا النادي العربي بدمشق مهرجاناً خطابياً كبيراً . بمناسبة ذكرى « النكبة » في الاسكندرون وفلسطين ، وقد القى في هذا المهرجان وزير الاعلام الاستاذ عبد الحليم قدور كلمة قيمة بهذه المناسبة وتحدث محمود الجبان عن النادي العربي وتكلم فؤاد جبارة عن « اسكندرون » اللواء السليب . ثم قدمت السيدة عفيفة شما كلمة عن المرأة العربية ، وختم الشاعر ابو سلمى المهرجان بقصيدة عن فلسطين المغتصبة .

● اجتمعت اللجنة الوزارية المكلفة بدراسة اوضاع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والمجلس الاعلى للعلوم والمشكلة من السادة الوزراء رفيق بشور وزير الثقافة والارشاد القومي ورئيس المجلسين ورشاد برمدا وزير التربية والتعليم المهندس صبحي كحالة وزير المواصلات خليل الكلاس وزير المالية، وقد اقرت مبدأ ابقاء المجلسين على ان تشكل لجنة اختصاصية لكل منهما تعمل على وضع مشروع مرسوم تشريعي يعيد النظر في تنظيماتهما وتشكيلاتهما الداخلية بشكل يؤمن الغاية المتوخاة من وجودهما على ان ترفع الدراسة الى اللجنة الوزارية في اقرب وقت ممكن .

كتب جديدة

● اهدتنا دار عويدات للتأليف والترجمة والنشر في بيروت مجموعة من منشوراتها الحديثة وهي على التوالي « الاب غوريو لبلزاك — مزيفو النقود لاندريه جيد — من ذكرياتي تأليف عبد العزيز القصاب — فلسفتنا : تأليف محمد باقر الصدر — العقدة السابعة تأليف ثريا ملحس » وسوف نتناول في اعدادنا القادمة بالعرض والتحليل بعض هذه الكتب .

● وفي بغداد صدر للقاص العراقي زهدي الداودي مجموعة قصصية بعنوان « الاعصار » وسيتناول قلم التحرير في عدد قادم من المعرفة المجموعة بدراسة تحليلية .

● صدر للشاعر اللبناني قبلان مكرزل ديوان شعر جديد بعنوان « احبك » عن دار مجلة الغربال للشاعر عدة دواوين شعرية ومجموعة قصصية وبحث في نواميس التطور الاجتماعي.

● يعد خضر قنوع موسوعة تاريخية بعنوان « موسوعة العلوم والدراسات العالية ، يبرز فيها دور رجالات سورية مع ابحاث واستقصاءات علمية تهدف لخدمة المصلحة الوطنية.

● اصدرت ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي التابعة للجيش العربي السوري الدراسة التاريخية العسكرية الفائزة بالجائزة الاولى لسنة ١٩٦٢ وهي بعنوان « كفاح الشعب العربي السوري ــ ١٩٠٨ ــ ١٩٤٨ ــ لمؤلفها الرائد احسان هندي . وقد

جاءت هذه الدراسة انيقة في الطباعة والعرض والتبويب . كما انها رصدت بشكل رائع مراحل نضال الشعب العربي في سورية .

أخبار الفن

● يبدأ مسرح العرائس التابع لوزارة الثقافة والارشاد القومي في مطلع هذا الشهر جولته على المدارس الابتدائية الرسمية والخاصة في دمشق ومن المقدر ان يزيد عدد متفرجيه في هذا الموسم عن ١٠٠ الف طفل .

ويقوم المسرح القومي بتقديم مسرحياته للطلبة والطالبات في المدارس الاعدادية والثانوية في حفلات خاصة تقام بعد الظهر ومن المقدر ان يبلغ متفرجو هذه الحفلات عشرات الالوف .

تفتح (المعرفة) صدرها بكل ترحيب ، المقالات التي يرسلها اصدقاء المؤلفين ، في نقد مؤلفاتهم ، وعرضها ، وتحليلها . ونرجوا الكتاب ان يلاحظوا في كل حال عدم الاطالة ، وتجنب الاطناب في المديح .



معرض الخريف

١٩٦٢

السباق من اجل الابداع

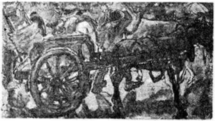


معاولا

فاتح المدرس

سباق للنصر أم سباق للفن ؟

الظاهرة الاولى التي تكشف عن نفسها في معرض الخريف لعام ١٩٦٢ هي المجاراة ، او السباق . فلقد أدرك الفنانون أن الحركة الفنية اخذت سمتها الى اهدافها ، وأن التذوق الفني ارتفع الى مستوى الحكم . وان المسؤولين اعطوا للحركة الفنية كل ماتحتاجه من حرية ودفع وتقدير . واشتد الاتصال بالحركات الفنية العالمية فانطلق البعض يرود العواصم العالمية يقيم المعارض ويتصل بكبار الفنانين ، واندفع البعض الآخر ينهل من المكتبات العالمية فيقرأ او ينقل الى العربية مايغذي فكره وخياله ويفيد الآخرين . وابتدأت محاولات جديدة للامتياح من الفن العربي القديم ، الفن الذي يملأ متاحفنا وينتشر في كل ركن من



في سوق الهال

الياس زيات

وطننا السوري . وشعر الفنان ان مصادر الكشف عن اسرار الفن أصبحت بين يديه ، فانبرى يحاول التجربة وراء التجربة في سبيل ابـــداع اسلوب خاص به بعيد عن تقليد الطبيعة والواقع ، بعيـد عن محاكاة الاساليب الفنية الشائعة ، قريب فقط من نفسه ومن واقعه ومن تراثه .

وكان ثمة سباق من اجل الابداع ، هـــذا الذي نشهده في معرض الخريف اليوم .

فقدان المقياس

على ان المشكلة اصبحت اكثر تعقيداً . فعندما كان الفنان يتكىء على المدارس الغربيه الشائعة ، كان يبرر اسلوبه بما امتلأت به متاحف العالم من اعمال كاندنسكي وغوغان وميرو وشاغال .

اما اليوم فقد بدا فناننا وكأنه يستخف بهذه المدارس المعروفة فهو يستخف بالانطباعيـــة ، ويرفض تسميته بالفنـــان السريالي ولا يعترف بالتجريدية ومـــع ذلك ، فهو يستعمل الوان الانطباعيين ويستفيد من أفكار السرياليين ويعتبر التجريدية من مظاهر الفن الغربي . والناقد امام هذا الواقـع لايستطيع اعتماد اساس ثابت للحكم على العمل الفني ، كما ان الجمهور المتذوق الذي حصل حداً معيناً من الثقافة الفنية ، سيقف امام وجه جديد للفن قد يصعب عليه ادراك أهميته .

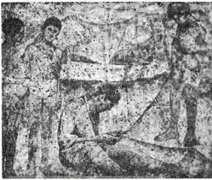
زنوبيا ملكة تدمر

سامي برهان



شباك الصيد

لؤي كيالي



عقدة الفهم

وليست المشكلة في مجرد فقدان المقياس . وانما هي في المحاولات المزيفـــة التي سيخترعها بعض الفنانين ـ وقدقال (فنتوري) Vintouri المؤرخ والناقد الفني الشهير ان من مساوىء هـذا العصر أنه لا يكشف الزيفالا بعد زمن طويل ، وكان من مساوىء العصور السابقةانها لاتكشفالجدارة الا بعد زمن طويل . والحق ان اسباباً كثيرة تدفع الى الرياء في الفن ، واسباب كثيرة ايضاً تدفع الى الوهم باهميتهـا . فالمتذوق العادى او حتى المثقف يعتقدأن العمل الفني الذي امامهيتجاوز حدود ثقافته . ولـكي يخفي شعوره بالعجز فهو يدعي الفهم والاعجاب ، وهذا يؤدي بالتالي الى شيوع الاعتقاد بجدارتها .

دور اصحاب الاقلام

ان المشكلة تزداد سوءاً عندما يقف النقاد وسماسرة الفن لـكي يعلنوا اهمية لوحة أوتمثالما. فلنتصور فناناً ناشئاً مثل بوفيه Buffet وقد أخذ يده الناقـد Sandlberg ساند بيرغ ، فكتب عنه ورفع من شأنه . او لنتخيل كيف يرتقـع المصور اليهودي شاغال على اكتـــاف الصحافة والدعاية الصهيونية .

ان مـاندة اصحاب الاقلام لاولئك المزيفين هي التي تشكل الجانب الخطر من المشكلة .

في معرض الخريف

ونحن بعد هذه المقدمةلانحاول الخروج بعيداً عن حدود معرض الخريف . إذ يبدو ان جميع

المشاكل التي عاناها الفنانون في الغرب خلال القرن الحالي امتدت بالضرورة الينا . ومع ذلك فاننا سنحاول استعراض أهم مظاهر هذا المعرض.

لقد اتسم هذا المعرض بالسباق كما قلنا وبالشعور بالمسؤولية ، والبحث .

اما السباق ، فهو سباق من اجل الابداع او سباق من اجل الانتاج، أو سباق من اجل ارضاء التيارات المتطرفة ، واخيراً سباق من اجل كسب الجمهور . وليس من حرج ان يتسابق الفنانون، بل على العكس ففي ذلك شعور بأهمية المرحلة التي يعيشونها ، ولكن الخوف من ان يهتم فنانونا باكملهم ، فيغفلون الكيف ، الخوف أن يهتم الفنان بعدد المعارض التي اقامها وبعدد اللوحات التي انتجها ثم ينسى اللوحة ذاتها .

على اننا لاننكر على الفنانين العارضين شعورهم بمسؤولية العمل الفني ، ونرى ذلك عند الوقوف امام لوحات محمود حماد وفاتح المدرس والياس الزيات ولؤي كيالي . ويتجلى هذا الشعور إما في محاولة الاخلاص للموضوع كما هو الأمر عند لؤي ، واما في محاولة اكتشاف ابعاد جديدة للتصوير كما هو الامر عند حماد أو بمحاولة تكثيف الموضوع عند الزيات او بمحاولة استقطاب عناصر التصوير في لوحات فاتح التجريدية الاخيرة .

ولقد حاول الفنانون اجراء (بحوث فنية) اذا جاز التعبير ، فالفنان نصير شورى يحاول الخروج عن الوان الانطباعيين في لوحته (منظر) لكي يستفيد من تدرجات اللون البنفسجي فقط ، فيوزعها في لوحة واحدة توزيعاً رشيقاً يكاد يغطي الحاجة الى باقي الوان موشأته Palette وممدوح قشلان يتابع اسلوبه التكعيبي ولكنه استطاع ان يوفق الى حد بعيد في لوحته (بسط شرقية) حيث استخدم اكثر الألوان تناقضاً بنجاح ومهارة.



الصحراء

محمود حماد



اشاعـــة

روبير ملكي

اما الفنان نوبار فهو مازال امينا على اسلوبه الانطباعي وقد برزت لوحته المسماة (ولدي) في صدر المعرض . كذلك بقي عبد القادر النائب ذلك المصور البارع في نقل الوجوه .

محاولات للتجديد

وفي المعرض محاولات ابداعية جديدة ،منها محاولات عبد القادر الارناؤط وعدنان الارناؤط للتجريد . ولقد نجح عبد القادر في لوحة (وجوه) كما نجح عدنان في لوحة (شيوخ) اما سامي برهان ، فقد قدم لوحتين من اسلوبه الجديد الذي يعتمد على تقنية خاصة . ولوحة ظل القضبان لاسماعيل حسني هي من انجح اللوحات التي قدمها حتى انلآ وحبذا لو استمر في هـذا الاسلوب التعبيري . ولقد رحل روبير ملكي الى التجريدية الصريحة في هذا المعرض ، ونعتقـد ان الوان روبير اصبحت اكثر نضارة وان خطوطه تساعده كثيراً على ابراز مضمون خاص قـد يعبر عن (قلق) (أو فرح) (أو فكرة مسيطرة) .

الضغط على النحاس .. والحفر

ومن ابرز الاعمال المعروضة اعمال الضغط على المعدن التي قدمتها السيدة جوزفين تاجر ، ونحن نلفت الاهتمام الى هذا الفن الذي يحظى في البلاد المتقدمة بالفن بكثير من العناية والتقدير .

ولاول مرة ايضاً تضم المعارض الرسمية اعمالا

تمثال ابراهيم هنانو — خالد جلال



في الحفر . فلقد قدم هشام زمريق بعض الصور الحفرية الناجحة كما قدم حماد صوراً في الحفر الملون .

ومن الفنانين الشباب الناجحين فؤاد ابوكلام ونذير نبعه وعبد المنـان شمه وخالد من ووجيه مدور .

اما الفنانين الذين قدموا عدداً قليلامن انتاجهم في هذا المعرض ، فهم زهير صبان وشريف ارفلي وحزقيال طوروس .



جامع

عبد القادر أرناؤوط

بدوي — ضغط على المعدن

جوزفين تاجر



وفي النحت

وفي النحت عرضت اعمال الفنانين الذين تقدموا لسابقة اقامة نصب الزعيم ابراهيم هنانو فقد قدم خالد جلال دراسة كاملة للتمثال ، وقدم مخلص صابوني دراسة ناتئة لمعركة الحرية . كما قدم وديع رحمه دراسة ناجحة لهنانو يقود المعركة ، ونجيح وحيد استامبولي في تحقيق الشبه في تمثال الزعيم ابراهيم هنانو .

هذه دراسة مجملة عن معرض الخريف لعام ١٩٦٢ ونعتقد ان هذا المعرض حقق الى حد بعيد اهداف وزارة الثقافة والارشاد القومي في رفع مستوى الفن في سورية .

سورية

في مهرجان السينما العالمي الثاني ببيروت

بقلم صلاح دهني

كانت سورية احدى الدول الثلاث والعشرين التي اشتركت في مهرجان السينما العالمي الثاني في بيروت .. وكان المهرجان الاول قد انعقد في العاصمة اللبنانية في العام الفائت ، واشتركت فيه ثلاث عشرة دولة فقط .

وقد لوحظ تغيب مصر العربية للسنة الثانية على التوالي عن المهرجان العربي ، ولم يمر ذلك دون تعليقات كثيرة ، وأحيانا قاسية ، من قبل المسؤولين اللبنانيين والصحافة اللبنانية . ومثل سورية في المهرجان فيلم ثقافي ملون هو «الشاهد الوحيد ، أرواد » من انتاج وزارة الثقافة ، واشترك البلد المضيف لبنان بفيلم طويل من اخراج اقوى مخرجي البلد الشقيق ، جورج نصر ، هو فيلم « الغريب الصغير» الذي كان كعمل سينمائي رائعاً في بعض الاحيان دائماً مع الاسف ، ولم يكن يضيره سوى أنه لايعبر عن لبنان ولا ينشر أريجه ، حتى انه لايتكلم لغته ! وأذكر - كرقم اجمالي - ان مجموع الأفلام الطويلة التي عرضت في المهرجان كله بلغ ١٧ كما بلغ مجموع الأفلام القصيرة ٣٠ .

ولوحظ أن الولايات المتحدة استكفت عن تقديم أفلام طويلة واكتفت بعرض فيلمين قصيرين من مستوى متوسط . في حين عرضت فرنسا ثلاثة أفلام طويلة وانكلترا اثنين والاتحاد السوفييتي اثنين وكذلك اليابان .. وكان مستوى هذه الأفلام بصورة عامه متوسطاً ، كما أن بعضها سبق أن عرض في مهرجانات أجنبية أخرى . على أن ذلك لا يضير المهرجان اللبناني ، فذلك أمر معتاد في المهرجانات التي يصدف ألا يعرض فيها - من أصل عشرات الأفلام - سوى واحد أو أثنين من مستوى استثنائي فعلاً .

على أن المستوى المفتقد في الافلام الطويلة قد وجد في الافلام القصيرة ، أو على الاصح في بعضها . أذكر منها على وجه الخصوص الفيلم الهولندي « حديقة الحيوانات » من اخراج « هانسترا » وقد سبق أن شاهدته في مهرجان برلين ، هذا الصيف وكان ثمة فيلم بريطاني يروي أوذيسة اثنين من ناقلي الدواب عبر الصحارى الاسترالية » ولفت الانظار الفيلم التشيكي بالرسوم المتحركة « البلبل الثري » ، وأثبتت به تشيكوسلوفاكيا انها ماتزال سيدة البلاد المنتجة لهذا النوع من الافلام . كما لفت الانظار الفيلم السوري « الشاهد الوحيد ، أرواد » ولعلي أذكر انه ما إن أذيع في صالة المهرجان - الحمراء - عن عرض الفيلم السوري حتى ضجت القاعة بالتصفيق ثم عاد النظارة يصفقون على نحو أشد بعد انتهاء العرض .

وقد حضر من فرنسا أكبر وفد ، فيه

مخرجان وممثلتان وممثل وموفد حكومي ، وجاء على رأس الوفد المؤرخ السينمائي العالمي والناقد الشهير الدكتور جورج سادول (استاذنا في الصوربون وفي معهد الدراسات السينمائية العالمية في باريس) الذي كان النجم الحقيقي للمهرجان . وحضر من بريطانيا أربعة أشخاص ، وحضرت خصيصاً من أمريكا جين مانسفيلد (ومعها بروكات من الشعر المستعار ، كانت تقنع رأسها بواحدة جديدة منها مع كل وجبة طعام) . وكان هناك ممثلون لسورية وهنغاريا واليونان والهند وباكستان والاتحاد السوفيتي .

ونزل هؤلاء كلهم ضيوفاً على الحكومة اللبنانية التي انفقت على المهرجان ٦٠ــ٧٠ الف ليرة لبنانية . فهل خسر لبنان ؟ كلا فقد اثبت فعلا أنه مركز اشعاع فكري وفني للعالم العربي ، وأثبت فعلا طبيعة مركزه الجغرافي ، بأنه عتبة متحركة بين آسيا والعالم العربي . ولبنان لم يكن يسعى الى اكثر من ذلك ، فعصرنا هو عصر الدعاية الذكية ، ولبنان ــ بتنظيم المهرجان ــ قد عمل بروح العصر وتفكيره .

وأخذنا نحن كسوريين من الاشتراك في مهرجان السينما ، أننا اثبتنا اسم سورية كدولة بدأت تشارك في حضارة العالم الحديث ، بأساليب العالم الحديث . وأمكن عن طريق الاتصالات الشخصية أن تقدم الى ممثلي الفن السينمائي وممثلي الصحافة المحليين والاجانب فكرة طيبة وصادقة عن تطور بلادنا في جميع الميادين ، وكذلك عن قضاياها السياسية والاجتماعية .

وبهذا كله ، كان اشتراكنا في مهرجان بيروت بناء ومفيداً لنا ولسمعة بلادنا في آن واحد .



المبادىء الحديثة في عمران المدن كما طبقت في فارسوفيا

خلاصة محاضرة الاستاذ ستانيسلاف جيفولسكي في المعهد العالي للفنون الجميلة

كانت فارسوفيا قبل الحرب مدينة فقيرة، كثافة سكانها كبيرة، وشروط السكن تهبط مع تزايد السكان. وفي ١٩٣٩ كان سبعون في المئة من مساكنها مؤلفة من حجرة او اثنتين، وكلما كان المسكن صغيراً كانت كثافة سكانه اكبر. وكانت ربع المساكن لاتجاري لها وليس فيها لاماء ولا غاز ولا كهرباء.

وحين جاءت الحرب واحتل الألمان فارسوفيا، أخذ المختصون الهتلريون في عمران المدن يضعون برنامجاً لتحويلها الى مدينة المانية سكانها مئة الف يتجمعون في الاحياء الجميلة على الضفة اليسرى من نهر الفيستول، بينما يسكن البولونيون «المتخلفون» الأحياء القديمة على الضفة اليمنى.

وفي صيف ١٩٤٤، اندلعت ثورة فارسوفيا، ولكنها فشلت بعد تسعة أسابيع من القتال المرير، فعمد الهتلريون إلى طرد سكانها البالغين تسعمائة الف من الضفة اليسرى، وفي اليوم التالي بدأت فرق خاصة من الجيش تهدم المدينة عن بكرة ابيها.

وحررت المدينة في كانون الثاني ١٩٤٥، وكانت ٨٧ ٪ من البنايات الواقعة على الضفة اليسرى خربة في حالة لاتصلح معها للسكن، بينما النقل معطل، والجسور مهدمة، وشبكات المجاري محطمة بكليتها. ولم يكن سكان المدينة يجاوزون ١٦٢ ألف ساكن.

وبدأ السكان يعودون الى فرسوفيا، والعمران «العفوي» يأخذ مجراه، فكان على السكان أن يبدأوا باصلاح الجدران والسقوف والنوافذ وتنظيف الطرقات من الردم، ليتنقلوا بعد ذلك إلى بناء المساكن الجديدة.

وفي ١٩٤٨ بدأت مرحلة جديدة من البناء المنهاجي بقدر ماتسمح موارد البلاد. وسأحاول أن اصف باختصار الملامح الكبرى للمخطط الأساسي في بناء فرسوفيا.

قسمت المدينة الى احياء للسكن، واحياء صناعية، ومركز، وساحات كبرى للتسلية والرياضة، وجعلت الاحياء على شكل حلقات تدور حول مركز المدينة وتلتقي فيها. وتخالط الحدائق هذه الأحياء وتحيط بها من كل جانب.

وقد بدأ تنفيذ هذا البرنامج أول الأمر كبرنامج طويل المدى. ثم وجد من الضروري أن يجزأ إلى مجموعة من البرامج قصيرة المدى ضمن المنهاج الاقتصادي العام، واخيراً عدنا فوضعنا منهاجاً طويل المدى جداً ينفذ حتى ١٩٨٠.

واليكم بعض الدراسات التي قمنا بها من أجل هذا البرنامج الطويل جداً. إن سكان فرسوفيا سيبلغون في ذلك التاريخ مليونين ونصف المليون ثم يزيدون بعد ذلك.

ولما كان لايمكن لحدود المدينة الحالية أن تستوعب اكثر من مليون ونصف في شروط حسنة، فقد كان من الضروري تحويل هذا



وراء القضبان ـ أدهم اسماعيل

البرنامج بحيث يستوعب منطقة كاملة من المدن الصغيرة في ضاحية بالعاصمة لتصبح جزءاً منها . ومن الطبيعي أن يكون للمواصلات شأن كبير في هذه المنطقة ، فوضعت دراسات تتعلق بهذا الموضوع ، وبكل مايتصل بالتوسع من قضايا الماء والمجاري والطاقة ، ثم وضعت دراسات للساحات المخصصة للتسلية والرياضة .

ويحسن بي أن أسهب بعض الشيء في موضوع بيوت السكن . هذه البيوت تتقاسم بناءها البلديات والتعاونيات والمؤسسات الصناعية والأفراد ، ويجدر بنا أن نشير إلى أن التعاونيات ثلثاها تعاونيات مستأجرين والثلث يضم المالكين الذين يتلقون قروضاً بلدية أو لايتلقون ، أما الأفراد فيبنون مساكن فردية لهم فقط ، ولهم في بعض الأحوال حق أخذ القروض .

والعمران من ناحية المظهر يتطور باستمرار ، ولكن تطوره أبطأ مما تفرض الظروف الاقتصادية والتقنية المتبدلة في سرعة كبيرة . فالمواد الأولية لاتتوفر دائماً بصورة كافية ، ونقصان الفولاذ يقلل من امكانية الزيادة في ارتفاع المساكن وفي عدد المساكن العالية ، كما يقلل امكان الاستفادة من الانابيب للتجهيزات الصحية ، ولذا فان الاستفادة القصوى من الارض لاتعود ممكنة ونضطر الى بناء المزيد من الابنية المنخفضة التي تستغرق المساحات الكبيرة وبالتالي فان شكل المدن واتساعها يتبع لا الضرورة الفنية والجمالية ، وانما مقدرة البلاد على انتاج المواد الأولية اللازمة للبناء .

واذا كان العمرانيون يعارضون في هذه التبعية للظروف الاقتصادية ، فانهم في نفس الوقت يفهمونها ويحاولون التلاؤم معها ، ولذلك فان العمراني والاقتصادي يعملان معاً في اعداد المنهج ، وهي الميزة الكبرى لسياسة العمران البولونية المنهجة .

وبالاضافة الى القضايا الاقتصادية والتقنية ، تدخل عوامل اخرى في وضع البرامج العمرانية ، عوامل اجتماعية . كان اول هذه العوامل عودة أهل فارسوفيا الى مدينتهم بعد أن غادروها ، وكانت العائلات تحاول أن تجد بيوتاً في نفس السعة التي كانت لبيوتها في الماضي لتستأنف حياتها كما كانت على الاقل ، ولكن في نفس الوقت كانت فرسوفيا تصبح كالعواصم الكبرى بلداً نشيطاً تسوده الحركة ويكثر فيه الشباب ، وبالتالي تكثر فيه الحاجة الى المساكن الصغيرة . وهكذا بدأت العائلات تميل الى الاجتماع ثم مالبثت ان مالت الى التوزع الى وحدات أصغر حاجتها الى المساكن غير حاجة العائلات الكبيرة . وهذه الوتيرة في التبدلات الاجتماعية كانت سريعة جداً في فرسوفيا بسبب ظروفها التي ذكرناها ، ولم يكن سهلا على العمراني أن يأخذها بعين الاعتبار ويستمد منها دروسها . ولذا فالدراسة الدائمة الدؤوب للحاجات الانسانية الحقيقية ولرغبات الناس تصبح ، بالاضافة الى العناصر الأخرى التي سبق ذكرها ، من أسس سياسة العمران البولونية المنهجة .

وراء القضبان

لوحة زيتية على القماش ، قياس ٨٥ × ٦٠ اشترك فيها الفنان ادهم اسماعيل في معرض الربيع لعام ١٩٥٩ وهي من مقتنيات مديرية الفنون التشكيلية في وزارة الثقافة والارشاد القومي .

يعتمد الفنان ادهم في هذه اللوحة على اسلوبه الشخصي . وهو اسلوب يقوم على مبادىء الفن العربي الا انه يمتاز ايضاً بطابع حركي. والصورة تمثل معتقلين سياسيين يحرسهم جندي الاستعمار وقد برز الى يمين اللوحة وجهالثائر الغاضب .

ادهم اسماعيل

ولد ادهم اسماعيل في انطاكيةعام ١٩٢٣ ، وعند استيلاء الاتراك على اللواء ، انتقل الى دمشق مع اخوانه الذين كرسوا انفسهم للدفاع عن عروبة الاسكندرون وقد مارس ادهم التصوير منذ ان كان فتياً ثم عين مدرساً للتصوير في المدارس الثانوية، وفي عام ١٩٥٣ اوفد من قبل وزارة التربية الى روما لدراسة التصوير والزخرفة هناك ، وعند عودته عين مدرساً للفنون وما زال يعمل في هذا الحقل حتى اليوم .

يعتبر الفنان ادهم من كبار المثقفين فنياً ، وهو يستعد لاصدار كتاب في تاريخ الفن .

رونيه هويغ يحاضر في دمشق عن الفن

في مطلع تشرين الثاني ، دعت وزارة الثقافة والارشاد القومي البروفسور الفرنسي رونيه هويغ لالقاء محاضرة فنية تحت عنوان « مدخل الى فن التصوير » ، وقد قدم مدير الفنون التشكيلية المحاضرة بالكلمة التالية :

الفن يتجاوز الحدود بدون سمة ، هكذا قال البروفسور رونيه هويغ René Huyghe في سفره الفني الاخير الذى أشرف على اصداره وهو كتاب « الفن والانسان » .

ولقد انتقلت الينا افكار البروفسور هويغ في الفن وعلم النفس بدون سمة ايضاً ، واخذت محلها من التقدير والاهتمام ، وها نحن اليوم نلتقي بالكاتب الشهير وجهاً لوجه لنستفيد – دون أية وساطة – من أفكاره العميقة في مفهوم الفن وفي تأريخه .

والمحاضر علم من اعلام الفكر في العالم ، ولقد اغنى الذهن الانساني بعدد كبير من المؤلفات الفنية. وهو عضو في الاكاديمية الفرنسية وفي اكاديميات عديدة كالاكاديمية السويدية والارجنتينية وغيرهما. كما أنه حاصل على وسام جوقة الشرف . واذا أردنا ألا نغالي في ابراز مآثره وفي تحديد نشاطه، فانه يكفينا ان نرجع الى القواميس الكبرى واهمها لاروس الموسوعي الكبير لكي نقرأ فيه :

« رونيه هويغ مؤرخ في الفن ، فرنسي ، ولد عام ١٩٠٦ في آراس وابتدأ عمله الوظيفي محافظاً في متحف اللوفر ثم رقي شيئاً فشيئاً الى ان اصبح المحافظ الرئيسي لمتحف اللوفر . وفي عام ١٩٥١ بقي محتفظاً بهذا اللقب بصورة فخرية اذ سمي استاذاً في الكوليج دو فرانس لكي يدرس هناك مادة علم النفس في الفنون التشكيلية، وله الفضل باصلاح طريقة عرض اللوحات في متحف اللوفر .

أشرف هويغ على عدد من المجلات الفنية منها : حب الفن و (كادريج) وغيرهما. وكتب في امهات المجلات الفرنسية وترجم له عدد من المقالات الى العربية وفي مجلة المعرفة مقالات نشرها الاستاذ فؤاد الشايب بمجال الحديث عن رونيه هويغ . وقد أصدر حتى الآن عدداً من المؤلفات الفنية منها (سيزان) الذي اصدره عام ١٩٣٦ ، و (الفنانون المعاصرون) الذي صدر عام ١٩٣٩ . وفي عام ١٩٤٨ أصدر كتاب الرسم الفرنسي في القرن التاسع عشر . وفي عام ١٩٥٢ اصدر مفكرة بول غوغان كما اصدر عام ١٩٥٤ كتاباً عن دوغا . وبعد عام اصدر كتاباً تحت عنوان « حوار مع المرئي » .

وفي العام الماضي ظهر له كتابه الذي احدث ضجة كبيرة «الفن والنفس» وقد ضمنه دراساته الواسعة في بسيكولوجية الفنون التشكيلية وهي

الموضوعات التي قدمها في الكوليج دوفرانس .

ومنذ عام ١٩٥٨ بدأ هويغ باصدار سفره الفني العظيم (الفن والانسان) وقد ظهر الجزء الثالث منه في عام ٩٦١ ، ويقـع الكتاب في الف وثلاثمائة صفحة مع الفين من الصور الدقيقة واشترك في تأليف الكتاب كبار المختصين في العالم نذكرمنهم على سبيل المثال بازان وكاسو وشيفر وليونيللو فانتوري وغاستون ويت .

وقد عرف المحاضر هذا الكتاب بقوله : انه مؤلف يعرض الفن عل انه تجربة من التجارب الرفيعة للانسان . وهو يبين كيف ان تطور الفن يتوضح بتطور الانسانية وكيف تؤثر الابداعات الفنية بدورها في مصير الانسان .

ثم قدم البروفسور هويغ محاضرته وابتدأ بكلمة ليوناردو دوفانسي الذي قال : ان الخط هو اول الفن . وأثبت بشواهد من فن ماقبل التاريخ وهي صورة يزون مرسومة على جدران لاسكو كما استشهد برسوم لفان غوغ وأبان اهميـــة الخطوط فيها .

وتطور الفن عندما اراد الفنان نقل الواقع بابعاده الثلاثة وهي الطول والعرض والعمق . وبما ان اللوحة لاتملك البعد الثالث ، كان لابد للفنان من الايهام به . وهكذا اوجد الظل والنور والمنظور ، ولقد استعان المحاضر لبيان ذلك بعدد من اللوحات الفنية لميكل انج ورامبرانت وغيرهما.

ثم وجد الفنان نفسه مضطرا للتعبير عن الحركة وهذا مخالف لطبيعة التصوير ، فكان لابد للمصور او الرسام من الايهام ايضاً بالحركة .

وقد ابان المحاضر ان الفن يعود ابتداء من الانطباعية الى التخلي عن الايهام بالبعد الثالث ثم الى التخلي عن الحركة والاكتفاء فقط بتقديم علاقات لونية او خطية . بل انه تخلى ايضاً عن التعبير عن الجمال المألوف .

ولقد أصبح للجمال اسباب فيزيائية ونفسية ، اما الفيزيائية فهي تبدو في الاعمال المريحة عضليا فالخط المنكسر متعب على عكس الخط المنحني الانسيابي ، لهذا فهو اكثر جمالا من الاول . ثم ان التصميم الهندسي في تمثال الفارس وفي لوحات « فوكية » مريح للنفس . كذلك فان اعمال بيكاسو الاولى كلوحـة (زوجته) . فهي في جلستها وسكونها مدعاة الى الراحة النفسية .

وثمة انتقال الى مفاهيم جديدة في الفن ظهرت منذ مونيه ، برزت في التقنية الجديدة وفي اعادة المدينـة التي اصبحت اكثر كثافة واقرب الى العفوية .

وبعد فان من العسير تلخيص هذه المحاضرة المدهشة التي قدمها البروفسور رونيه هويغ مصحوبة بعرض الصور الايضاحية بالفانوس السحري ، فالذاكرة وحدها لاتفي ، وأننا لنرجو أن نتلقى منه كما وعد ملخصاً وافياً نقدمه للقراء في عدد قادم .

سورية

العالم

● افتتح السيد وزير الثقافة والارشاد القومي معرض الخريف لعام ١٩٦٢ في المتحف الوطني وقد حضر المعرض وزير التربية والتعليم والامين العام لرئاسة الجمهورية والامين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي وجميع رجال السلك السياسي والادباء والفنانين . وقد عرض في المعرض ١٨٠ لوحة وتمثالا لسبعين فناناً وفنانة وقد قسمت المعروضات بين المتحف الوطني والمركز الثقافي . وفي هذا العدد دراسة عن معرض الخريف .

● قامت بعثة من فرق وزارة الثقافة والارشاد القومي (المسرح القومي ، مسرح الفنون الشعبية ، المسرح الغنائي) مؤلفة من سبعين شخصاً باجراء التجربة الاولى في مسرح بصرى الكبير ، وقدمت عليه بحضور ثلاثة آلاف نسمة من اهل بصرى والمنطقة وكبار الموظفين يتقدمهم المحافظ وكبار الضباط ، مشاهد مسرحية وغنائية ورقصات شعبية . وكانت الغاية من هذه التجربة معرفة مقدار اصلاح هذا المسرح من ناحية الصوت في حال وجود اعداد ضخمة من المتفرجين لان الاجسام البشرية تمتص كمية من الصوت . وقد نجحت التجربة نجاحاً مبدئياً وتقرر الاستمرار في اجراء التجارب لدراسة كل ما يتصل بامكانيات العمل المسرحي والفني على هذا المسرح .

وقد أخذت (نشرة الثقافة) السينمائية في وزارة الثقافة والارشاد القومي شريطاً عن هذه التجربة الاولى التي عاش فيها مسرح بصرى ، لاول مرة منذ نحو خمسة عشر قرناً حين اجتمع فيه الالوف ليشهدوا برنامجاً فنياً ، بعد أن كان قد طمت وردم حتى قيض له مجهود المديرية العامة للآثار الذي كشفه واعاده الى الانسانية .

● قامت فرقة التصوير السينمائي التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي بتصوير مدينة دمشق من الجو ، واستأنفت تصويرها لباقي المدن السورية وذلك تمهيداً لانتاج افلام عن الحياة في سورية .

● سافرت بعثة من الفنون الشعبية الى المحافظات لتسجيل بعض التقاليد والفنون الشعبية .

● اشتركت وزارة الثقافة والارشاد القومي في المهرجان الموسيقي الذي اقيم في بيروت وقد اثارت الافلام التي انجزتها الوزارة اعجاب الحاضرين .

● افتتح في المركز الثقافي في حمص معرض فني للرسام الالماني رودولف كرجلر ثم انتقل المعرض الى باقي المحافظات .

● ابتدأت الاستعدادات لانشاء مركز للفنون التطبيقية في دمشق .

ويتضمن المركز فرع للصب بالبرونز ، وفرع للحفر على الخشب ، وفرع للخزف وفرع للفنون اليدوية .

● تم انشاء مركز للفنون التشكيلية في حمص .

● سيفتتح في السادس من الشهر الحالي معرض التصوير اليوغسلافي في المتحف الوطني .

● ابتدأ مسرح العرائس موسمه في مسرح أبو خليل القباني ، فقدم مسرحية (علاء الدين والفانوس السحري) و (المريض) و (البطة الذهبية) و (الحطاب) .

● دعت وزارة الثقافة المهندس البولوني السيد دجيفولسكي لالقاء محاضرة في ردهة المتحف الوطني عن فن تنظيم المدن الحديث في بولونيا ، وقد القيت المحاضرة باللغة الفرنسية مع الاستعانة باللوحات المعروضة في المتحف بمناسبة معرض فن الانشاء والعمارة وتنظيم المدن في بولونيا .

● قبل مسرح الفنون الشعبية في وزارة الثقافة والارشاد القومي الدعوة التي وجهت اليه للاشتراك في المهرجان الالفي لبغداد والكندي الذي تقيمه الجمهورية العراقية ، وسيتألف الوفد من ٤٥ عضواً برئاسة الاستاذ كامل القدسي مدير المسرح والموسيقا ويسافر في اوائل كانون الأول ويقدم ثلاث حفلات في العاصمة العراقية .

منطقة اللاذقية – حفريات أوغاريت

انهت البعثة الأثرية الفرنسية أعمال التنقيب في في رأس شمرا أوغاريت بعد أن عثرت على كنوز فنية وتاريخية على غاية من الأهمية وأعلن المدير العام للآثار والمتاحف أن هذا الموسم كان موسما غنيا للغاية وأن وثائق في منتهى الأهمية تم العثور عليها .

كما تم العثور على جرة كبيرة من الفخار ضمت خنجراً ذهبياً ذا قبضة مزينة بزهرات اللوتس وثلاثة صحون فضية واناء فخاري في وسطه دبوس من الفضة وآخر من ذهب .

وصرح المدير العام للآثار والمتاحف أن بعثة شيفر كشفت النقاب عن لوحات فخارية وقد فسرت نصوصها وتبين منها أنها تحوي قصائد دينية تمجد الآلهة وأخرى ذات صفة تشاؤمية حول مصير العالم وهي وثائق تلقي ضوءا على ديانة وآداب سكان أوغاريت القدماء .

ولاشك أن ما عثر عليه هذا العام والأعوام العديدة الماضية من شأنه أن يزيد في ثروة البلاد التاريخية والفنية ويشير بأحرف من نور الى أن الانسان السوري انسان مبدع وفنان بالفطرة منذ الألف الثاني قبل الميلاد الى اليوم ، فالى فنانينا الباحثين عن موضوعات جديدة وطرق حديثة في الفن تقدم هذه الباقة من روائع الفن لتكون نبراسا يهتدون بهديه .

صالة الفن الحديث العالمي

معرض الفنان طالب يازجي

أقيم في الشهر المنصرم في صالة الفن الحديث العالمي معرض هام للرسم هو معرض الفنان طالب يازجي والذي عرض فيه سبع عشرة لوحة فنية

زيتية وحفر وفي كلا الطريقتين الزيتية والحفر تجلت قوة الفنان واصالته وقد اتسمت لوحاته بقلة الخطوط التشكيلية التي تكاد تحدد الموضوع لتحل محل تلك الخطوط مساحات لونية عميقة الدراسة .

وفي لوحاته نوع من الأجواء الحلوة المحببة كلوحة (عائلة) و (مكالمة) التي تشعرنا بتلك الاجواء وبالدراسة العميقة التي خص فيها الفنان لوحاته اذ أن الدراسة التي تسبق الموضوع تدل بوضوح على جدية العمل الفني المقدم وشعور صاحبه بالمسؤولية أمام الجمهور المتذوق .

في موضوعاته التي عالجها أجاد التعبير عن البيئة القروية البدائية فهو لم يمثل فيها مظاهر الفقر تمثيلا بشعاً وانما عمد الى الرمزية فأحسن استخدامها في هذا المجال فعبر عن شح الموسم الزراعي بالحيوانات الهزيلة التي ضمنها بعض لوحاته ولكنه في تعبيره عن البيئة لم يتناول البؤس فحسب لأنه ليس بالفنان المتشائم ابداً بدليل ألوانه التي اتصفت بالحيوية وانما تعداه الى الأفراح الى الأجواء المرحة وقد جاءت لوحته (ياليل ياعين) بمن فيها من العازفين والمستمعين الطربين مصداقا لما أقول وفي هذه اللوحة وفي غيرها ابدع الفنان الى أبعد الحدود في اظهار الحركة والحيوية التي تعتبر جزءاً من العالم الذي لم يعرف الجمود والمتأمل بعمق في لوحات الفنان المعروضة يراه (الفنان) يتجه بخطى وئيدة وأكيدة نحو الفن التجريدي أنه في خط سيره بدأ من البداية التي يجب أن يبدأ منها الفنان حتى انتهى الى المرحلة التي مثلها في معرضه الأخير . انه الفنان المتطور بنجاح في هذا المجال .

صالة الفن الحديث العالمي
معرض جماعة ـ ج ـ

أقيم في صالة الفن العالمي معرض فني ضم انتاج سبعة من الفنانين الأوربيين وسوري واحد هو الفنان محمود دعدوش والمعرض المذكور يطلق عليه اسم معرض جماعة ـ ج ـ وتمثل أكثر لوحاته الاتجاه التجريدي .

ومن بين الفنانين المشتركين في هذه التظاهرة الفنية (مانفريدو اشربو) الذي يعتبر زعيم هذه الجماعة وهو من أكابر الفنانين الايطاليين وأستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة بروما . وفي لوحاته تجلت التجريدية المطلقة الا لوحة وجه التي تبدو فيها مسحة من الانطباعية أما (أكاتينو) فقد بلغ في لوحاته ذروة التجريد كلوحة « مربع أبيض داخل مربع أسود » ذات الخلفية الترابية والتي تذكرنا بلوحة الفنان ما لوفيتش التي عرضها في موسكو ١٩١٣ ـ والتي كانت تمثل مربعاً أبيض اللون فوق سطح أسود والتي قال عنها في كتابه لاتعدو أن تكون احساساً بانعدام الموضوع واتجاها نحو التجريد .

ومن المساهمين في هذا المعرض أيضاً السيدة اسام التي امتازت لوحتها بحرارة الألوان والاغراق في التعبير عن الحركة التي لم تعرف الانقطاع وهذا ما يتجلى بصورة خاصة في لوحتها « الراقصة » .

أما لوحات الفنان سكوت والتي رسمها بالحبر الصيني والألوان فتنم عن مهارة فائقة في التكوين والانسجام في الخطوط والالوان بينما نرى الفنان

يكرت جرى في استعمال الالوان القاتمة جاعلا منها لوحات تتسم بالقوة وخاصة اللون الاسود الصافي . وفي حقل الالوان المائية نرى الفنان بيركاهو وهؤلاء جميعا انضووا تحت لواء المدرسة التجريدية المطلقة وكذلك الفنان محمود دعدوش فهو أحد فنانينا السوريين التجريديين الذين ألفنا اتاجهم منذ سنوات فعرفنا فيه الجرأة والتجديد وصفوة القول ان المعرض حقق بعض النجاحات وان يكن قدلاقى بعض الانتقادات ممن لايدينون بهذا المذهب من الفن .

روما ـ معرض الفنان محمود دعدوش

غادر دمشق في الشهر المنصرم في طريقه الى روما الفنان محمود دعدوش وذلك لاقامة معرض هناك وقد بدأت اعداداته لهذا المعرض منذ اشهر ومن المعروف ان انتاج الفنان دعدوش يلقى نجاحات كبيرة في اوروبا الذي تطور تطوراً واسع المدى وعى المذاهب الفنية الحديثة وعياً يخوله قبول الاتجاهات الحديثة على اختلاف مدارسها الفنية .

فالى الفنان دعدوش نقدم اخلص تمنيات الوطن بالنجاح .

اخبار الفن

سنبتدىء اعتباراً من هذا العدد بتقديم اخبار الفن من جميع اطراف العالم ، بعد جولة نقوم بها عبر امهات المجلات الفنية العالمية . وسنحاول في الوقت ذاته ابراز النشاط الفني في بلادنا ، في كافة المجالات ، في الفنون التشكيلية ، وفي المسرح وفي الموسيقى وفي الفنون الشعبية ومسرح العرائس.

الاخبار العالمية

عن مجلة (حديقة الفنون) الفرنسية

— تقيم جامعة باريز معرضاً فريداً من نوعه في قصر المكتشفات يتضمن بعض اللوحات والمخططات والخرائط المتعلقة بالمكتشفات الحديثة الجغرافية والتقنية والعلمية ، ويشرف على هذا المعرض المعهد الوطني للجغرافيا .

— صدر عن نادي اصحاب المكتبات في فرنسا كتاب بعنوان « كتابات مالفن » Ecrits Sus L'art جمع لاول مرة جميع النصوص التي كتبها بول فاليري في الفن وعلم الجمال ، ويتضمن الكتاب مايقرب من مائة وثيقة مصورة .

— اقتنى متحف غوغنهايم في نيويورك لوحة « الزها الكبير » للفنان الشهير فيرناند بجيه .

— نال الفنانان الشهيران المصور الفرنسي ماناسيه والنحات الايطالي جياكويتي الجائزتين العالميتين لبينالي البندقية لعام ١٩٦٢ . ومن الفنانين الذين لفتوا انتباه الجمهور والنقاد ، الفنانان الايطاليان كابوغروسي ومورلاتي .

— تم اكتشاف لوحات جدار به « فريسك » من العهد القوطي في الكنيسة السورية في تروفاياش.

عن مجلة Bilbende Kunst الالمانية

— توجت المجلة عدد ايلول الاخير بلوحة ملونة زينت فيها غلافها الخارجي وموضوعها ، « تحرير الجزائر » وهي للفنان كارل ايريش ميلر.

— تضمن العدد لوحة جدارية كبيرة ، مع

دراسة نظرية للفنان الالماني فرانك غلازر ،الذي زار دمشق منذ عامين وأنتج فيها مايزيد عن ثلاثين لوحة اقام منها معرضاً في القنصلية الالمانية الديمقراطية .

— وفي العدد مقال طويل عن الفنانة اللبنانية عائدة مارديني ، وقد ارفق المقال بلوحات من الحفر على الخشب تحمل الطابع المحلي الصرف .

عن مجلة Sovem Aris الانكليزية

— ابتدأ الرديال باليه في مسرح Couvent Cgardlen موسمه في ١٠ ت ١ . والان يقدم باليه Lo.Fiele mol gardée

— يقدم على مسرح سادلرز ويل في لندن باليه دون كيشوت ،اخرجها ويتولد بور كونسكي . وقدم الموسيقى لودنغ والديكور فويتيك .

— كان الموسيقار الروسي ديمتري شوستا كوفيتش ضيف الشرف في مهرجان ايدنبورغ . وقد رافقه عدد من كبار العازفين الموسيقيين الروس .

— نشرت المجلة مقالا عن لورنس اوليفيه ، تحت عنوان من دور هملت الى دور مهرج دايان قال الناقد ما كواي ،ان اوليفيه اكتسب حتى الان اكبر شعبية ممكنة وخرج كبار الممثلين .

عن مجلة Studio الانكليزية

يقام في لندن معرض جامع للوحات الفنان فلاديمير فافورسكي ، في فن الحفر . ويضم لوحات الفنان التي انجزها خلال خمسين عاماً . عرضت في صالة غروز فينور Cros venor .

● وفي سانت جورج غاليري في لندن عرضت لوحات تعبيرية لفنانين يابانيين وكان لهذا المعرض دوي كبير في المحافل الفنية ،للموضوعات المثيرة التي عرضت فيه .

عن مجلة Sale arte الايطالية

ظهرت في متحف المتروبوليتيان قطعة اثرية في النحت الناتيء ، كانت مفقودة منذ وقت طويل من المنبر الروماني للقديس بولس في سكيراجيو وهذا الأثر هو نموذج عن الاسلوب الفلورنسي في القرن الثالث عشر . والمشكلة التي تتحدث عنها الصحف ، هي كيف يمكن استعادة الآثار المسروقة ، فهذه القطعة هي السابعة التي وجدت مؤخراً من اجزاء ذلك المنبر الأثري .

عن مجلة بلاد السوفييت

يقدم المسرح البولشوي الكبير تمثيلياته في داره الكبرى في موسكو ؛ كما يعرضها بشكل منتظم على مسرح قصر المؤتمرات الذي انشيء حديثاً في الكرملين .

ومن موضوعات الموسم التي سيقدمها مسرح بولشوي ، الحرب والسلام لبروكوفيف وباليه سبارتا كوس لخاشادوريان وطريق الغابة من وضع جوكوفسكي .

عن صحيفة Arts الفرنسية

● يقام في صالة الفنون الجميلة معرض للفنان كاسيوليس وفي صالة دروان للوحات للفنان بولا

● تستعد الهيئات الفنية في فرنسا للاحتفال

في العام المقبل بمرور مائة عام على وفاة الفنان العالمي دولا كروا .

عن مجلة Scolo الالمانية

● افتتحت جمعية غوته الفرنسية ، متحفاً خاصاً في الاسكا سينهايم ، في نفس المنزل الذي قطنه غوته عندما كان صبياً .

● اصدرت منظمة اليونسكو ، اي منظمة الامم المتحدة التربوية والعلمية والثقافية ، فيلماً خاصاً بالتلفزيون جمعت فيه وجوهاً مختلفة من التقاليد الفنية العالمية وعن بلاد الشرق الاوسط اختارت « نصر الدين خجا » والمسمى عندنا بجحا شخصية تركية فكهة للتسلية . وذلك الى جانب الرقص الهندي ، والتمثيل البولوني والتشاتشاتشا الامريكية .

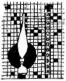
● في المجلة مقال قيم عن حياة الفنان الالماني الشهير اوتوديكس وهو فنان تعبيري نقاد.

عن مجلة Lopologne البولونية

● في العدد الاخير من هذه المجلة ، نماذج عن احدث اساليب فن الاعلان البولوني

● تتضمن المجلة دراسة عن الفنان البولوني بوتوروفسكي مع عرض لبعض لوحاته بالالوان ، كذلك دراسة عن النحاته البولونية ألينا شابو شنيكوف واسلوبها تجريدي محض .

● وتحت عنوان الانشاءات في المستقبل قدمت المجلة دراسة عن فن العماره الحديثه معتمداً على صور مختلفة . ومن مجموع هذه الدراسات يتبين كيف ان الفن في بولونيا يتطور بعيداً عن الجو .



جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

دعوة إلى المعالجة ـ حول محاولة الدكتور الخيمي تحليل الشخصية السورية ـ الشعوب الواعية ما انفكت تحلل شخصيات كياناتها ، ومقوماتها وتنقدذاتها ـ وماذا يضيرنا أن نكتشف انفسنا لنتعرف إلى واقعنا ـ هل مفكرونا جديرون بالمعالجة ؟ ! ـ

بقلم فؤاد الشايب

عندما قررت وزارة الثقافةوالارشادالقومي، اصـدار مجلة (المعرفة) كان الهدف الأول والأمثل الذي وضعته لجنة الادارة والتحرير نصب العين ، أن يدرس مفكرونا قضايانا ، وأن يشرعوا علومهم واقلامهم لمعالجـة المسائل التي يعالجها المجتمع ، ويعانيها ولا يعرف كيف يمر بها ويتعامل معها ، أو تنقصه المعرفة في التصرف حيالها ، فلا يتصرف الا مرتجلاً ، أو عن‌هوى ، أو يتصرف بلباقة من ينقذ نفسه ، ولا يعود إلى

التطلع وراءه، وحسبه أنه سر بأقل غرم، وادنى عناء. حتى اذا عادت مضخمة، هذه المسائل، وستعود ابداً متطورة بمضاعفاتها، معقدة بما ترا كم من رسوباتها، اصبح المجتمع اكثر عجزاً عن التصرف حيالها، واقل قدرة على الخروج منها.

ولاشك ان المجتمع على الشكل الموصوف اقل ما يقال فيه انه مجتمع بدائي.

وكانت الدعوة الموجهة إلى نخبة من المثقفين والجامعيين ورجال الفكر والأدب والفن، فيما جرى معهم من احاديث شخصية، ومن رسائل مكتوبة تدعوهم إلى معالجة مواضيع معينة، ذات تماس بماضينا، وحاضرنا ومستقبلنا – كانت **الدعوة صريحة، في انها دعوة الى المعالجة** المعالجة التي لاتحدثنا عن علم النفس مجرداً، بل عن هذا العلم في تحليل حياتنا، ولا عن فلسفة التاريخ المطلق، بل عن فلسفة تاريخنا نحن، كشعب له تاريخ. ولا عن تجارب التربية كما تعاقبت على اقلام كبار المعلمين والموجهين في امريكا، بل عن تجاربنا نحن خلال الخمسين سنة الأخيرة. ولا عن الانحرافات الجنسية في بريطانيا وفرنسا مثلاً، بل عن مشاكل البيت، والحياة العائلية في وسطنا وبلادنا. وماذا يجدي أن تكون اطروحات دكاترنا الجامعية، عن الحقوق المدنية الفرنسية، او الاشتراكية المقارنة، أو حقوق الانسان، او لنقل انظمة الضرائب التصاعدية، أو الاقطاع الاوربي في القرون الوسطى.. الخ الخ، مما عالجه المثقفون، أو المأذونون بالعلم، وسجل لهم به فضل العلم، وتقدم المعرفة..، عندما لانجد اثراً او الا اثراً قليلاً، في حصيلة هذه المعارف مع انظمتنا، وحقوقنا، وواقعنا، درساً وبحثاً ومعالجة. وهل تستحق قبائل الاسكيمو مثلاً أن نعرف عن غرائب حياتها وطرائفها، أكثر مما نعرف عن هذه الحياة العجيبة، في قرية سورية مطمورة في بطن واد، أو محجوبة في كهف جبل! وهلا حفزتنا نماذج الأحصاء على الطريقة الأمريكية في حساب كم من العمر يقضي الأمريكي في حلاقة ذقنه، اذا عاش ستين عاماً، وكم رطلاً من معجون الصابون يتلف في الحلاقة، وكيف يجدر به توفيراً للوقت، والمال ان يحلق ذقنه بشيء غير الماء والصابون؟! تقول هل حفزتنا هذه المحاولات الاحصائية، التي قد ننظر اليها شذراً، ونصنفها في الهذيان! ونحن باكثريتنا الساحقة لا نجيب على سؤال، كم عدد سكان سورية الا هكذا: اربعة ملايين اربعة ونصف، خمسة تقريباً!! نقول: هلا حفزتنا تلك الاحصائيات، إلى أن نعرف ونقدر خطر المقارنة بين ما اذا كانت نسبة الوفيات للولادات، خمسة في الألف او خمسين أو خمسمائة! وماذا يعني ذلك؟!

حملنا الدعوة، وابلغناها عدداً غير قليل من الاساتذة، والزملاء، وحاولنا أن تكون بحوث القسم الاجتماعي من هذه المجلة، وهو القسم الذي رصد للمعالجة، بحوثاً في شؤون حياتنا وفي صميم معضلاتنا ومبهماتنا، بما اقترحنا على المفكرين من مواضيع وعناوين، وبما اجرينا من اتصالات، ومابذلنا من وساطات، وملاحقات وان يكن من الواضح للمتابع، أن بعض من دعوا قد لبى

وكتب ، وحاول وابدع ، وكان الصدى ، على النطاق العربي الواسع ،وثناء ، وحمداً واعراباً عن التقدير والاعجاب. فمن الواجب ان نذكر ايضاً بأن فريقاً آخر تهيب ، وآخر استمهل ، وآخر وعد وسوف وماطل ، وآخر بذل مجهوداً في حدود المجاملة واللطف ، فكان مشكوراً . ومن هذا الفريق المتهيب ،المستمهل، المسوف ، المجامل ، كل نخبة المثقفين ، الذين يستوون اليوم في مكان الصدارة من منابرنا ومعاهدنا ووجاهات الرأي في بلادنا .

عند هذا العرض العاجل ، نقبل على موضوع تأليف المعالجات في الفكر العربي اين هو ؟! وما وزنه . وهل وفاه حقه ، المثقفون والجامعيون ، واذا كان التدريس المكرور قد اغرقهم ، فكيف نتشلهم ، وكيف نردهم للمجتمع الذي سلمهم قيادته الفكرية . فلم يكونوا له في الجهاز الجامعي سوى اداة تفريخ ،لجمهرات من أجيال المتخرجين الباحثين عن الستر والعافية والوظيفة ، والبلغة الملوقة التافهة ، ولم يكن الخط البياني الجامعي خلال ربع قرن مضى ، سوى انحدار مستمر من مرتفعات منهل العلم إلى التبلغ بفتات الموائد ، وتضييع المواهب ، واهدار الطاقات العاملة .

وفي ذيل هذا العرض ، يطالعنا من صلب الموضوع موضوع آخر ، ان لم نقل مواضيع، يحمل كل منها مسألة ، ومعضلة ، وعدة اسئلة : اذا كان مجتمعنا الناشيء بحاجة إلى عناصر الثقافة والفكر ، للادارات ، والرئاسات ، والعمادات، والنيابات ، والوزارات ، والقيادات السياسية ، فهل يجب أن تخلي منابر العلم من أهلها . وماذا على الدولة ان تفعل ، لترفع من شأن هذه المنابر ، بحيث تصغر امامها القيادات والزعامات ، والسياسات؟! أم لاسبيل إلى هذا ، بحكم الوضع الاجتماعي الذي لاغنى له في مراحل التدرج عن امتصاص العناصر المثقفة ، وهضمها في دوار الحركة اليومية الساحقة، ليسمن بها ويصح ! ؟ وهل حصل شيء من ذلك فعلاً ؟! كيف وماهي آثاره ونتائجه ؟! اسمن ، ام ورم ، أم هزال وضياع ؟! اليست هذه ، باسئلة ! ؟

ان أي منشأة علمية ، او محاولة ثقافية جدية، في بلادنا ، تشعر عندما تباشر عملا فكرياً ، ان قد اخلي من حولها ، وأن العناصر التي تنشدها ، لاتكاد تتوفر الا بالعناء الشديد ، على الرغم من مظاهر توفرها . حتى ان الدولة نفسها عندما تتثاءب وتتمطى في ضجعتها ، وتشعر احياناً بانها تكاد تنسحق امام عجلات الزمن المسرع ، فتقوم الى عمل جدي ، تجمع له نخبة مفكريها ، لاتجد بين يديها ، سوى كل من شغلته هي نفسها عن الثقافة ، والبحث والعلم بمشاغلها ، والهياتها ، فتروح تبغي له أن يكون بلسانين واربعة عيون، وثمانية اقدام ، وستة عشر ذراعاً .

. . .

يبدو لي انني اكاد ادخل في معالجة المعضلة . وما رمت لها معالجة حقاً . ان هي الا عملية عرض عابرة ، أردتها ان اذكر المثقفين هنا، وفي

المدى العربي ، أن رسالة المعرفة ، قد بلغت شأناً لدى جمهرة القراء العرب ، وحاز نهجها الثقافي في تنشيط البحث ، والدراسة ، والترجمة ، علماً ، وادباً وفناً ، نجاحاً ملحوظاً ، لاتزال بحاجة ماسة الى تدعيمه وتطويره ، وتوسيعه ، على الأخص - **بذاك النوع من المعالجات التي يتوفر فيها العلم والمعرفة ، على تحليل اوضاعنا ، وشؤوننا ، ومشكلاتنا.** فان يكن مفيداً حقاً أن نلم بقواعد تفجير الذرة ، والسير الفضائي المتعدد المراحل ، أو يكن من المفيد حقاً أن نعرف كيف تعالج الدول المتقدمة ازمة الديموقراطية ، وكيف تتطور الانظمة الاجتماعية السياسية ، وكيف نجحت في بلد ما تجربة الرأسمالية الاشتراكية ، وفي بلد آخر تجربة الاشتراكية غير الرأسمالية ، **أو** كيف تعالج امريكا الضمان الاجتماعي ، وكيف تردم هولاندا البحر ، وكيف تتغلب الصين على المرض والفقر والمساحات الواسعة ، والفوضى السياسية .. إلى مامعنى تجربة دوغول في فرنسا ، وما أثر قيام السوق الاوروبية المشتركة في الاقتصاد العالمي .. الى آخر ماجد من كشوف في علم الحياة ، والوراثة ، والتطور . نقول ان يكن من المفيد هذا وذاك ، فليس الا من الاكثر فائدة ، وتلك عدتنا من العلوم والمعارف ، وبيننا يقيم المختصون في التاريخ والجغرافية ، وعلم النفس ، والرياضيات ، والتربية ، والفلسفة والاقتصاد والحقوق العامة والخاصة - أن نلقي اضواء معارفنا على حياتنا ، ونغرس في حقولنا نظرياتنا ، ونتطلع بطموح شرعي ، الى البحث العلمي والتفسير التاريخي في ضوء كل اكتشاف ، والى التحليل النفسي والاجتماعي ، والتشريح السياسي والاقتصادي ، لنؤكد بأن تجاربنا انما نوفر لها اللقاحات من افكارنا وآرائنا . وحقائقنا وحدها - اننا لسنا جرماً صغيراً ..! -

ثم ماذا ؟! ان الروح العلمية التي نريدها لأنفسنا ، ليس من الضروري ان تكون ماثلة في قدرتنا على صنع الصواريخ واطلاق الاقمار ، او التنافس مع السوفييت والامريكيين على بلوغ القمر ؟؟ **بل هي تمثل احسن مثول في افكارنا الواضحة ، عندما تعي بالمعرفة حقائقنا القائمة ، وحاجاتنا القارعة .** خلال خمسة أعوام تلي قد يمحق العالم بعضه بعضاً بالصواريخ ، والغبار الذري ، والحميات النووية ، خلال هذه الاعوام **الخمسة ، يجب ان تكون سورية قد قضت قضاء امبرماً على الامية** ، وفق منهج مدروس - لاتزال الابجدية اعظم اختراع قام به الانسان منذ وجد حتى اليوم - ،

والتفكير العلمي في معالجة شؤوننا ، وطرح مشاكلنا ، لاتنحصر في عرض سريع ، انواعه وابوابه . وحسب المثقفين واصحاب الدراسات الاختصاصية ، ان يقولوا كيف نبدأ ، لانا لانزال مبتدئين ، وكيف نسير ، والى اين نتجه ، وماذا نفعل وماذا لانفعل ؟! وسواء تفتحت لهم الآذان ام كان فيها وقر ، فليطرحوا خبزهم على وجه المياه ، يجدوه بعد ايام ، ولو كانت بعيدة !

احدى المحاولات الجريئة

ان مايدعونا اليوم ، في هذه الجولة ، الى

تجديد الدعوة ، ليس الشكوى من تلكؤ المكلفين فحسب ، بل اقدام البعض منهم ، على المعالجة اقداماً فتح للمعرفة لدى القارىء العربي ، آفاقاً جيلة من الاشراق والرجاء . ان هـذا البعض ليس قليلا عديده في بلادنا ، مهما اتهمناه بالكسل والتواني ، وقد ساهمت نخبة منـــه في بحوث المعرفة ، منذ عددها الاول ، وكانت المساهمة قبلة الالسن والقلوب والعقول . وان لم يكن من موضوع الجولة ان اكرر عناوين البحوث تلك باسماء اصحابها الأماثل ، فقد رايت ان اقدم اليوم نموذجاً منها في محاولة الطبيب الدكتور مـــدني الخيمي ، تحليـــل الشخصية السورية ، بحثين ـ العددان السابع والتاسع من المعرفة ـ كان لهما عند قارئنا العربي ، تقدير واهتمام بالغان .

بحدود اطلاعي ، ان بحث (فرط الحساسية في المجتمع السوري)، بحث بكر ، والاقدام عليه ، سمة مثقف محال ، واثق من ثقافته . واذ نعلم ان المعالجة لم تكن للاطراء والمديح ، وتبيان المزايا ، بل هي اقرب الى التشريح والتجريح ، ندرك ان الغوص عموديا في عمق الشخصية السورية ، ليس هدفه القيام بحركة ثقافية رياضية استعراضية ، بل القبض على اشياء ثمينة يخرجها الباحث من القاع . وقد وقع الدكتور مدني على الشخصيـــة السورية متلبسة باوضاعها وعواملها الجغرافية والتاريخية والبشرية ، وبهزاتها المتعاقبة خلال نصف القرن الاخير ، وخرج من تحليل الفارقات في الصورة الفكرية للمجتمع السوري الى حصيلة من الحكم على المجتمع تدعو الى التأمل ، والى مزيد من البحث والتقصي . فيم هـذا القلق المسيطر على المجتمع السوري !!

انها سمات المجتمع المتحرك ، المتنافر القيم . مجتمـع يمثل مخاض التطور في ولادته العسيرة ، مجتمع قافلته ضاربة في كل الاتجاهات ، بعضها في القرن العشرين وبعض لانعلم اين في تاريخ الازمان الخوالي ، كل التشابه بينهـا انها تعيش في محيط جغرافي واحد ، وفي ظرف تاريخي واحد ـــ خلاصة مقطع من البحث ـــ .

وبعد هذه الصورة التي تمثل التنافر الثقافي في المجتمع السوري ، بين ثقافة القرن العشرين التي كسبها الشباب منذ نحو من اربعين عاماً ، وثقافة التقاليد العتيقة الماثلة في الوسط المعزول البعيد عن التطور ـ وهي بالحق صورة الوسط العربي بأجمعه ، وليست صورة سورية خاصة ـ نقول بعد هذه الصورة عن التنافر الثقافي يلخص الدكتور خيمي ، عوامل شتى من وراء الاضطراب وعدم التوازن ، في المجتمع السوري فيردها الى جوار الصحراء ، وطابع الحزن الذي يلازمها ، والنفوس الحزينة اكثر انفعاليـة واشد حاسية ، ثم الى طبيعة الشعوب الرابضة حول البحر المتوسط ، وما عرف عنها من انها شعوب متوترة انفعالية في حالتي الرضـــا والغضب . ثم الى تاريخ سورية الحديث وما تخللـه من هزات واضطرابات

واضطهادات ، ولد معها مزيد من الحساسية وميول الى التقلب وعدم الثبات .

واذ يكاد يشعر القارىء أن تحليل العوامل الجغرافية ، والبشرية ، يوشك أن يلفظ حكماً نهائياً على حتمية اضطراب المجتمع السوري ، يبادره الباحث الدكتور خيمي بخاتمة المقال منبها الى أن هذه العوامل الطبيعية ، انما تعالج آثارها وتشوهاتها بالتربية والثقافة، **وخلق روح المواطنة لدى الشعب ، لأن حرية المواطنة ، تؤدي الى اضعاف فرط الحساسية ، والى اعادة النفوس المتوترة الى سوائها ، وترمي الأساس المنطقي لمجتمع ثابت لاينفجر ، لانه خال من الضغط والكبت ، ولا يتموج ويتقلب رأيه العام ، لأنه قد جرد مشكلاته وعرضهـا للبحث والنقد في ضوء الموضوعية ، وانتهى الى حلول لاتفاجىء الناس اوتثير انفعالاتهم .**

وقد تخلل البحث صور كاريكاتورية ساخرة للاضطراب السياسي ،والعقائدي في تاريخ الهزات السورية المتعاقبة ، رسمها الطبيب خيمي ، بمبضع جراح ماهر ، هي بالواقع من حصيلة ثقافة مثقف سوري ، يجمع الى براعة المهنة ، سعة الاطلاع، واليهما معاًروحاً ساخرة ، وقلماً ثقيلاً كمبضع جراح لاينظر الى الجرح مشفقاً حذراً ، بل الى ماوراءه من علة خبيثـة ، يجب ان تشهر على شفار مبضع حاد .

وبعد فالمعالجة التي قدمها للمعرفة ، الدكتور مدني الخيمي ، ان تكن مقتضبة مرصوصة عنيت بمجموع الصورة ، اكثر مما عنيت بتفاصيلها ، فهي تبسط ، موضوعاً ، يصح ان يناقش بهذه التفاصيل نفسها وعلى الاخص من حيث العوامل المؤثرة في تكوين المجتمع السوري . ويبدو لي أن التوسع في النهج الذي اتبعه الباحث في التحليل والتشخيص ، يجب أن يسوق حتماً الى التأليف في سمات الشعوب السامية وصفاتها المشتركة ، والى صفات أخرى مشتركة، بين شعوب البحر الابيض المتوسط ، ثم الى العوامل المنبعثة من التاريخ العربي المشترك ، ثم الى الأوضاع السياسية التي عانت سورية تجاربها خلال النصف الاول من هذا القرن . فاذا توفر لهـذا الموضوع باحث او باحثون ، كان له اكثر من مقال في مجلة ، انه جدير بمؤلف كامل يفتح في باب المعالجات العلمية فتحا جديداً ، ويأخذ بيدنا ، الى تسقط الينابيع التي تنفجر منهـا شخصية مجتمعنا : من نحن ؟!

هذا بحث علمي نموذجي ، في ادق المواضيع واجزلها فائدة ، وامتعها يباشره بكل جرأة وثقة ، نموذج خاص من المثقفين السوريين . انه ليس كاتباً مؤلفا ، ولا محترف كتابة . انه طبيب موزع بين العيـادة والتدريس الجامعي الطبي ـ الأمراض الداخلية ـ والمشاغل اليوميـة ، يعرفه جمهور المثقفين بين العام والعام ، بندوة ،

او بمحاضرة ، أو بمقال في مجلة ، يعالج فيهـا مختلف الشؤون الطبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فيتقنها .

لماذا يهدر هذا النموذج الراقي من المثقفـين العرب ، بين العيادة، والتدريس والمشاغل اليومية، ويفيد منه اي شيء في مجتمعه الا البحث والمعالجة؟!
ان هذه اللماذا التي نطرحها ، تؤلف الى جانب ماعرضنا من قضايا ، قضية ذات بال ، يجب ان نمد اليها قلم المعالجة ايضاً . وهي ليست على كل حال قضيـة طبيب ، لايريد ان يكون باحثاً ومؤلفاً ، بل هي تعالج مع تكوين هذا المجتمع الذي يخرج فيه المواطنون عن وظائف مؤهلاتهم خروجاً تلقائياً ، بحكم الفرع الشاذ الذي يحكمه وهو فصل العامل عن عمله ، والعضو عن وظيفته والخط عن استقامته . مامرجع هذا الشرع الشاذ ؟! ومن هذا الشارع الظالم ؟! أليس هذا سؤال يستدرجنا الى اسئلة ؟

المثقفون يشرحون مجتمعاتهم

كانت مطالعاتي ، هـذا الشهر ، وراء هذه المعالجات في حياة الأمم ، وهي ليست جديدة في التاريخ الفكري لـكل امة . وان يكن من تقاليد المعالجات في الماضي تمجيـد المثقف لعرق امته ، او لدينها ولأمجادها وبطولاتها ، ظالمة أومظلومة فمن ابرز سماتها اليوم في تيارات الفكر العالمي ، أنها تشريح وتجريح ، ونقد ذاتي ولعلها في حدة هـذا النقد ومرارته ، ليست أبعد في التاريخ من منعطف الربع الثاني من هذا القرن ، ولعل الحرب العالمية الأولى كانت اقوى البواعث على

خلق أدب جديـد ، يكاد يقطع صلاته بتقاليد الماضي وبأساليب معالجاتـه ، ادب مر مالح ، ليست غايته بمدأن يطرب ويعجب ، بل أن يعذب ويجلد ، ويقرع الضمائر ، ويصب على اللاا كتراث حمماً لاهبة .

اذكر أن حملة امريكية قام بها منذ اعوام بعض المفكرين دفاعاً عن الولايات المتحدة ، التي يظلمها ادباؤها ولاسيا مؤلفو الرواية منهم مهيبين بزملائهم قائلين اليس في هذه البلاد الجميلة الغنية ، القوية ، المدافعة عن الحرية ، اشياء تستحق عطف الروائي الامريكي . ولماذا تصورونها يا أبناءها بأمقت الصور ؟! والحق أن أدب القصة الامريكية الجديدة منـذ أربعين عاماً ، من سنكلر لويس مؤلف (بابيت) الرواية المشهورة الى شتاينبك الذي حاز على جائزة نوبل لهذا العام ، قام مجدها على هـذا النوع من الأدب المر ، الذي ينقد الاوضاع الامريكية ، ويهزأ بواجهة مجـدها ، ومظاهر ثروتها ، ويدلق احشاء المجتمع الامريكي امامه ، بشكل صورة مفجعة مذهلة محزنة . ولقد كان اروج الكتب في الاسواق العالمية خلال العامين الاخيرين ، روايـة الامريـكي البشع The Ugly - American لمؤلف امريكي وكتاب تشريح بريطانيا The Anatomy Of Britain وهو كتاب بحث ونقد ومعالجة لمؤلف انكليزي.

وعلى هامش النقد الذاتي ، واحتدامه بين الفرقاء المتنازعين على النظريات والآراء ، في المانيا الغربية كنت اقرأ في ملحق التايمز الاسبوعي الادبي عدد ٢٦ تشرين الاول مقالا عنوانه (**متناقضات**)

لكاتب انكليزي ، يلقي رأيا في الشادة الالمانية حول النقد الذاتي .

ويبدو من المقال الانكليزي ، انه بالرغم من اقرار الكاتب بمزايا النقد الذاتي ، فانه يأخذ على الالمان ، نزقهم وتطرفهم في النزاع ، اذ أن احد الكتاب الالمان يقول في شعبه ، انهم سرعان ما ينزلقون من اطراف النشاد الفكري الى خصومات حاقدة ثم يشير المقال الى تعدد انواع المنشورات في المانيا التي تتسابق الى تحليل الاوضاع الراهنة على الصعيد الفكري، والاجتماعي والاقتصادي والسياسي **وأن اكثر المطبوعات رواجاً شعبياً ما تجمع له كبار المفكرين والجامعيين في تحليل او تشريح او نقد** . ومعظم هذه المطبوعات يدور حول وجود المانيا ومعناه ، وقيمه ، ومسيره ومصيره؟! بعضهم يسير في خط الفلسفة التحليلية للوجود الالماني ، حتى يبلغ « نيتشه » ، وآخر يستنجد بهيغل ، وآخر بيونغ والجميع يفتشون عن المانيا بعد الحرب ، اين تقع في هذا العالم ، وكيف تنقذ نفسها مما يسميه احد الالمان **حيرة مفرق الطرق** .

ولعل هدف المقال الانكليزي من عرض انطباعات كاتبه حول النشاط الفكري الجديد في مجالات النقد الذاتي ، أن الالماني قوي الشكيمة معتد برأيه ، متعصب لمذهبه ، بعيد عن روح التسامح وانصاف الحلول وأن التحقيقات العلمية التي يقوم بها الالمان انفسهم في الوسط الشعبي ، تدل على ان الشعب بطبعه لايقبل منازعة في رأيه ويود لو يفرضه على الاخرين فرضاً ، ولعله بذلك يبتعد عن روح الديمقراطية التي تقوم على شيء من التنازل والهوادة ، **واقامة الجسور**

ثم يورد المقال الانكليزي رأيا لمفكر الماني ، يدعو فيه الى التسامح والتواصل بتعبير اقامة الجسور Bridge - Building مع قناعة هذا الالماني بأن هذا الاسلوب من التعامل ليس قريباً من التفكير الالماني الذي يسوده الاعتقاد عموماً ، بأن التسامح اوالتنازل عن بعض المواقف ، دليل هوان وضعف ، وان لا شيء يستطيع اقامة الجسور بين الضفاف المتباعدة اذا كان لا بد منها سوى ضرورة الوقوف بوجه عدو مداهم. ويبدو من موقف الانكليزي تجاه النقد الذاتي الالماني انه لا يريد لألمانيا مثل هذه الروح الشاكة المشدودة بالعصبية العنيفة ، التي تخوض المشادة لغرض ما ، ثم تنسى الغرض نفسه ، لتخوض المشادة من اجل المشادة نفسها ليس الا .

ومهما يكن من شأن النظر الانكليزي الى العقلية الالمانية ، فانه مما لا جدل فيه **أن انشغال مفكري العصر بالنقد الذاتي ، مبتدئين بأنفسهم ، اصبح اليوم سمة من سمات الأدب العالمي** ، ومما لا شك فيه ان هذا التجرد الثقافي ، من أجل الصدق والانصاف والحق ، مهما احتدمت المشادات ، لا ينطوي على غاية اصلاحية شريفة ، فحسب ، بل انه يكتسب على المستوى العالمي ، سمواً انسانياً يخرج بالفكر عن اطاره المحدود ، إلى اربعة آفاق الدنيا. وان اقبال الجماهير على مثل هذا الأدب المتجرد الذي

تكمن قوته في واقعيته ، لافي اساطيره وخرافاته وعجائب خيالاته ، ليؤكد لناحاجة اي مجتمع الى ان يرى نفسه مفتوحاً على مغاليقه ، تحت كشف الانوار الحادة ،

نقول هذا ، ونحن عندما ندعو الى مثل هذا النشاط الفكري ، القائم على قاعدة من **العلم والمعرفة ، والذوق السليم** في تحليل اوضاعنا ، وعرض مشكلاتنا ، لاننكر حساسية الوسط الذي نعيش فيه ازاء اي عملية قاسية من عمليات النقدالذاتي وتقدر كل التقدير سرعة عطب الثقة بالنفس عندما تلامسها بلا تحفظ وساوس التشكك ، على ان الطمأنينة المدوخة بالغرور ، او المعصوبة بالجهل ، ليست من علامات الصحة في أمة تسبل عليها العافية ترهلاً قميئاً ، واجتراراً هنيئاً .

وخلافاً لما قد يتوهم البعض ، فان العديد من شؤون حياتنا ، ليس مقفلاً عليه في صناديق المحظورات والممنوعات . فقد اباح لنا طموحنا الشيء الكثير مما كان يحرمه علينا ، منذ عشرة اعوام ، اوعشرين عاما ، اوخمسين ، لأننا بحكم تطورنا وحاجتنا الى التطور تحت طائلة الاندراس والانقراض ، اصبحنا نواجه مشاكل الوجود اوعدم الوجود ، وجهاً لوجه وعيناً لعين ، بنفس الموقف الخطر ، الذي نجابه به اسرائيل ، اوأشد بل ان التحدي الذي ترسله أمامنا معضلات الصمود والصعود ، لم يعد مقنعاً ، وانه في كثير من الأحيان ليصاولنا بكل قسوة واتهام ، كأنه قدخلت الساحة من فرسان النزال ، ولا بد لنا من ان نقبل التحدي ، او ننهزم إلى راحة السلام الابدي .

أما مثقفونا ، فليس قليلاً عديدهم ، والذين عملوا بالقلم منهم ، لنشر الثقافة الحديثة ، في شتى فروع المعارف ، لايجهلهم الوسط العربي . وقد كان عطاؤهم النثري دائماً ، اقل كثيراً من طاقاتهم ومواهبهم ، لأن مجالات النشر لم تكن لتستوعبها حقاً ، ولأن المؤلف منهم كان يشعر أنه غير ملاق جمهوره حيث يجب التلاقي ولأن انصرافهم الى مهنهم الوظيفيه العادية ، تحت مختلف اجواء الفتور واليأس ، والملل ، ولنشدان مستوى من العيش لابد منه لحياة مثقف ، كل ذلك كان وراء ضمور النشاط الفكري النثري ، واستمرار عوم التفاهات على صفحة الحركة الفكرية ، حتى ليمكن القول بلا غلو ، **أن أثر الفكر في حدث الحياة العامة ، يكاد يكون مجهرياً !** واذ يشعر المثقف بعدم وجوده التافه على سطح هذا الركود ، وتهيب به النخوة إلى ضربة قدم فوق الارض ، فلا سبيل له ، كما هو معلوم ، الا ان يعاقر السياسة في حاناتها العامة ، صرفاً وممزوجة ، خلا وخمراً معاً .

ويشعر المثقفون أنهم يجب ان يخرجوا من زمرة الردفاء ، الى صفوف القيادة ، وينفصدون بالعرق ، وهم مستهلكون في المراضات والاعراس والمآتم ، بلا أجر ، او بأي أجر ... ويتنادون في كل ناد ، متسائلين اليس لنا رأي ؟!

واين يعطى الرأي ؟! ان المراضات بعنجهياتها

الجاهلية ، لا تحب ان يدخل هذا الافندي المضحك في زمرتها : الرأي . والرأي ، لم يستطع أن يخترع له العالم ، مكاناً بعد افضل من كتاب . ومهما أفتن المخترعون في عرض الرأي منظوراً ومسموعاً ، فلن يجد الاختراع اداة لنشر الرأي وترسيخ قوة الكلمة افعل من كتاب . وطالما ان الكتاب لا يعزه أهله ، فسيبقون ابداً في زمرة الردفاء ؛ وقد يركبون صهوات القيادة قادة في كل ساحة وميدان ، أما في جبهة الرأي ، فلا قيادة إلا به وحده : الكتاب .

وكانت هذه المجلة ، في ارادة الوزارة التي انشأتها ، محاولة كتاب . وهي اذ تقبل على عددها الثاني عشر ، مكملة عامها الاول ، يشعر عمالها أن قد بلغت بعض الشأن ، وابلغت بعض الرسالة ، وحققت بعض الرجاء في طريق المحاولة .

وقد اراد المشرفون عليها ان يسجلوا خطوة جديدة في المحاولة باصدار الجزء الثاني عشر من كتاب المجلة نموذجياً ممتازاً ، يحمل آثار اصحاب الاقلام ، في بحوث المعالجة ، وان يكون موضوع هذه الجولة تجديدا للدعوة ، وتاكيداً للعزم ، وتحديداً لموعد الانطلاق ، وتذكيرا وتبشيراً . وحسبنا من كل الجزاء ، ان يكون لنا بعض العذر .

والى اللقاء ..

فهرس عام



توزيع شركة فرج الله وروماني ونظام